الوحدة الموضوعية

في القرآن الكريم والسورة القرآنية

التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه

تأليف الدكتور

محمود أحمد سعيد الأطرش

دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن الكريم







الوحدة الموضوعية

في القرآن الكريم والسورة القرآنية

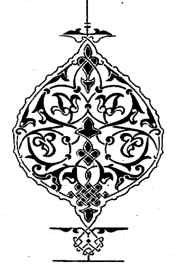


رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع
٢٠٠٧/٨٨٢٣

الترقيم الدولي
977/331/448/0



دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٠٥٤١١٩١٠ - ٠٢٢٢٠٠٢
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

مقدمة

المتأمل في القرآن الكريم يجد أن المحور الأساسي فيه هو العقيدة، حيث كان هدف القرآن الكريم إبراز أن الكون بما فيه من مخلوقات مربوب لله تبارك وتعالىٰ يسبح بحمده ويطيع أمره، وأن الإنسان هو سيد هذا الكون وقد اختاره الله ليكون خليفة له في الأرض ... لذا كان علىٰ الإنسان أن يقيم حياته في ضوء هذا المفهوم وهذا المعتقد.

والقرآن الكريم ركز علىٰ هذا المفهوم في فترتيه المكية والمدنية، حيث ناقش في الفترة المكية أساسيات العقيدة، أما الفترة المدنية فكان فيها الجانب التطبيقي العملي لهذه العقيدة.

والقرآن الكريم ناقش موضوعاته من خلال مختلف الجماعات البشرية، فكان في العهد المكي مؤمنون ومشركون، وفي العهد المدني مؤمنون ومنافقون وأهل الكتاب.

لكن الذي يلفت الانتباه هو أن الجاهلية التي واجهت جميع الأنبياء، وكذا التي كانت في عصر نزول القرآن، هي الجاهلية المتكررة في التاريخ القديم، وهي ذاتها في التاريخ الحديث وإلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنها واحدة في كل عصر وزمان وإن اختلف التسميات والشكليات فدعوة التوحيد واحدة علىٰ مر التاريخ، والدعوات المناهضة لها واحدة علىٰ مر التاريخ.

وجميع المخلوقات من دون الله قضيتها واحدة في الحياة وهي قضية العبودية، فالذي سلبه الله حرية الإرادة في المعصية كان خاضعًا لله طائعًا له - كالملائكة والجمادات والشجر والدواب - والذي أعطي حرية الاختيار ليكون طائعًا بإرادته - كالإنس والجن - كان منهم المؤمن ومنهم الكافر.

وسعادة الحياة بالنسبة للإنسان تكمن في عبوديته لله وحده دون سائر

المخلوقات قال تعالىٰ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]. فالذي يتخذ من المخلوقات أربابًا من دون الله تكون حياته في شقاء دائم، وعندها يصبح مثل سائر البهائم والدواب بل أضل. والذي أصبح عبداً لشهواته تجده يسير في الحياة لا هم له إلا ذلك، فيذل ويخضع لأتفه شيء في الحياة ... كم من فرق بين إنسان اعتبر المال أحد وسائل الرفاهية في الحياة فإن حصل عليه بالطرق المشروعة استخدمه في ما يسعده وما فيه نفع للناس، وبين إنسان جعل همه في الحياة جمع ما يستطيع من مال وبأي طريق ثم يستخدمه في إشباع شهوة لا تشبع ولو كان له مال الدنيا كلها، وعندها يصبح هذا الإنسان هو السلعة الرخيصة أمام المال، ويكون الإنسان عابداً والمال معبوداً، وعندها تنقلب موازين الحياة كلها ... إن الإنسان الذي يتخذ من المخلوقات أربابًا من دون الله يكون كمن يسبح معاكسًا للتيار، فالكون بأكمله مؤمن موحد خاضع لأمره ساجد له، أما الإنسان الجاحد فإنه مخالف للاتجاه، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

والعبودية للمخلوقات لها صور كثيرة في حياة الناس، مثل العبودية للبشر. فاليهود والنصارىٰ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وفسر ذلك النبي ﷺ بأنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعهم قومهم فكان ذلك عبادة لهم واتخذوهم أربابًا من دون الله. وهذا ما يظهر في كثير من حياة الناس، حيث يكون الإنسان هو المتبع ولو كان مخالفًا للحق، والحق عند الكثيرين تابع للرجال، وليس الرجال تابعين للحق .. وكذلك الأمر في العبودية للهوىٰ، فهوىٰ الإنسان هو المتبع، وكأن الحق تابع الهوىٰ وليس العكس.

إن منهج القرآن الكريم يهدف لتحرير الإنسان من العبودية للمخلوقات وأن

يكون الإنسان عبداً لله وحده، ومقام العبودية لله هو أسمىٰ وأرفع مقام يليق بهذا الإنسان الذي اعتبره القرآن سيد هذا الكون وخليفة الله في أرضه، إن الإنسان الذي اتخذ الله ربًا يكون قد سما فوق شهوات الدنيا وفوق العبودية لأي مخلوق، إنه لا يأتمر إلا بأمر الله ولا يخضع إلا له سبحانه.

وهذا هو المنهج الذي يمكن أن تلتقي عليه جميع فئات البشر، وهو المنهج الذي دعا فيه النبيُّ محمد ﷺ أهلَ الكتاب: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فمن المهم إذًا أن نعرف أن المحور الأساسي في القرآن هو العقيدة، لكن الأهم من ذلك هو في معرفة منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة. والمتأمل في تاريخ علم الكلام يجد أن المتكلمين قد أثاروا قضايا فلسفية لو تركوها ولم يثيروها لكان أولىٰ وأسلم لهذه الأمة، مثل قضية «الصفات والذات» وقضية «خلق القرآن» و«الجبر والاختيار». أما القرآن الكريم فيعرض العقيدة بالصورة المبسطة السهلة التي تتناسب مع كل مكلف عاقل، ويركز علىٰ دلائل الفطرة والعناية التي تشير إلىٰ أن هذا الكون لابد له من خالق يخلقه ويرعاه بعنايته؛ وهو واحد أحد فرد صمد قادر علىٰ كل شيء، ويركز علىٰ مخاطبة فطرة الإنسان ويثير أمامه أسئلة مثل: من خَالق هذا الكون وما نهايته، ومن هو الإنسان وما مصيره بعد الموت وما هدفه في الحياة ...؟ ... كما أن الملاحظ أن القرآن الكريم يستخدم لفظة «إيمان» و«يقين» ونحوها، لما في هذه الألفاظ من الدلائل المعنوية علىٰ هذا الموضوع. فالإيمان تصديق معه أمن وطمأنينة، واليقين يكون حينما تنتفي جميع الشكوك والأوهام، وهذا هو الشيء المهم، أي أن يصل المرء في إيمانه لدرجة اليقين ... ثم إن من أهم خصائص العقيدة القرآنية أنها تعرض علىٰ أساس أنها أصل وكل جوانب الحياة فرع لها، كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها .. وليست المشكلة في أن نعرف أن الله حي سميع بصير مريد قدير علىٰ كل شيء، إنما المشكلة في أن تتحوّل هذه المعرفة إلىٰ إيمان،

وذلك أن يعيشها الإنسان بوجدانه وتصبح معرفة حية بحيث تتحول إلي ثوابت نظرية وعملية، ثم لا يكون من الأعمال ما يخالفها، وهذا هو مفهوم الربط بين الإيمان والعمل، يقول عبد الله بن عمر فيما رواه الطبراني في الأوسط بسند صحيح: لقد عشت برهة من دهري؛ وإن أحدنا يؤتىٰ الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة علىٰ محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن نقف عنده منها.. ثم لقد رأيت رجالاً يؤتىٰ أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلىٰ خاتمته ما يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل. والدقل: رديء التمر.

والمتتبع لتاريخ نزول القرآن الكريم يجد أن قضية التشريع أو «آيات الأحكام» قد تأخر التفصيل فيها للعهد المدني، فلم يكن في العهد المكي منها إلا ما يتصل بالعقيدة، ولعل هذا التأخير لأنه لم يكن للمسلمين دولة تطبق فيها هذه الأحكام؛ هذا من جهة، لكن الأهم من ذلك هو لبيان أن الأحكام فرع للعقيدة وتطبيق عملي لجوانبها. حتىٰ إننا لو تأملنا في الوحدة الموضوعية في السور المدنية لوجدناها تدور حول محور يتعلق بالعقيدة، فلو تأملنا مثلاً في «جزء قد سمع» لوجدناه يركز علىٰ موضوعات المحادة والمشاقة لله ورسوله، وعلىٰ موضوع الولاء والبراء، وامتثال أمر الله كما في سورة الجمعة وغيرها. فالتشريع (أو آيات الأحكام) تنبع من العقيدة وتهدف إلىٰ حماية العقيدة وتقويتها في النفوس وتضع الضوابط التي تتناسب مع الفرد والمجتمع المؤمن الموحد لله تعالىٰ. وبالتالي لا يمكن الحديث عن أي نظام اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي بعيداً عن العقيدة. إننا لو تأملنا في أثر الإيمان في النظام الاقتصادي؛ لوجدنا أن له أثراً كبيراً في استقراره ونمائه ووفائه بحاجات الناس، إن المجتمع المؤمن لا يمكن أن تجد فيه محتاجًا ولا مكان للفقر فيه، فالمال مال الله، ولا يمكن الحصول عليه – غالباً – إلا بتقديم نفع للناس ولا يصرف إلا بما فيه نفع للناس، وللفقير حق في أموال الناس بما يقضي فيه حاجاته الأساسية لذا لا يمكن حل هذه المشكلة حلاً جذرياً إلا باجتماع الوسائل الاقتصادية النابعة من الإيمان.

والمتتبع لسور القرآن الكريم يجد أن كل سورة من السور قد تناولت موضوعًا واحدًا محددًا الذي يشكل بمجموع السور الوحدة الموضوعية المتكاملة للقرآن الكريم.

والذي ينظر إلىٰ الواقع الذي نزل فيه القرآن الكريم يجد التناسب التام في نزوله حيث ناقش جميع الإشكالات التي حصلت لهم. لكن القرآن ليس هو علاجًا لواقع ذلك المجتمع فحسب بل هو لكل مجتمع وإن اختلفت أشكاله، لأن القرآن الكريم يخاطب الإنسان كإنسان أيًا كان هذا الإنسان ويضع المنهج الصحيح لإصلاحه. ولا يحتاج القرآن لإنزاله علىٰ الواقع أن يتتبع الإنسان المراحل كما هي في مرحلة نزوله، فإصلاح مجتمع لا ديني علماني ملحد ليس كإصلاح مجتمع متدين بديانة غير مسلمة كاليهودية والنصرانية، وليس كإصلاح مجتمع بدائي تسوده الوثنية، وليس كإصلاح مجتمع يقر بالإيمان بالله واليوم الآخر وبالقرآن والرسول. فلكل مجتمع منهجه الذي ينبع من القرآن، ويترك منهج أسلوب التغيير للعلماء وأهل الفكر والرأي في بيان منهج الإصلاح المناسب.

لكن الذي ينبغي لفت الانتباه إليه هو أن المحور الأساسي لكل تغيير علىٰ ضوء القرآن الكريم هو منهج العبودية لله وتوحيده، فلا يمكن إيجاد منهج للإصلاح والتغيير لا يكون علىٰ أساس الإيمان، فالمنهج الاقتصادي القرآني لا يؤتي ثماره إلا في مجتمع إيماني، لأن فاعلية هذا المنهج رغم عدالته لا يكون له ذلك الأثر الفعال إلا في ظل منهج إيماني، لأن الإيمان كل ما زاد في المجتمع زادت آثاره الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

هذا الكتاب

كان العلماء في السابق يتناولون تفسير القرآن بحسب ترتيبه في المصحف، وكان هذا اللون هو السائد لعلم التفسير، إلا أنه في وقت متأخر صارت تظهر دراسات متخصصة تتناول موضوعًا واحدًا في القرآن، وفي العصر الحديث ظهر

بشكل أكثر وضوحًا، سواء من خلال موضوعات مستقلة أو من خلال التفسير الكامل للقرآن المرتب علىٰ حسب سوره، كما فعل سيد قطب في تفسيره المميز في هذا الباب «في ظلال القرآن» حيث تعرض النظرة المتكاملة للقرآن أو للسورة أو يربط بين موضوعات السورة والسور الأخرىٰ، أو الموضوع ضمن السورة والموضوعات الأخرىٰ المشابهة له. كما ظهرت دراسات مستقلة لموضوع واحد، مثل: الصبر، المرأة، الأسرة، التقوىٰ، الإحسان ... وغيرها.

وقد كتب كثير من الدارسين لتأصيل هذا الموضوع ومنهج الكتابة فيه، مطبقين علىٰ موضوعات معينة لبيان منهج البحث.

لكن هذا الكتاب يتناول القرآن كموضوع واحد ركز عليه، وجمع بين مختلف الموضوعات المتفرقة، مبينًا أن القرآن يدور حول موضوع التوحيد فيشرح ما يتعلق بالذات الإلهية من صفات وأسماء، ويشرح عبارة التوحيد «**لا إله إلا الله**»، وأن المخلوقات كلها تسير نحو هدف واحد هو الدينونة والخضوع لأمر الله، وأن الإنسان مكلف بتحقيق هذا الهدف في حياته، ويرسم المناهج لتحقيق هذا الهدف ليعيش الإنسان حياته في اطمئنان ضمن هذا الكون.

الفصل الأول
التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه

المبحث الأول: ألوان التفسير

المبحث الثاني: التفسير الموضوعي والدراسات السابقة فيه

المبحث الثالث: منهج البحث في التفسير الموضوعي



المبحث الأول
ألــوان التفسيــر

التفسير هو: علم يفهم به كتاب الله تعالىٰ، ببيان معانيه واستخراج أحكامه وبيان إعجازه، وكل ما يتعلق ببيان المراد من كلام الله تعالىٰ. ولابد من ضوابط ووسائل معينة تعين علىٰ بيانه كالعلم بالمأثور سواء ما ورد من أحاديث وما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين، وما فيها من أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، إضافة لعلوم اللغة العربية من نحو وصرف ولغة وبلاغة وغير ذلك من علوم الآلة، إضافة لعلم الفقه والأصول وغيرها مما يخدم تفسير النص القرآني.

وكان التفسير في الأصل يعتمد بالدرجة الأولىٰ علىٰ المأثور عن النبي ﷺ ثم ما ورد عن الصحابة والتابعين إضافة لبعض قضايا اللغة العربية وبعض الإسرائيليات التي وردت عن بعض الصحابة الذين أسلموا ولهم علم بأخبار التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام، حيث يجوز أن يعتمد علىٰ ما علمت صحته أو لم يعلم صدقه ولا كذبه .. ثم كان التوسع في التفسير بالمأثور حيث جمعوا كل صغيرة وكبيرة عما ورد عن السلف أو ما يتعلق بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، إضافة لبعض القضايا اللغوية بما فيها علم القراءات وتوجيهها. وقد تجلىٰ ذلك في تفسير ابن جرير الطبري الذي جمع الكثير من الروايات عن السلف وقارن بينها مرجحًا ما يراه مناسبًا من تأويلات.

ثم ظهر التفسير بالرأي الذي برز بشكل واضح في تفسير الزمخشري الذي طبق نظرية الجرجاني في النظم، وكان قد سبقه مفسرون آخرون مثل أبي عبيدة معمر بن المثنىٰ صاحب مجاز القرآن، ومعاني القرآن للفراء، وللزجاج، وللأخفش. لكن تفسير الزمخشري نقل التفسير اللغوي نقلة كبيرة. حيث يهتم التفسير اللغوي بالمفردات ومعانيها وإعرابها، والقراءات وتوجيهها.

وقد حاول البعض الجمع بين الطريقتين بشكل متوازن فجمع بين المأثور والمعقول، كما فعل الشوكاني في تفسيره المسمىٰ «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير».

وكانت كتب التفسير قد تلونت بألوان طغت عليها ثقافة المفسر وسعة اطلاعه علىٰ علم من العلوم، فتجد من طغىٰ عليه جانب المأثور أكثر من غيره، كتفسير ابن جرير الطبري وابن كثير. كما تجد من طغىٰ عليه جانب النحو والإعراب إضافة للقراءات كتفسير معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للزجاج، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي. ومنهم من طغىٰ عليه جانب علم الكلام والعقائد، كتفسير مفاتيح الغيب للرازي، ومنهم من طغىٰ عليه الجانب الفقهي، كتفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ومنهم من طغىٰ عليه الجانب البياني، كتفسير الكشاف للزمخشري وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير روح المعاني للألوسي. إضافة لألوان التفسير الصوفي والإرشادي الذي أشار إليه الألوسي في تفسيره.

وقد توسع كثير من المفسرين في كثير من العلوم والمعارف بشكل طغىٰ علىٰ التفسير، حتىٰ صارت كتب التفسير محشوة باصطلاحات علمية تصرف عن التعامل مع روح النص القرآني، لذا كان التجديد في التفسير مطلبًا مهمًا، حيث كان للأفكار والثقافات الدخيلة كالإسرائيليات والتعصب المذهبي أثر سيء علىٰ هذه الأمة.

وقد شهد العصر الحديث تجديداً في التفسير، ظهرت معالمه لدىٰ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا الذين دعوا للإصلاح مركزين علىٰ مناهج التفسير، لأجل إبعاد العلوم التي لا تخدم النص القرآني والاستفادة من العلم الحديث والدفاع عن الإسلام أمام الغزو الفكري، أي بالعودة إلىٰ التعامل مع النص القرآني مباشرة بالفهم والتدبر وإنزاله علىٰ الواقع.

وفي هذا الإطار ظهر تفسير في ظلال القرآن لمؤلفه سيد قطب الذي يعتبر

أفضل تطبيق لهذا المنهج، إضافة لتفسير العلامة محمد الطاهر بن عاشور والمسمىٰ التحرير والتنوير، ثم ظهرت التفاسير المعاصرة كالتفسير المنير لوهبة الزحيلي وغيرها من التفاسير.

وكان من ألوان التجديد هو التفسير الموضوعي، الذي ظهرت معالمه قديمًا وكان أبرزهم ابن القيم، لكنه تم التوسع فيه بشكل واضح في العصر الحديث.

المبحث الثاني
التفسير الموضوعي

أولاً: التفسير الموضوعي

والتفسير الموضوعي يقوم علىٰ جمع الآيات المتفرقة فيصوغها صياغة واحدة مرتبًا إياها ترتيبًا يشكل موضوعًا واحداً مع بيان المعنىٰ الإجمالي الذي يخدم تكامل الموضوع.

وفي عرض هذا اللون من التفسير بيان لوجه من وجوه الإعجاز القرآني، حيث يعرض الأسس العامة للنظرة المتكاملة لقضايا الإيمان الأساسية وما يتعلق بها، كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر. ويعطي نظرة متكاملة للإنسان والكون والحياة. كما يبين الأسس العامة لمختلف الأنظمة، كنظام العبادة، والنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي، والنظام الأخلاقي، ونظام الحكم.

وعليه فالقرآن الكريم يبرز الأسس العامة للإيمان وحياة المجتمع والفرد القائمة علىٰ الإيمان السليم. وهو ما يبرزه التفسير الموضوعي. حيث يعطي نظرة مختصرة جامعة للموضوعات العامة والأساسية.

ومن أراد التوسع في جزئية من الجزئيات المعروضة مسبقًا فيقوم بجمع الآيات مستقرئًا إياها، فمثلاً قد يتناول موضوع الإنسان ويتوسع في النظرة إليه مناقشًا كل جزئية من جزئيات الموضوع. ثم إن التوسع فيه يقتضي مقارنته بما ورد في التوراة والإنجيل، وما ورد من نظرة الفلاسفة القدامىٰ، وأصحاب النظريات المعاصرة ليتبين تميز القرآن الكريم في العرض.

كما يدخل في هذا الإطار النظرة المتكاملة للسورة القرآنية، حيث تبين أن لكل سورة موضوعًا محدداً تناقشه السورة يمثل جزءاً من الموضوع العام الذي يعرضه القرآن الكريم.

فالوان التفسير الموضوعي يمكن بيانها علىٰ النحو التالي:

أولاً: إعطاء نظرة عامة للقرآن الكريم وبيان هدفه الأساسي الذي هو إيجاد التوحيد السليم، ثم إيجاد الأنظمة الحياتية التي تخدم هذا الهدف وتحققه، وذلك أن المحرك الأساسي للأفراد والمجتمعات هو الإيمان، والإيمان السليم يصنع مجتمعًا سليمًا، وأي خلل في الإيمان يؤدي إلىٰ خلل في بناء الأفراد والمجتمعات، إضافة إلىٰ أن المجتمع الديني تزول فيه كل الفوارق الاجتماعية المبنية علىٰ النسب أو العرق أو المال أو القوة أو غير ذلك. وبذلك يتحقق الكيان الإنساني للفرد، بحسب ما يؤمن ويعتقد، وبالتالي فينشأ التوازن والتجانس بين أفراد المجتمع الإنساني ومجتمعاته.

والبحث في هذا الإطار يتطلب اختصارًا شديدًا للفقرات الأساسية للموضوع، فيتم استعراض الآيات القرآنية واختيار أهمها التي تميزت بإشارة لأساسيات الموضوع. وهو ما تم التعبير عنه في هذا الكتاب بعنوان «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم» الذي أعطىٰ فكرة متكاملة عن القرآن الكريم.

ثانيًا: التركيز علىٰ موضوع معين يتم التفصيل فيه باستقراء الآيات القرآنية لصياغة موضوع متكامل. وقد تنص الآية نصًا علىٰ الموضوع أو فيها إشارة إليه. فيتم جمع الآيات القرآنية وإعطاء عنوان لكل آية، ثم ترتيب الآيات حسب عناوينها، ثم تفسير الآيات من خلال كتب التفسير، ثم صياغتها من جديد في موضوع متكامل. ومن الأمثلة المميزة في هذا الموضوع كتاب مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف طبارة.

ثالثًا: دراسة السورة الواحدة دراسة موضوعية،وفائدتها أمران، الأول بيان التناسب الدقيق في عرض الموضوعات المختلفة في السورة الواحدة، وأن السورة تحتوي موضوعًا واحدًا محددًا تناقشه نقاشًا علميًا من مختلف جوانبه، فيتم عرض الأدلة التاريخية، والعقلية أو العاطفية، وبيان الثواب والعقاب، وغير ذلك من أدلة. وبالتالي فالقرآن الكريم يظهر فيه الإعجاز من خلال ترتيبه وتنسيقه

ووحدة موضوع السورة، فهو متناسب في النزول وفي التنسيق وفي بيان الموضوع المحدد الذي تعرضه السورة. والثاني: بيان الموضوع الجزئي الذي تعرضه السورة، وهو يشكل أمرًا أساسيًا في بناء الفرد والمجتمع.

ثانيًا: الدراسات السابقة في التفسير الموضوعي:

يرجع البعض بدايات التفسير الموضوعي إلىٰ عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي كان له بعض البحوث في القرآن الكريم مثل موضوع النار في القرآن الكريم وغيرها من بحوث .. ويرجعه البعض لمحمد بن أبي بكر، المعروف بابن القيم (ت ٧٥١هـ) وهو أول من أشار لهذا النوع من التفسير من خلال كتابه «التبيان في أقسام القرآن» الذي درس موضوع القسم في القرآن.

في حين يرجعه البعض لما قبل ذلك، فيرجعه للقرن الثاني مستشهداً بمن كتب عن الناسخ والمنسوخ في القرآن وغريب القرآن وغيرها، معتبرًا أنها أمثلة لذلك.

إلا أن هذه الدراسات ما هي إلا إشارات لا ينطبق عليها معنىٰ التفسير الموضوعي حقيقة. وعليه فيكون موضوع الدراسات الموضوعية قد ظهر بشكل واضح في العصر الحديث، فمنهم من أصّل لهذا الموضوع ومنهم من طبقه جزئيًا ومنهم من طبقه بشكل كامل، فظهرت كتب عن قصص الأنبياء في القرآن، وكتب أخرىٰ تخص موضوعًا محددًا مثل: «الصبر في القرآن، والإنسان في القرآن، والمرأة في القرآن، والمنافقون في القرآن، وظهرت رسائل جامعية كثيرة في هذا الموضوع، إليك بعضًا منها[1]:

[١] المدخل إلىٰ التفسير الموضوعي لمحمد باقر الأبطحي، رتب فيه الآيات القرآنية حسب الموضوعات المختلفة، جمع فيه آيات الخلق.

[٢] الوحدة الموضوعية في القرآن لمحمد محمود حجازي، تحدث عن مباحث

---

(١) انظر منهجية البحث في التفسير الموضوعي، زياد الدغامين، صـ ٢٤-٢٧، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م، دار البشير، عمان، الأردن.

التكرار، وعن كمال الوحدة الموضوعية وتناسقها من جميع السور التي تكرر فيها الموضوع وعدم كمالها في السورة الواحدة. واشتمل على دراسة تطبيقية لموضوع الألوهية وموضوع التشريع والقصص.

[٣] الفتوحات الربانية في التفسير الموضوعي لمحمد أبو فرحة، اقتصر على بيان الوحدة الموضوعية في القرآن، تعرض لثمانية موضوعات: الإلهيات، النبوات، السمعيات، العبادات، المعاملات، الأخلاق، المواعظ، القصص.

[٤] البداية في التفسير الموضوعي لعبد الحي الفرماوي، عرض فيه منهج البحث في التفسير الموضوعي، وطبقه على أربعة مباحث، هي: رعاية اليتيم، أمية العرب، آداب الاستئذان، غض البصر وحفظ الفرج.

[٥] مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم، تحدث فيه عن نشأة علم التفسير ومكانة التفسير الموضوعي منه، وتعريف التفسير الموضوعي وألوانه وأهميته، وأهمية علم المناسبات في التفسير الموضوعي. ثم عرض المثالين: الأول: موضوع الألوهية، والثاني: تفسير سورة الكهف تفسيراً موضوعياً.

[٦] دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني لأحمد جمال العمري، استعرض فيه مسائل متعلقة بالتفسير الموضوعي، والجهود القديمة والحديثة في هذا اللون من التفسير، ثم درس قصص الأنبياء دراسة موضوعية.

[٧] المدخل إلى التفسير الموضوعي لعبد الستار فتح الله سعيد، عرض فيه مسائل تتعلق بالتفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، ودرس خمس موضوعات هي: الوحدانية والتوحيد، المعية، التبعية، العلم، الآخرة ومشاهدها في القرآن.

[٨] دراسات في التفسير الموضوعي لزاهر عواض الألمعي، عرض فيه منهج البحث في التفسير الموضوعي ودرس خمسة عشر موضوعاً.

[٩] التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لأحمد السيد الكومي ومحمد أحمد يوسف القاسم، عرضاً فيه بعض موضوعات القرآن بشكل مقتضب.

[١٠] التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان لعبد الجليل عبد الرحيم، درس فيه معنىٰ التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، وعرض فيه بعض الأمثلة.

[١١] منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لزياد خليل الدغامين، تعرض فيه لبيان جهود العلماء القدامىٰ والمحدثين في القول بالوحدة الموضوعية في القرآن، ثم منهجية البحث في الوحدة الموضوعية في القرآن، ثم طبقه علىٰ موضوع المكر في القرآن، هذا في الباب الأول. وفي الباب الثاني تحدث عن الوحدة الموضوعية في السورة مبيناً جهود العلماء في القول بها، ثم بين منهجية البحث في السورة، ثم طبقها علىٰ سورة الحجر.

[١٢] التفسير الموضوعي لصالح صواب، تعرض فيه لمقدمات في التفسير الموضوعي، ثم تحدث عن أربعة موضوعات هي: الأسرة في القرآن الكريم، المرأة في القرآن الكريم، التكافل الاجتماعي في الإسلام، القلق النفسي: أسبابه وعلاجه في ضوء القرآن الكريم.

المبحث الثالث
منهج البحث في التفسير الموضوعي

أولاً: جمع الآيات القرآنية:

يعتبر جمع الآيات القرآنية في الموضوع أهم وسيلة في كتابة الموضوع في التفسير الموضوعي، حيث إن الآيات القرآنية هي التي ترسم الموضوع. وقد تنص الآيات صراحة علىٰ الموضوع أو تشير إليه إشارة.

وهناك كتب اهتمت بجمع الآيات وترتيبها ترتيباً موضوعياً مثل:

[١] الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم لمحمد فارس بركات الدمشقي، فرتب آيات القرآن الكريم ترتيباً موضوعياً، وقد رتبه علىٰ الأبواب التالية: الإلهيات، العبادات، الإيمان، الجهاد والهجرة، الرسالة، يوم القيامة، المحرمات، الأحكام والحدود، القصص والتاريخ، بنو إسرائيل، النصارىٰ، الاجتماعيات، الكفر، الفساد والإجرام والفسق، النفاق، الشرك والمشركون، الأمثال، العلم، الإنسان، إبليس أو الشيطان، الجن، الشعراء، الأخلاق الحميدة، الأخلاق الذميمة.

[٢] تفصيل آيات القرآن الحكيم للمستشرق جول لابوم، ويليه المستدرك للمستشرق إدوار مونتيه. وقد رتب أبوابه علىٰ النحو التالي: التاريخ، محمد، التبليغ، بنو إسرائيل، التوراة، النصارىٰ، ما وراء الطبيعة، التوحيد، القرآن، الدين، العقائد، العبادات، الشريعة، النظام الاجتماعي، العلوم والفنون، التجارة، علم تهذيب الأخلاق، النجاح.

[٣] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقي، وقد رتبه علىٰ أصول الكلمات حسب أوائلها فثوانيها فثوالثها، فافتتح المعجم بمادة (أب

ب) واختتمه بمادة (ي و م) . أما الطريقة التي اتبعت في مشتقات الكلمة فهي الابتداء بالفعل المجرد المبني للمعلوم، ماضيه فمضارعه فأمره، ثم المبني للمجهول، ثم المزيد بالتضعيف فالمزيد بحرف، ثم باقي المشتقات، وهكذا.

وذكر تحت كل لفظة رقمًا يدل على عدد مرات ورودها في القرآن الكريم.

وأهم ما يلفت الانتباه فيه أنه أشار إلىٰ كل آية هل هي مكية أم مدنية، فرمز للآية المكية بحرف (ك) وللآية المدنية بحرف (م).

وهذا الكتاب من أهم المراجع في جمع الآيات القرآنية في موضوع واحد. وطريقة جمع الآيات القرآنية من خلاله أنه يتم الرجوع إلىٰ الكلمة فيه ثم يرجع الباحث إلىٰ المصحف فينقل الآية كاملة في بطاقة مستقلة وينظر صلتها بما قبلها وما بعدها فينقلها متكاملة، أي قد ينقل الآية لوحدها أو مع عدد من الآيات الأخرىٰ التي تشير إلىٰ كامل الموضوع.

وينبغي في جمع الآيات النظر إلىٰ مرادفات الكلمة أيضاً، فإذا أردنا جمع الآيات حول موضوع الفقر مثلاً، فننظر كلمة (فقر) بتصريفاتها، ثم ننظر في ما يرادفها، فنجمع مثلاً الآيات في كلمة (فقير، مسكين، سائل، قانع، معتر) وإذا أردنا جمع الآيات حول موضوع الجدل فنجمع الآيات للكلمات (جدل، حوار، مراء) وإذا أردنا جمع الآيات حول موضوع (السمع والبصر في القرآن) فنجمع آيات الكلمات (عين، بصر، نظر، رؤية، طرف، لمح، عمىٰ) وهذه الكلمات لموضوع البصر، وكذلك (أذن، سمع، إصغاء) لموضوع السمع ... ويستعان لتحديد المترادفات بكتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري وكتاب المخصص لابن سيده وهم معجم لغوي رتبه علىٰ الكلمة وما يرادفها.

ثانيًا: ترتيب الآيات حسب السورة ورقم الآية:

وبعد عملية جمع الآيات من خلال الكلمة وما يرادفها يمكن عمل فهرس للسور ورقم الآيات الموجودة فيها التي تخص الموضوع، فتذكر السورة ورقم الآية، نقول مثلاً:

– البقرة ٦، ١٠، ٢٥، ٧٥، ١٢١، ١٤٥، ١٨٥ . .
– آل عمران ٤ ، ١٥ ، ٥٥ ، ٧٠، ١١٨، ١٥٠
– النساء ١١، ١٩، ٢٧، ٤٨، ٦٥، ٩٤
وفائدة ذلك هو سهولة الرجوع إلىٰ كتب التفسير

ثالثاً: تفسير الآيات:

وذلك بالرجوع إلىٰ كتب التفسير، ويتم تناول كل تفسير علىٰ حدة فيؤخذ منه تفسير الآيات علىٰ الترتيب المذكور سابقًا، فتفسر الآيات في البقرة ثم آل عمران . . وهكذا.

ويؤخذ من التفسير ما يحتاج إليه مما يخدم الموضوع، كتفسير بعض المفردات وأقوال المفسرين والمكي والمدني والروايات الواردة في الموضوع، مع بيان المقارنة بين منهج القرآن والأديان والمذاهب الأخرىٰ القديمة والحديثة، مع بيان إسقاط الآيات علىٰ الواقع، والمهم فيه النقل من كتب التفسير ما يخدم فكرة الموضوع.

وأهم كتب التفسير التي تخدم فكرة التفسير الموضوعي هي:

١] تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
٢] فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني.
٣] الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.
٤] تفسير البيضاوي.
٥] تفسير أبي السعود.
٦] تفسير النسفي.
٧] في ظلال القرآن لسيد قطب.
٨] تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور.
٩] التفسير المنير لوهبة الزحيلي.
١٠] روح المعاني للألوسي.

رابعاً: وضع عنوان لكل آية:

والأولىٰ أن يكون وضع عنوان لكل آية بعد مرحلة كتابة تفسيرها من كتب التفسير حتىٰ يتم استنباط العنوان بعد تفسيرها فيكون العنوان أكثر وضوحًا. فلو أردنا كتابة موضوع عن التقوىٰ في القرآن، فيمكن وضع عناوين لكل آية، مثلاً: صفات المتقين الإيمانية، التعبدية، الخلقية والسلوكية، ثمرات التقوىٰ وآثارها، التقوىٰ في آيات التشريع، التقوىٰ والجهاد، التقوىٰ والمتقون في الحياة الآخرة...

خامساً: ترتيب الآيات ترتيباً موضوعياً:

في هذه المرحلة نعيد ترتيب الآيات حسب الموضوع، فلو جمعنا آيات عن التقوى فإنه يتشكل عندنا عدد من الآيات في موضوع واحد، فمثلاً نجد صفات المتقين الإيمانية عن الإيمان بالله واليوم الآخر، والصفات التعبدية في بيان صفة صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن ... وهكذا. ثم كل موضوع لوحده.

سادساً: مقارنة منهج القرآن بغيره:

ولإعطاء الموضوع حيوية أكثر وبيان صلته بالواقع لابد من المقارنة بين منهج القرآن الكريم وغيره من المناهج الدينية والفكرية القديمة والمعاصرة.

فلو أردنا الكتابة عن موضوع الاقتصاد في القرآن، فنبين منهج القرآن الاقتصادي من خلال التعرض لموقف القرآن من مختلف التشريعات والأنظمة الاقتصادية، كحديثه عن الزكاة والميراث والوصية والنفقة والغنائم والفيء، وكذا المحرمات كالربا والسرقة والإسراف والقمار وغيره من الأنشطة الاقتصادية.

لكن ليكون للموضوع حيويته فلابد من مقارنة منهج القرآن بغيره من المناهج لبيان إعجاز القرآن الكريم في انفراده لحل المشكلة الاقتصادية حلاً جذريًا.

ويمكن المقارنة بالأديان الأخرى كما في التوراة والإنجيل، وكذا الفلسفات القديمة والحديثة التي تعرضت للجوانب الاقتصادية. ويكون ذلك بالرجوع للكتب التي تعرضت للاقتصاد الإسلامي ومقارنته بالاقتصاد الرأسمالي والاشتراكي.

سابعًا: صياغة الموضوع:

وفي النهاية يكون قد تجمع لدينا من المعلومات ما نستطيع به صياغة الموضوع صياغة نهائية يجمع بين المنهج القرآني مقارنًا بغيره من المناهج، فيكون قد تم الجمع بين الأصالة والمعاصرة في صياغة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

الفصل الثاني
الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم

المبحث الأول: هدف القرآن الكريم

المبحث الثاني: القرآن الكريم يشرح معنى «لا إله إلا الله»

المبحث الثالث: سورة الفاتحة وصلتها بالموضوع العام للقرآن الكريم

المبحث الرابع: أسباب النزول

المبحث الخامس: الإعجاز القرآني

المبحث السادس: القصص القرآني



المبحث الأول
هدف القرآن الكريم

يهدف القرآن الكريم إلىٰ إيجاد عقيدة سليمة للإنسان؛ وأن يقيم حياته ومناهجها كلها في ضوء هذا المفهوم.

فالعقيدة هي المحور الرئيسي في القرآن الكريم، حيث يسعىٰ القرآن الكريم لإيجاد عقيدة التوحيد. وهذا لا يتم إلا من خلال محورين أساسيين، هما: نفي الألوهية والربوبية عن سائر المخلوقات، وإثبات الألوهية والربوبية لله وحده دون أحد سواه.

فالمحور الأول، وهو نفي الألوهية والربوبية عن سائر المخلوقات، كان له حيّز كبير في المرحلتين المكية والمدنية. في المرحلة المكية ابتدأ القرآن الكريم في نزع عقيدة المشركين والكافرين؛ وناقش كل جزئية تتصل بأمر العقيدة؛ فبين بطلان معتقدهم بالحجة والبرهان، وأقام مقامها عقيدة التوحيد. وكان المحور العام متركزًا علىٰ أركان الإيمان؛ وهي: الإيمان بالله؛ والملائكة؛ والكتب؛ والرسل، واليوم الآخر والقضاء والقدر. إن كل جزئية من هذه الجزئيات يتطلب عرضًا مفصلاً ليتم اقتلاعها من النفوس ثم إثبات المعتقد السليم مكانها، ثم إنه يحتاج للأدلة العقلية والنفسية، وخاصة إذا علمنا أن سبب أكثر الضلالات يعود لأمر نفسي، فاليهود مثلاً – وكذا النصارىٰ – كانوا يعرفون الحق لكنهم لم يتبعوه، والقرآن أخبر أنهم كانوا يعرفون النبي محمد ﷺ كما يعرفون أبناءهم وكان من صلب رسالة موسىٰ وعيسىٰ التبشير ببعثة محمد ﷺ لكنهم رفضوا الحق الذي جاءهم من عند الله رغم علمهم اليقيني بذلك، وبذلك لا ينفع الحوار العقلي بقدر ما ينفع التهديد النفسي بالعقاب وأن الله يعلم سرهم ونجواهم . . .

ثم إن القرآن الكريم يريد للمرء أن يصل في معتقداته لدرجة اليقين؛ وهي

المرحلة التي تنتفي معها جميع الشكوك والارتيابات والأوهام، لذلك نجد أن القرآن الكريم يستخدم أكثر ما يستخدم لفظة الإيمان، والإيمان تصديق معه أمن وطمأنينة وتسليم ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

وفي العهد المدني لا يزال المحور الرئيسي هو العقيدة، وإن كان قد اختلف أسلوب العرض، فلم يعد بحاجة للعرض المطول لجزئيات العقيدة، إنما كان هناك عرض مقتضب للإيمان بالله وصفاته وربط للإيمان بالله باليوم الآخر ونحوها. إلا أن الموضوع الذي برز واضحًا هو قضية التشريعات والتنظيمات، لكنه ليس منفصلاً عن العقيدة، إنه يمثل الجانب التطبيقي العملي للعقيدة، فالتشريعات تستمد أصولها من العقيدة وهي تسعىٰ لإيجاد حياة تتناسب مع هذه العقيدة، والكثيرُ من الأحكام هدفها حماية العقيدة وتقويتها في النفوس مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد والكثير من المحرمات.

وعليه فالعقيدة هي المحور الرئيسي للقرآن بجانبيه النظري الذي يمثل العقيدة المجردة والعملي الذي يمثل مدىٰ تطبيق هذه الأحكام ويناقش إشكاليات هذا التطبيق.

المبحث الثاني
القرآن الكريم يشرح معنى «لا إله إلا الله»

وهذا المعنىٰ المشار إليه هو شرح كامل لمعنىٰ كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» فإن معنىٰ هذه العبارة يبدأ بنفي الألوهية والربوبية عن جميع المخلوقات من دون الله – والتي تمثل مناقشة أفكار ومعتقدات المشركين والكافرين والمنافقين بما فيهم أهل الكتاب – سواء كان ذلك في المعتقد أو في التطبيق. وخاصة إذا علمنا أن لكل معتقد أثره في التطبيق، فالمشركون مثلاً كان لمعتقدهم أثر في حياتهم؛ حيث كانوا يُشَرِّعون الأحكام لحماية معتقداتهم كالذبح علىٰ النصب والتطيّر وتحريم بعض الأنعام علىٰ الإناث دون الذكور وتحريم أكل بعض الأنعام مطلقًا وحماية الأصنام ونحوها، وكذلك كان لأهل الكتاب أثر في اعتقادهم فلما اعتقد البعض أن الله ثالث ثلاثة وأن عيسىٰ ابن الله أدىٰ الأمر بهم لاتباع الأحبار والرهبان واتخاذهم أربابًا من دون الله.

والمشركون حينما كانوا يخاطبون بالدعوة إلىٰ «لا إله إلا الله» كانوا يعملون علم اليقين، أنها ليست مجرد كلمة تقال؛ إنما تعني أنها منهج حياة تمثل معتقداً مستقلاً ومنهجًا مستقلاً في الحياة.

والإنسان له منهج عام في الحياة هو منهج العبودية لله سبحانه وتعالىٰ، والذي حدده الله سبحانه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] فلا يوجد إنسان يؤمن وآخر لا يؤمن، فالكل يؤمنون، أما المؤمن فيؤمن بالله وحده إلهًا وربًا، وأما غيره فيؤمن بالجبت والطاغوت ولا يوجد إنسان في حياته يعبد وآخر لا يعبد، فكل الناس يعبدون – والعبادة تعني غاية الخضوع والتذلل

للمعبود، وهي ليست مجرد شعائر تعبدية وطقوس دينية؛ إنما هي منهج حياة، فالمؤمن يعبد الله ويتبع شرعه، وغيرُه يتبع الشيطان أو الهوىٰ أو بشراً مثله أو غير ذلك. وعليه فكل الناس يؤمنون ويعبدون، لكن الذي يختلف هو المعبود.

وهذه الفكرة تتطلب عرضاً مطولاً، حيث يتطلب الأمر عرض كل معبود من دون الله – ما عُبِدَ وما يمكن أن يُعْبَدَ – وبيان أنه لا يستحق العبادة؛ وإقامة الحجة والبرهان بالشكل الذي يصل بالمرء لدرجة اليقين، وقد أخذ هذا حيزاً كبيراً من القرآن الكريم في فترتيه المكية والمدنية.

المبحث الثالث
سورة الفاتحة وصلتها بالموضوع العام للقرآن الكريم

تتضمن سورة الفاتحة اختصاراً للمعنىٰ الشامل للقرآن الكريم، حيث حوت في طياتها أساس المنهج الذي يميز المؤمن والذي ينبغي أن يسير عليه في حياته.

ولعل هذا هو السر في اختيار هذه السورة ليرددها المؤمن في كل ركعة من ركعات صلاته ولا تصح الصلاة إلا بها علىٰ ما ذهب إليه جمهور العلماء.

وقد أشارت الأحاديث إلىٰ فضل هذه السورة، وأنه لم ينزل في القرآن ولا في التوراة والإنجيل والزبور مثلها وأنه لم يؤتها نبي قبل محمد ﷺ، ومن هذه الأحاديث:

(١) ما ورد من حديث أبي سعيد بن المعلىٰ، أن رسول الله ﷺ قال له: **«لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد»** قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلتُ: يا رسول الله؛ إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن؟ قال: **«نعم، الحمد لله رب العالمين؛ هي السبع المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه»**[١].

(٢) وما ورد من حديث أبيّ بن كعب أن النبي ﷺ قال له: **«أتحبُّ أن أعلمك سورةً لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟»** ثم أخبره أنها سورة الفاتحة[٢].

(٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٤٧٤ و ٤٦٤٧) وأحمد في المسند (٣ / ٤٥٠) وأبو داود (١٤٥٨) وغيرهم.
(٢) رواه الترمذي (٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢ / ٤١٣) والنسائي في التفسير (٢٢٥).

نقيضا فوقه، فرفع جبريلُ بصره إلى السماء فقال: «**هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قطّ**» قال: فنزل منه ملك، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: «**أبشرْ بنوريْن قد أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته**»(١).

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر: ٨٧] والمراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة علىٰ ما ذهب إليه جمهور المفسرين. وسميت كذلك لأنه يثنىٰ بها وتكرر في الصلاة.

تبتديء السورة بـ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ فالحمد هو الثناء باللسان علىٰ الجميل الاختياري، وهو أعم من الشكر حيث يتعلق بالنعمة وغيرها. وورد في فضل الحمد قوله ﷺ: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**»(٢). وفي هذه الآية إشارة لصفتي الألوهية والربوبية، وهي تشمل كل صفات الله تعالي وتشمل نوعي التوحيد – توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية – فتوحيد الربوبية يعني الاعتقاد بأن رب العالم وخالقه واحد وليس اثنين، وهو الربّ سبحانه الذي جُبلت الفطَر السليمة علىٰ الإقرار به والخضوع له والإيمان بما له من الأسماء والصفات. وتوحيد الألوهية معناه: أن يُعْبَدَ اللهُ وحده لا يُشرك بعبادته أحد من خلقه(٣).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ وصفٌ له سبحانه بالرحمة، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين نوع ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة والرغبة إليه فيكون أكثر عونًا علىٰ طاعته(٤) وفي هذا إشارة لصلة الخالق بالمخلوق؛ إنها صلة الرحمة والرعاية والمودة. (إن الرب الإله في الإسلام لا يطارد

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٤) والنسائي في الافتتاح (٢ / ١٣٨) والطبراني في الكبير (١٢٥٥٥).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٣) وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) والحاكم (١ / ٤٩٨) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (١ / ١٦) تحقيق الأرناؤوط والتركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ ١٩٩١م.

(٤) انظر تفسير القرطبي ([illegible] ١٣٩)

عباده مطاردة الخصوم والأعداء كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها كما تصورها أساطير الإغريق. ولا يدبّر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في العهد القديم، كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين)[١].

وقول سبحانه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء وهو اليوم الآخر، والـمُلك أقصىٰ درجات الاستيلاء والسيطرة. والاعتقادُ بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض. وعندئذ يملكون الاستعلاء علىٰ هذه الضرورات، ولا يستبد بهم القلق علىٰ تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور ... ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب؛ والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان، بين الخضوع لتصورات الأرض وقيمتها وموازينها والتعلق بالقيم الربانية والاستعلاء علىٰ منطق الجاهلية .. إن حياة البشرية لا تستقيم علىٰ منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر. ولا يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل ...[٢].

أما قولة سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهي قضية تشير للمحور الأساسي في حياة الإنسان وهي قضية العبودية والتي أشار إليها القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] لأن الإنسان إن لم يكن عبداً لله كان عبداً لغيره؛ كالهوىٰ والشهوات وغيرها. وهذه الكلية الاعتقادية إنما هي ناشئة ونتيجة للكليات السابقة التي أشارت إليها السورة. وهذه القضية تمثل مفرق طريق في حياة الإنسان ... مفرقَ طريق بين التَحرر المطلق من كل عبودية؛ وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر مَن عبودية الأوهام والنظم والأوضاع. وإذا كان الله وحده هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١ / ٢٤) دار الشروق، الطبعة الحادية عشرة ١٩٨٥م.
(٢) في ظلال القرآن (١ / ٢٤) بتصرف.

الذي يُعبد وهو وحده الذي يُستعان؛ فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص والأوهام والخرافات[١]. وفي التعبير القرآني إشارة مهمة حيث قدم المفعول «إياك» على الفعل «نعبد» وهو يفيد الاختصاص أي نَخُصك بالعبادة وحدك دون غيرك. ثم في صيغة الخطاب «إياك» التفات من الغائب – فيما سبق – إلى الحاضر، وهذا للاهتمام. وفي ذكر الاستعانة بعد العبادة إشارة لخطورة هذا الموضوع الذي يتطلب عونًا من الله سبحانه لتحقيق العبودية الحقة؛ إذ لولا عونه سبحانه لضل الإنسان الطريق كما ضلت الأمم السابقة.

وقضية العبادة المشار إليها هي محور أساسي من أهم محاور القرآن الكريم، ولهذا نقل عن بعض السلف قوله: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[٢].

وبعد طلب الاستعانة لتحقيق مقام العبودية تأتي قضية طلب الهداية منه سبحانه، الهداية للطريق المستقيم الذي يميز المؤمن ويحفظه من الضلال والزيغ والانحراف ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ أي وفقنا لمعرفة الطريق المستقيم والاستقامة عليه، فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية الله ورعايته ورحمته، والتوجهُ إلى الله في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين، وعليه فالهداية هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة[٣]. وفي الحديث: «**إن المغضوب عليهم هم اليهود، وإن الضالين هم النصارى**»[٤].

وعليه فإن سورة الفاتحة قد حوت أساسيات التصور الاعتقادي ومثلت منهج الإنسان الشامل في حياته.

---

(١) المصدر السابق (١ / ٢٥) بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٢٤) الطبعة الأولى ١٩٨٨م، دار الحديث القاهرة.

(٣) في ظلال القرآن (١ / ٢٦) بتصرف.

(٤) رواه أحمد (٤ / ٣٧٨) والترمذي في التفسير (٢٩٥٣) وحسنه، ورواه ابن حبان (٦٢١٣) وصححه.

المبحث الرابع
أسباب النزول

تشير الروايات إلىٰ أن نزول القرآن الكريم كان علىٰ ثلاث مراحل:

المرحلة الأولىٰ: تثبيته في اللوح المحفوظ.

المرحلة الثانية: نزوله جملة واحدة إلىٰ السماء الدنيا في ليلة القدر.

والمرحلة الثالثة: نزوله مفرقًا علىٰ مدىٰ ثلاث وعشرين عامًا علىٰ رسولنا محمد ﷺ بحسب الحوادث والأزمان.

فالقرآن الكريم كان مجموعًا ومرتبًا بسوره وآياته علىٰ الكيفية التي بين أيدينا، أي المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، كان ذلك في اللوح المحفوظ وفي بيت العزة في السماء الدنيا حينما نزل جملة واحدة في ليلة القدر، فكانت إذا حدثت حادثة معينة نزل من القرآن الكريم ما يناسبها من الآيات، فالآيات لم تأت لترد علىٰ حادثة معينة؛ إنما كل حادثة من حوادث البشر في القرآن ما يناسبها ويعالجها.

وكان جبريل عليه السلام ينزل في كل سنة يراجع مع النبي ﷺ ما نزل من القرآن الكريم، وفي السنة التي قبض فيها رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل مرتين يراجع معه القرآن الكريم، وهذه التي تسمىٰ العرضة الأخيرة، والتي عرف فيها ما استقر عليه القرآن الكريم وعرف الثابت والناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان يشير لمكان الآية أو الآيات من كل سورة فيقول: ضعوا هذه الآية أو الآيات علىٰ رأس آية كذا وكذا من سورة كذا. وإذا كان بعضُ العلماء قد ذهب إلي أن ترتيب السور في المصحف أمر اجتهادي من الصحابة لكن الكثير من الحوادث والروايات تشير إلىٰ أن ترتيب السور توقيفي من الله سبحانه، مثل:

[١] نزوله جملة واحدة للسماء الدنيا.

[٢] العرضة الأخيرة التي راجع فيها جبريل مع النبي ﷺ القرآن الكريم والتي عُلم فيها ما استقر عليه القرآن الكريم.

[٣] أن النبي ﷺ كان يراعي في قراءته الترتيب المعهود.

[٤] أن الترتيب كان معروفًا ومعهوداً للصحابة جميعاً، والمعول عليه بالدرجة الأولىٰ هو مسألة الحفظ في الصدور، وكانت الكتابة لتوثيق ما حفظ في الصدور، خاصة أن الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم كاملاً من الصحابة عدد كبير جداً، وقد ذكر بعضهم أسماء خمسة وعشرين من الصحابة يحفظون القرآن كاملاً؛ منهم العشرة المبشرون بالجنة، ولم تكن مسألة ترتيب السور في المصحف ذات خلاف أبداً، وخاصة أن المصحف العثماني قد وقع عليه الإجماع من الصحابة.

وعليه، فإننا إذا أردنا تأمل القرآن الكريم فننظر إليه نظرة إجمالية من خلال القرآن الكريم في وحدته الموضوعية، ثم ننظر إلىٰ السورة ووحدتها الموضوعية في ضوء الوحدة العامة للقرآن الكريم. وننظر في السورة إلىٰ سياقها العام وتسلسل موضوعاتها. وهذا لا يعني العدول عن أسباب النزول، بل نعتبر أن الحادثة الثابتة التي هي سبب النزول تنطبق علىٰ المعنىٰ العام انطباقًا أوليًا، أي أن المعنىٰ العام لدلالة الآيات أكثر ما ينطبق علىٰ سبب النزول، لكنه يشمل الحادثة ويشمل غيرها، ولهذا ذكر العلماء قاعدة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ومعرفة عموم اللفظ من خلال سياق الآيات، وعليه فسياق الآيات هو الأصل في النظرة العامة للسورة القرآنية.

لكن أسباب النزول قد توضح ما يمكن أن يقع من لَبْس في فهم النص القرآني، وإليك بعضاً من الأمثلة:

[١] عن عائشة ﵂ أن عروة قال لها: أرأيت قول الله: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة:١٥٨] فما أرىٰ

علىٰ أحد جناحًا ألا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بئس ما قلت يا ابن أختي! إنها لو كانت علىٰ ما أوّلتها كانت: فلا جناح عليه ألا يطّوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يُهلّون لمناة الطاغيةَ التي كانوا يعبدونها، وكان مَنْ أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية. فأنزل الله ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ الآية. قالت عائشة: ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف[1].

٢- ما ورد من حديث أسلم بن عمران حينما كانوا بالقسطنطينية حيث حمل رجل من المسلمين علىٰ صف الروم حتي دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله؛ يلقي بيده إلىٰ التهلكة! فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس، إنكم تؤولون الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت فينا هذه الآية معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه وقال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله ﷺ: إن أموال الناس قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؟ فأنزل الله علىٰ نبيه يرد علينا: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة:١٩٥] فكانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الغزو[2].

٣- قوله تعالىٰ: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ [البقرة: ٢٠٠] حيث ورد في سبب نزولها ما قاله مجاهد: كان أهل الجاهلية إذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آبائهم في الجاهلية وأيامهم وأنسابهم فتفاخروا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿**فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾[3].

لكننا لو نظرنا لهذه الأمثلة لوجدنا أن السياق يدل بعمومه علىٰ أوسع مما

---

(١) رواه البخاري في الحج (١٦٤٣) ومسلم في الحج رقم (٢٥٩) وأبو داود في المناسك (١٩٠١) والترمذي في التفسير (٢٩٦٥) والنسائي في الحج (٥ / ٢٣٧) وابن ماجه في المناسك (٢٩٨٦) وآخرون.

(٢) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥١٢) والترمذي في التفسير (٢٩٧٢) والنسائي في التفسير (٤٩) والطبراني في الكبير (٤٠٦٠) والبيهقي (٩ / ٤٥) والحاكم (٢ / ٨٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أسباب النزول للواحدي تحقيق عصام الحميدان ص ٦٥ .

أشار إليه سبب النزول، ولا يعجزنا فهم النص من خلال السياق. وما ورد من إشكال للبعض من فهم النص إنما مرده لا لغموض النص بحيث لا يمكن فهمه إلا من خلال سبب النزول، إنما مرده لفهم المتأمل لكتب الله.

ففي قوله تعالىٰ: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٨٥] فإنه يُحمل علىٰ ظاهره من حيث نفي الجناح والإثم أو الجرح. ثم إن رسول الله ﷺ شرع السعي بين الصفا والمروة، فَنَفْيُ الجناح من الآية، وأَخْذُ الوجوب من فعل النبي ﷺ. ثم إن هذه الآية لم تأت رداً علىٰ تلك الحادثة فحسب أو ما كان في الجاهلية، إنما فيها رد لكل من يتوهم أنه يطوف بحجر أو يعبد حجراً؛ لأنه قد يقول قائل: الطواف بالبيت أمر قد يدركه العقل، أما السعي بين الصفا والمرة قد لا يستوعب العقل حكمته ومغزاه فيتوهم متوهم أن فيها عبادةً لحجر، لكن من حكمة تشريع الحج صلة الوصل بين محمد ﷺ وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فإننا لو أخذناه علىٰ عمومه لكان أَوْلىٰ من قصره علىٰ السبب خاصة. وحتىٰ الذي أنكره أولئك القوم من إنكار علىٰ الرجل الذي دخل في صف الروم فإن الآية تحتمله، يقول الشوكاني: (فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير الطبري. ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب فيحمل علىٰ الجيش مع عدم قدرته علىٰ التخلص وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين. ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رأوا السبب، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها، وهو ظن تدفعه لغة العرب)[1] فتفسير التهلكة بالإقامة بالأموال وترك الغزو هو أحد أجزاء المعنىٰ العام، وخاصة قد ورد عن السلف ما يؤيد العموم، فعن البراء بن عازب في تفسير الآية: هو الرجل يذنب الذنب فيلقي بيديه فيقول: لا يغفر الله لي أبداً، وورد نحوه عن النعمان بن بشير، وعن ابن عباس قال: التهلكة عذاب الله[2].

---

(١) فتح القدير للشوكاني (١ / ٢٦٢).

(٢) المصدر السابق (١ / ٢٦٣).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ لا يقصر معناها علىٰ ما ورد من سبب النزول بل هي علىٰ عمومها، وقد ورد للسلف تفسير للآية علىٰ عمومها، فبالإضافة لما ورد من سبب نزولها ورد عن ابن عباس وعطاء والضحاك والربيع معنىٰ الآية: واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم، أي فاستغيثوا به والجأوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم. وقيل لابن عباس: إن الرجل اليوم لا يذكر أباه، فما معني الآية؟ قال: ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله تعالىٰ إذا عُصي أشد من غضبك لوالديك إذا شُتما. وقالت طائفة: معنىٰ الآية: اذكروا الله وعظموه وذُبّوا عن حُرَمه وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره؛ كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غَضَّ أحد منهم، وتحمون جوانبهم وتَذُبُّوا عنهم(١).

لقد توسع كثير من العلماء القدامىٰ والمحدثين في مسألة أسباب النزول، حتىٰ رأوا أنه لا يمكن تفسير النص إلا بعد معرفة أسباب النزول، وجمعوا من أسباب النزول كل غث وسمين. بل إنك لتجد من يدعي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم يورد معنىً مقصوراً علىٰ سبب النزول ولا ينظر للآية علىٰ عمومها. إن السبب العام لنزول القرآن الكريم هو بعثة محمد ﷺ. وأهم ما ينبغي التركيز عليه هو أن القرآن الكريم لم ينزل ليرد علىٰ حوادث جزئية حصلت، إنما كان ينزل من القرآن الكريم ما يناسب تلك الحادثة فيشملها ويشمل غيرها.

(١) تفسير القرطبي (٢ / ٤٣١).

المبحث الخامس
الإعجاز القرآني

تعتبر قضية الإعجاز القرآني من المسائل المهمة في هذا العصر والتي كثر الحديث عنها قديمًا وحديثًا، وخاصة الإعجاز العلمي في القرآن، والتي تشير إلىٰ أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر.

والقرآن الكريم تحدىٰ العرب في أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة من مثله، لكن العرب عجزوا عن ذلك رغم محاولة البعض كما هو مشهور عن مسيلمة الكذاب الذي جاء بكلام مضحك لا يليق بمن يحترم نفسه.

والقرآن الكريم بهرت روعته العرب من مشركين وغيرهم وكان القرآن يأخذ بلبّهم حتىٰ قالوا عنه بأنه سحر يفرق بين المرء وزوجه وبين الولد وأبيه. ولم يستطيعوا بأي حال معارضة القرآن الكريم وشعروا بذلك حتىٰ لجأوا لطريقة المغالطة حيث قالوا: ﴿**لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت:٢٦]. لقد أدركوا أن هذا القرآن فوق مستوىٰ البشر ولا يمكن لأي بشر كان أن يأتي بمثله.

وقد اختلف العلماء الذين تحدثوا عن إعجاز القرآن في الوجه الذي كان فيه القرآن معجزًا.

فذهب قوم إلىٰ أن الوجه الذي كان فيه القرآن معجزًا هو «الصرفة» أي أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم حيث كان مقدورًا لهم ذلك، لكنّ أمرًا خارجيًا عامَهم عن ذلك. وهذا أمر لا يتلفت إليه، إذ لو كان شعرهم الجاهلي قبل نزول القرآن يساوي القرآن في أسلوبه لأمكن اعتبار مثل هذا القول بالبحث، لكن القرآن لما نزل بهر عقولهم جميعًا وأدركوا بما لا مجال للشك فيه أنه فوق مستوىٰ البشر.

ذهب قوم إلىٰ أن القرآن إنما كان إعجازه بفصاحة ألفاظه وروعة بيانه وأسلوبه الفريد الذي لا يشابهه فيه أسلوب لا من نثر ولا من شعر، وكذا مسحته اللفظية الخلابة التي تتجلىٰ في نظامه الصوتي وجماله اللغوي وبراعته الفنية. في حين حصره بعضهم في قضية النظم والتأليف بين حروف الكلمة أو بين مجموعة الكلمات التي تشكل جملة أو آية. وهؤلاء قصروا الإعجاز علىٰ هذا الوجه باعتبار أن القرآن تحدىٰ العربَ والعربُ تميزوا بالفصاحة والبيان. لكن القرآن لم يتحد العرب خاصة بل تحدىٰ العرب وغيرهم وتحدىٰ الإنس والجن. ثم إن المتحدىٰ به هو المثلية ولا تتحقق المثلية في الناحية الشكلية دون الجوهرية. وعليه فالإعجاز اللغوي هو أحد أبرز وجوه الإعجاز، لكنه غير مقصور عليه.

وتحدث العلماء علىٰ الكثير من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، منها: الإخبار بالمغيبات، وأخبار الأمم السابقة، والإعجاز العددي، والإعجاز الموسيقي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز العلمي. لكن أبرزها هو التشريعي والعلمي.

أما الإعجاز التشريعي فيتمثل بعض جوانبه في كمال هذا التشريع وتساميه علىٰ كل تشريع عرفه البشر قديمًا وحديثًا، وشمول هذا التشريع لجميع جوانب الحياة، والتشريعُ في ذاته من الأمور الدقيقة التي تتطلب علمًا دقيقًا بالقيم والمُثُل ونوازع النفوس، وعلمًا بالمجتمع وتجاربه وأعرافه وممارساته، وإدراكًا للمصالح التي يجب أن تصان والموازنة بينها، ويأتي ذلك عن طريق نبي أمي لم يسبق له أن تلقىٰ علمًا من الناس. (يقول العلامة الأستاذ «شبرل» عميد كلية الحقوق بجامعة «فينّا» في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧م: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها، إذ إنه رغم أمّيته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلىٰ قمته بعد ألفيْ سنة)[1].

---

(١) شريعة الإسلام، د. يوسف القرضاوي ص ٩٨، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي وانظر كتاب الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم للدكتور علي أحمد بابكر.

وأما الإعجاز العلمي فهو أبرز الجوانب ظهوراً في العصر الحديث، حيث تُظهر الاكتشافات العلمية الحديثة صدق ما جاء في القرآن الكريم وأنه لا يمكن أن يكون هذا الكتاب نتاج بشر مهما كانت صفة هذا البشر. فأن يرد وصف دقيق للجنين في بطن أمه، وللسماوات والأرض وقوانينها التي لم تكن معروفة للبشر إلا بعد مدة طويلة من الزمن، ويرد ذلك عن طريق نبيّ أميّ لم يتعلم العلوم من الناس إنه لا يمكن أن يكون إلا من عند إله حكيم عليم قادر علىٰ كل شيء ومحيط بكل شيء ... وكان للإعجاز العلمي أثر كبير في حياة المسلمين المعاصرة حيث دخل الكثير من الناس الإسلام بسبب ذلك الإعجاز العلمي الذي يثبت صدق هذا الكتاب وأنه من عند الله. والإعجاز العلمي وسيلة دعوية في غاية الأهمية بين المسلمين أنفسهم حيث ترشدهم للعودة والتمسك بهذا الكتاب الكريم، وبين غير المسلمين في الدعوة لهذا الدين، وخاصة إذا استخدم بالطريقة السليمة التي لا يكون فيها ليّ لأعناق النصوص لتتفق مع ما يُظنُّ أنه حقيقة علمية، إذ لابد من تفسير النص بعيداً عن واقع الخضوع للاكتشافات العلمية، فإن اتفقت فيها ونعمت، وإن اختلفت فمرد ذلك إما للفهم غير السليم للنص القرآني أو لعدم مصداقية تلك الحقائق، حيث لا يمكن لحقيقة علمية أن تعارض نصًا قرآنيًا، كما لا يتعارض عقل صحيح مع نص سليم.

وقد توسع العلماء قديمًا وحديثًا في قضية الإعجاز، حتىٰ إن العلماء ضاروا يختارون تعريفًا للقرآن الكريم يبرز فيه جانب الإعجاز علىٰ أنه هدف رئيسي للقرآن الكريم. إن اعتبار أن من أهداف القرآن هو الإعجاز إنما هو خلط للأوراق، إذ المعجزة بالنسبة للأنبياء والرسل ليست هدفاً بالنسبة لهم إنما هي وسيلة لإثبات صدقهم، إن هدف الأنبياء هو في دعوة الناس للتوحيد، والمعجزة وسيلة إثبات صدقهم وكذلك الإعجاز القرآني.

إن غاية الإعجاز إذًا هي إثبات أن القرآن الكريم كتاب من عند الله لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبالتالي فيجب اتباعه. لكنْ هل هذه القضية – قضية إثبات أن هذا الكتاب من عند الله – هي قضية ذات إشكالية لدى المسلمين؟! إن الذي لا يسلّم بوجوب اتباع القرآن الكريم لا يكون مُسْلمًا، لذا فإن مشكلة المسلمين بالنسبة للقرآن هو في إيمانهم بهذا الكتاب إيمانًا حقيقيًا يترجمونه لواقع عملي تصدِّقُ فيه أعمالُهم ما وقر في قلوبهم.

والمتأمل في آيات الإعجاز فيجدها آيات محدودة. أما آيات الإيمان فتكاد لا تخلو منها آية من آيات القرآن الكريم.

المبحث السادس
القصص القرآني

القصة في القرآن الكريم وسيلة من أهم وسائل القرآن لبيان ما يهدف إليه وما يعرضه من موضوعات شتىٰ، وخاصة أن النفس البشرية تميل بطبيعتها للعرض التاريخي، وتتشوق لمعرفة التاريخ البشري كما أن في التاريخ البشري دروسًا مهمة في حياة الإنسان. وعليه، فهو وسيلة تربوية هامة.

والقرآن الكريم لا يعرض التاريخ البشري عرضًا تاريخيًا مجردًا، إنما يسوقه لأغراض دينية[(١)]، والتي يمكن إجمالها بما يلي:

١- إثبات الوحي والرسالة، فمحمد ﷺ لم يكن يقرأ ويكتب، وما تعلم من علماء اليهود ولا النصارىٰ، فيأتيه من القصص بدقة وتفصيل ما يشير إلىٰ أنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا عن طريق الوحي، قال تعالىٰ: ﴿ **تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا..** ﴾ [هود: ٤٩].

٢- بيان أن الأنبياء والرسل جاؤوا بكلمة واحدة وقضية واحدة، فالكلمة هي «لا إله إلا الله» والقضية هي ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾. وانظر علىٰ سبيل المثال ما جاء من قصص في سورة الأعراف هود والشعراء..

٣- التسرية عن الرسول ﷺ فيما يلقاه من قومه من تكذيب وأذىٰ واتهام بالسحر والجنون، فقد كُذِّب الرسل من قبل ووجه إليهم نفس القول، ثم صبروا حتىٰ جاءهم نصر الله ﴿ **وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ...** ﴾ [هود: ١٢٠]، ﴿ **كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

---

(١) انظر في بيان أغراض القصة في القرآن كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب مبحث بعنوان أغراض القصة ص ١٤٣، وكتاب دراسات قرآنية لمحمد قطب، ص ٩٩ - ١١١.

وكذلك للتسرية عن المؤمنين فيما يلقونه من عذاب، فقد أذيق المؤمنون قبلهم ألوان العذاب والتشريد فصبروا على كل ذلك حتى جاءهم نصر الله. انظر قصة قوم موسى مع فرعون وهو يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم، وقصة السحرة مع فرعون، وقصة أصحاب الأخدود والتي انتهت كلها بانتصار المؤمنين على الكافرين والظالمين.

٤- إبراز الموقف الموحد الذي تقفه الجاهليات جميعًا من الرسل ودعوتهم، بالتكذيب والإعراض والإشاعات المغرضة والكاذبة، وهو نفس الموقف في الجاهليات كلها من دعوة التوحيد. إن لكل مجتمع جاهلي «ملأ» وهم السادة، و«شعب» وهم العبيد، حكّام ومحكومون، مستكبرون ومستضعفون: ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

٥- بيان سنة الله في ابتلاء المؤمنين ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٦- بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه، لقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم وغيرهم.

٧- تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم.

٨- تصديق التبشير والتحذير.

وللقصة أهداف أخرى، ولعل هذه أهمها. إلا أن المهم في تأمل القصة القرآنية هو بيان الهدف الذي سيقت القصة من أجله.

التكرار في القصص القرآني:

يراد بالتكرار: إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لتقرير المعنى السابق لم يكن منه[1].

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي، (٣ / ٩).

وقد تحدث العلماء عن قضية التكرار في القرآن الكريم وخاصة القصص القرآني، فنجد أن البعض أثبت وجود التكرار وبين فوائده، بينما نجد عبارات آخرين تنفي وجود التكرار في القرآن الكريم.

وفي الحقيقة أن كل فريق يقصد شيئًا معينًا، فالذي أثبته نظر بشكل عام لحلقات القصة حيث ورد ذكرها في أكثر من موطن، والذي نفاه نظر للتفصيل في الكلمات والعبارات التي سردت فيها القصة ونظر لسوابق تلك الحلقة ولواحقها، فيجد أن كل حلقة وإن أعيد موضوعها أن القرآن الكريم قد استشهد بها استشهاداً آخر وساقها لموضوع آخر واستخلص منها عبرة جديدة غير التي سبق ذكرها في السورة الأخرىٰ.

ففي سورة الأعراف وهود والشعراء نجد قصصًا مكررة تحكي تاريخ نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام مع أقوامهم. وحتىٰ الحلقة الواحدة نجدها تتكرر مرات عدة، فالحلقة من قصة نوح التي تشير لإغراق قومه وإنجاء نوح ومن معه يرد ذكرها في مواطن متعددة من القرآن الكريم، وكذلك تكذيب قوم نوح له ... فتكرار القصص أو بعض حلقات من القصة هذا أمر واضح جلي، وهذا هو المقصود بالتكرار لمن أثبته. أما من نفاه واستخدم عبارة لا تكرار في القرآن أو في القصص القرآني فإنه نظر لما يسبق القصة أو الحلقة من القصة أو لما يلحقها فوجد أنه لا تكرار ... يقول البقاعي: إن مناسبات السورة توقفنا علىٰ معان عظيمة تدل علىٰ إعجاز القرآن الكريم وتكشف عن غامض معناه. وبه يتبين لك أسرار القصص المكررات في القرآن، فإن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنىٰ ادُّعيَ في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنىٰ الذي سبقت له في السورة الثانية، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل.

الفرق بين القرآن والتوراة في عرض قصص الأنبياء:

لم يسلك القرآن الكريم مسلك التوراة في بيان أخبار الأنبياء، إنما اختار بعضهم ليقص قصصهم، فاختار اسم خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، وهناك آخرون لم يذكرهم ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤].

والقرآن حينما اختار بعض هؤلاء الرسل لم يعمد إلى أخبار هؤلاء جميعهم، إنما اختار من هذه الأخبار ما يتفق وحالة الدعوة الإسلامية وموقف النبي من قومه، ومن هنا لم يكن فيه التفصيل الموجود في التوراة.

ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساسي في ترتيب هذه القصص كما في التوراة، فالتوراة قصدت إلى هذا التاريخ، أما القرآن فلم يقصد إلا إلى العظة والعبرة، وإلى البشارة والإنذار، وإلى الهداية والإرشاد وشرح مبادئ الدعوة الإسلامية والرد على المعارضة وتثبيت قلب النبي ﷺ ومن معه[١].

عدد الأنبياء والرسل:

ذكر القرآن الكريم أسماء خمسة وعشرين نبيًا، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد، عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

وهناك أنبياء ورسل آخرون أشار إليهم القرآن ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴾ [النساء: ١٦٤].

ولم يرد نص قاطع عن النبي ﷺ في حصر عدد الأنبياء والرسل، وقد ورد في حديث فيه مقال عن أبي ذرّ قال: يا رسول الله أي الأنبياء كان أول؟ قال «**آدم**»

---

(١) مشكاة المصابيح (٥٧٣٧).

قلت: يا رسول الله ونبي كان؟ قال: «**نعم نبي مكلّم**» قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «**ثلاثمائة وبضعة عشر جمًا غفيرًا**».

وفي رواية عن أبي أمامة، قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً**» رواه أحمد(١).

والحديث مداره على علي بن يزيد وهو ضعيف، وله لفظ آخر عند ابن حبان أن عدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر. وقد تكلم في الحديث وليّ الدين العراقي، وردّ على ابن حبان جماعة من الحفاظ لإدخاله هذا في الصحيح.

والمهم في ذلك أن القرآن ذكر أسماء خمسة وعشرين وأشار لغيرهم كثير، على المؤمن أن يؤمن تفصيلاً بنبوة ما ذكر اسمه صراحة، ويترك الباقي لعلم الله تعالى.

---

(١) مع الأنبياء في القرآن الكريم لعفيف الطبارة، ص ٢٧، الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٧، دار العلم للملايين، بيروت.

الفصل الثالث

العقيـــدة في العهـــد المكي

المبحث الأول: عقائد المشركين وأخلاقهم

المبحث الثاني: الإيمان بالله تعالى

المبحث الثالث: الإيمان باليوم الآخر

المبحث الرابع: الإيمان بالملائكة والرسل والكتب والقدر

تمهيـــد

كانت الفترة المكية فترة بناء العقيدة بكل جزئياتها وتفاصيلها وما يتصل بها في واقع الحياة، وقد تجد سورة كاملة تناقش جزئية من جزئيات العقيدة في توحيد الله في صفاته وأفعاله، أو في الحديث عن قضية من قضايا اليوم الآخر.

وقد نزل القرآن الكريم علىٰ النبي محمد ﷺ. وكانت التصورات القائمة للمجتمع العربي – الذي نزل فيه القرآن – عن الله واليوم الآخر وغيرها من أركان العقيدة تمثل صورة من أحط صور العقيدة الدينية، من عبادة الأصنام والاعتقاد بأنها توصل الإنسان إلىٰ الله تعالىٰ، ومن إنكار لليوم الآخر كليًا، ومن عبادة الجن والملائكة والأسلاف وعبادة مظاهر الطبيعة، إلىٰ غير ذلك من التصورات الجاهلية التي كانت قائمة بجوار العرب كالنصرانية واليهودية المحرفتين، والمجوسية والصابئة ... والتي دخل بعضها إلىٰ العرب أنفسهم، كما حصل لعديّ بن حاتم الذي كان قد تنصر في الجاهلية. هذا بالإضافة إلىٰ وجود تيار في المجتمع العربي نبذ العقيدة الجاهلية وحاول أن يرجع إلىٰ مِلّة إبراهيم ﷺ. وهؤلاء سموا «الحنفاء».

ولم يشأ القرآن بناء العقيدة الجديدة قبل أن ينتزع منهم عقيدتهم الجاهلية لأنه لا تجتمع عقيدة التوحيد مع غيرها من العقائد، لأن لكل معتقد من المعتقدات أثر في سلوك الإنسان في حياته، ولهذا نجد تركيزًا كبيرًا علىٰ نزع العقيدة الجاهلية لتحل محلها العقيدة الجديدة «عقيدة التوحيد».

وهذا يتطلب منا إعطاء تصور عن عقيدة المشركين في القرآن الكريم وكيف عالج القرآن هذه القضية.

المبحث الأول
عقائد المشركين وأخلاقهم

لم يكن العرب المشركون ينكرون ذات الله تعالىٰ، بل كانوا يعتقدون بوجوده ويقرون ببعض صفات الله تعالىٰ؛ والتي اتخذ القرآن منها مادة ليجادلهم، فكانوا يعتقدون أن الله تعالي هو خالق السماوات والأرض، وأنه تعالىٰ بيده ملكوت كل شيء ... لكن تصورهم كان قاصرًا عن الله تعالىٰ وكانوا يشركون معه الآلهة فيعبدون الأصنام وغيرها ... ولم تكن عبادتهم للأصنام إلا لأنها بنظرهم تقربهم إلىٰ الله زلفىٰ ... يقول تعالىٰ عن المشركين: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [العنكبوت: ٦١]. **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [العنكبوت: ٦٣]، **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [الزخرف: ٨٧] ... **﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾** [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

كان ذلك تصورهم عن الله تبارك إلا أنهم كانوا يشركون مع الله آلهة أخرىٰ ويعبدون تلك الآلهة .. فكانوا يعبدون الأصنام، وقد انتشرت عبادة الأصنام حتىٰ صارت مظهرًا من مظاهر حياتهم، وخاصة أنهم كانوا بالقرب من الكعبة المشرفة ويعتبرون أنفسهم أنهم علىٰ ملة إبراهيم عليه السلام وأنّهم متمسكون بدينهم. وقد دخلت الأصنام بيت كل واحد منهم .. حتىٰ تأصلت في نفوسهم، لذلك لما طُلب منهم ترك عبادة الأصنام جادلوا فيها جدالاً مريرًا .. فلما نزل قول الله تعالىٰ: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾** [الأنبياء:٩٨]،

قاموا يدافعون عن أصنامهم وقالوا إذا كنا مع أصنامنا حصبًا لجهنم فما بالُ عيسىٰ وقد عبده قومه أيكون أيضًا حصبًا لجهنم؟ فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨][١]. قال الكلبي في كتاب الأصنام (كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضًا)[٢]، ولما جاء وفد ثقيف إلىٰ النبي ﷺ ليفاوضوه في الدخول في الإسلام، وكان من جملة طلبهم أن يترك لهم «اللات» – وهو الصنم الذي كان يُعبد عندهم – أن يتركه لهم ثلاث سنوات لا يهدمها فأبىٰ النبي ﷺ ذلك، فما برحوا يسألونه سنة سنة حتىٰ سألوه شهرًا فأبىٰ عليهم أن يدعها ... ثم أرسل وفدًا لتكسير الأصنام فخرجت نساء ثقيف حُسَّرًا يبكين عليها ويرثينها[٣].

وكانوا يعتقدون بأن الملائكة هم بنات الله، وكانوا يعبدون ذلك، وانظر إلىٰ هذا التناقض العجيب فهم يكرهون البنات، وفي نفس الوقت ينسبون البنات إليه تعالىٰ، ويعبدونهن من دون الله، ويجادلون في عبادتهم بأنّ قَدَرَ الله شاء ذلك ولو شاء غير ذلك ما فعلناه، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ١٥-٢٠].

وكانوا ينكرون اليوم الآخر، ويجادلون في أمر ذلك اليوم، ويسخرون من

---

(١) انظر سبب النزول في مسند أحمد (١ / ٣١٧-٣١٨)، والطبراني في الكبير (١٢٧٤٠).
(٢) الأصنام، ص ٣٠٣.
(٣) سيرة ابن هشام (٢ / ٣٢٤).

النبي ﷺ الذي أخبرهم بالبعث، قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ [سبأ: ٧-٨]، وجاء أحد المشركين إلىٰ النبي ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ﷺ: «**نعم يميتك الله تعالىٰ ثم يبعثك ثم يحشرك إلىٰ النار**» .. فنزل قوله تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨][(١)]. وقد وجد قوم من الأقوام ينسبون الموت والحياة إلىٰ الدهر: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤].

كما وجد في العرب من عبد الأجرام السماوية وخاصة الشمس والقمر، وكانوا يسمون الشمس «الإلاهة» .. وعبد بعضهم الجن .. وعبد بعضهم البشر، فكانوا يعبدون أسلافهم فاتخذوا الأصنام إحياء لذكراهم، ثم قاموا بعبادة الأصنام ذاتها ونسوا أولئك الأسلاف. كما وجدت جماعة تسمىٰ الطوطمية، وهي تعني: اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرهم مقدسة ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو أكلها .. وكان للطوطمية حظ عند العرب في الجاهلية، لذلك سميت بعض البطون والعشائر بأسماء حيوانات مثل: كلب، وذئب، ودب، ونسر، وثعلب، وثور[(٢)].

ونتيجة لرد الفعل علىٰ مثل هذه المعتقدات المتناقضة فقد ظهر تيار نادىٰ بالعودة إلىٰ ملة إبراهيم ونبذ عبادة الأصنام والمعتقدات الفاسدة وهؤلاء عرفوا بالحنفاء .. (ويفهم من بعض الروايات أن منهم من قرأ الكتب السماوية وفهمها، وأنهم كانوا يتأملون في هذا الكون، وأنهم تجنبوا الخمرة والأعمال المنكرة، ونصحوا الناس بالابتعاد عن الأصنام)[(٣)].

لذلك كان لهذه العقيدة الباطلة أثرها السيء في عبادتهم وتشريعاتهم

(١) وسبب النزول رواه ابن جرير (٢٣ / ٣٠) والحاكم في المستدرك (٢ / ٤٢٩) وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) روح الدين الإسلامي، عفيف الطبارة، ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

وسلوكهم ونظرتهم للحياة والكون والإنسان ... فنتيجة لهذه العقيدة جعلوا نصيبًا للشركاء مثل نصيب الله تعالىٰ، بل كان نصيب الله يعود علىٰ شركائهم.. ونتيجة لذلك كانوا يقدمون أولادهم قربانًا لتلك الآلهة المزعومة – الأصنام – .. ونتيجة لذلك حرّموا أكل بعض الأنعام أو ركوبها، وأن ما في بطون الأنعام محرم علىٰ الإناث دون الذكور .. إلىٰ غير ذلك من التشريعات الباطلة الفاسدة، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَىٰ اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

[الأنعام: ١٣٦-١٣٩]

نزل القرآن الكريم وكانت تلك صورة المجتمع الجاهلي فاهتم القرآن الكريم بتصحيح عقائد المشركين .. وكان اهتمام القرآن الكريم بتصحيح عقيدة المشركين لما لأمر العقيدة من أثر بالغ وعظيم في سلوك الفرد ونظرته للحياة، لذلك نجد الحديث طويلاً عن مناقشة عقائد المشركين الفاسدة .. والقرآن الكريم أراد بناء مجتمع قائم علىٰ العقيدة الخالصة – عقيدة التوحيد – حيث لا يمكن أن تجتمع عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك، لأنه لابد أن تطغىٰ إحداهما علىٰ الأخرىٰ وتوجه سلوك الإنسان، لأن لكل عقيدة من العقائد أثر في السلوك، فكان لابد للقرآن الكريم من نزع عقيدة الشرك من الإنسان ليبني عقيدة التوحيد.

ولابد من الإشارة إلى أن الجاهلية التي أشار إليها القرآن الكريم والمتمثلة في المشركين وفي غيرهم ليست إلا نسخًا متعددة، تتعدد وتوجد في كل مجتمع

يبتعد عن منهج الله تبارك وتعالىٰ ... وليست الجاهلية الحديثة إلا صورة طبق الأصل عن الجاهلية القديمة في تصوراتها ومعتقداتها وفي سلوكها وفي نظرتها للكون والحياة والإنسان ولخالق هذا الكون .. إنها صورة مكررة في كل عصر وزمان، إلا أن الشعارات هي التي تختلف، فبالأمس شرّع «الشركاء» لمجتمعاتهم في أمر الأنعام فقالوا: هذا يجوز الأكل منه وهذا لا يجوز، وهذا يجوز ركبه وهذا لا يجوز، ورفعوا تلك الشعارات: «هذا لله وهذا لغيره». والنتيجة أنه كله لغير الله وشرّع الذين من قبلهم لأقوامهم فأحلوا وحرموا – وهم الأحبار والرهبان – حيث قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وكان شعار كلٍّ منهم أن هذا لله وهذا شرع الله ... واليوم تتكرر نفس الصورة في الجاهلية الحديثة فتحل محل الأصنام التي عبدوها أصنامٌ جديدة وترفع الشعارات لأجل الحرية، ولأجل الإنسان ... لكن المسحوق هو الإنسان، وتعبد المادة ذاتها بدلاً من تلك الأصنام، يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (والحقيقة، أن الواقع الذي لابد أن يفرض نفسه ... عند عدم الإيمان بالله عز وجل .. هو واقع تألّه علىٰ الآخرين، وبسط لمقتضيات الربوبية الزائفة، إلا أن هذا الواقع أعم من أن تستعمل له كلمات «الربوبية» و«العبودية» أو لا تستعمل .. فما أيسر أن يمارس المتألهون ألوهيتهم الزائفة من خلال شعارات الحرية والمساواة والعدل والديمقراطية ونحوها .. بل كلنا يعلم أن مناداة الإنسان لنفسه بين قومه بالربوبية غدت طريقة بدائية بالية نحو هدف التسلط والطغيان، وإنما خير سبيل مستحدث إليهما امتطاء سُلّم من الشعارات الخادعة التي تعبر عن نقيض المقصود. انظر إلىٰ جنبات ذلك العالم النائي الذي يتباهىٰ بإلحاده ونزعته المادية المجردة، ودع الشعارات والألفاظ فيها جانباً، أفلا ترىٰ بكل وضوح مظاهر الربوبية التي كان الأقدمون من فراعنة ونحوهم ينعتون أنفسهم بها..؟

بل إنك لواجد ما هو أبلغ من ذلك وأخطر في ظل حياتنا الجديدة التي تفور بمصطلحات وشعارات جديدة. وحسبك أن ترىٰ كيف تنسحق إنسانية الإنسان

سحقًا، رعاية لربوبية الأرباب وحماية لهم عن أن يُمسُّوا بأي تذكرة أو نقد! .. فماذا يخفف من البلاء أو يغير من الحقيقة ما قد تراه من الفرق بين أولئك «الأرباب» المتوّجين الذين خلوْا من قبل، وهؤلاء «الأرباب» غير المتوّجين الذين جاؤوا علىٰ أعقابهم اليوم؟..

فإن غمت عليك رؤية هذه الحقيقة في ربوع الغرب الأوربي والأمريكي، حيث يشيع فيها ما يُسمىٰ بالحرية والديمقراطية والحديث عن قيمة الإنسان وحقوق الإنسان. فانتبه إلىٰ الإله الذي تعنو جباههم جميعًا بالخضوع لسلطانه، ألا وهو المادة واللذة .. فإذا تنبهت إلىٰ هذا، فسيكون بوسعك أن تلاحظ مدىٰ الطغيان الذي يبسطه أولئك الديمقراطيون «الإنسانيون» حماةُ الحرية والحق علىٰ طول البلاد وعرضها، تقربًا إلىٰ إلههم المعبود المتمثل في المادة .. ولا شيء غير المادة .. وهل الاستعمار بكل ما ترىٰ له من صنوف وألوان في سائر الجهات والبقاع، وكل ما تسمعه من تهديدات الحروب المدمرة، وأمواج الفتن والحروب الجزئية المشتعلة؛ إلا قرابين تقدم إرضاء لإله المادة وطاغوته؟!)[1].

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص ٦٠، ط. الأولى ١٩٨٢م – ١٤٠٢هـ دار الفكر، دمشق.

المبحث الثاني
الإيمان بالله تعالى

والإيمان بالله تبارك وتعالىٰ هو محور العقيدة الإسلامية، وذلك أن حقيقة الألوهية هي الحقيقة الكبرىٰ التي يقوم عليها الوجود كله والركيزة الأساسية التي تقوم عليها عقيدة الإنسان، والتي ترجع إليها كل جزئية من جزئيات العقيدة، فكل ما عدا هذه الحقيقة تبع لها . .

ولم يكن حديث القرآن الكريم عن هذه القضية نتيجة لإنكار المشركين أو لتصورهم عن الله تبارك وتعالىٰ، بل كان الحديث عن هذه القضية بسبب الأهمية الذاتية للموضوع.

ففي هذه الفترة – الفترة المكية – نجد حديثًا مطولاً ومسهبًا عن قضية الألوهية وتفصيلاً لهذا الموضوع بكل جزئياته وتفصيلاته . . وتعرض هذه القضية من خلال كل موجود وكل مخلوق . . فكل ما خلق الله تعالىٰ فيه دلالة علىٰ الخالق في صفات ذاته أو صفات أفعاله.

فالكون بسماواته وأراضيه ومخلوقاته التي تدب فيه من حيوان أو نبات أو جماد، إنْ هي إلا مخلوقات تدل علىٰ خالقها جل وعلا، هذه الضخامة المتناهية التي يعجز العقل عن تصورها، وهذه الدقة المعجزة. التي يعجز العقل عن إدراك كنهها لهي أعظم ما يدل علىٰ عظمة الخالق وعظمة قدرته يقول الأستاذ محمد قطب: (الكون أعظم إيقاع يوقع علىٰ أوتار القلب البشري . . الكون بضخامته الهائلة . . والكون بدقته المعجزة . . كلاهما توقيع هائل لا يمكن أن ينجو منه قلب إنسان . .

الكون بضخامته الهائلة التي لا تصل إلىٰ مداها العيون . . بل لا تصل إلي

مداها الأفكار! كان الإنسان ينظر بعينه المجردة فلا يصل إلا إلىٰ أبعاد قريبة من الأرض، وأبعاد قريبة من السماء .. وكانت هذه وتلك تهوله بضخامتها! ثم بدأ يصنع المناظير، فامتدت رؤيته في الأرض، وأوغل ببصره في السماء .. فزادت ضخامة الكون في حسه، وظلت تتزايد مع كل منظار جديد، يكشف له من أغوار السماء خاصة ما لم يكن يراه من قبل .. ثم تعدت الضخامة المحسوس.. وتحولت إلىٰ أرقام! هذا نجم يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية .. ويراه المنظار! والحسبة التي تساوي أربعة آلاف سنة ضوئية حسبة لا يتصورها العقل .. إلا عن طريق الأرقام! .. ثم جاء المنظار الإلكتروني .. إنه يسجل أبعادًا لا تُرىٰ! إنما تكتب فقط في لوحة الأرقام! ضخامة لا يمكن أن ينجو من وقعها الحس، ولو أراد أن يتفلت، ولو كابر أمام الناس! ويهتز وتر في القلب .. علىٰ هذه الضخامة الهائلة .. فتنطلق الفطرة تبحث: مَنْ وراء هذه الضخامة المعجزة؟ من الخالق؟ ثم تهتدي فتعرف الخالق علىٰ حقيقته .. أو تضل فتسميه «الطبيعة» .. أو تسميه كائناً من كان.

ومع الضخامة الهائلة دقة معجزة كذلك! هذا الكون الضخم الهائل لا يتحرك ضبط عشواء .. إنه يسير في حركة دقيقة تبلغ حد الإعجاز .. هذه الملايين، بل ملايين الملايين، من النجوم في الكون لا يلتقي اثنان منها في هذا الكون العريض، ولا يقع بينهما صدام .. إلا أن يشاء الله .. كل في فلك يسبحون! وتربطها جميعًا تلك الطاقة المعجزة التي تسمىٰ «الجاذبية» .. تربطها بحيث تتحرك كلها في حركة منتظمة .. لا هي تتوقف ولا هي تصطدم إلا أن يشاء الله! والشمس والقمر بحسبان! حسبان دقيق لا يخطيء! تستطيع أن تنشيء جداول فلكية تحسب فيها الكسوف والخسوف لألف عام .. ما لم يغير الله نظام الكون! بل الكون هو الساعة العظمىٰ التي تضبط عليها الساعات الفلكية الدقيقة .. التي تحسب الوقت بالساعة والدقيقة والثانية والثالثة «واحد من ستين من الثانية» .. بل هناك اليوم ساعات تحسب بجزء من مائة ألف جزء من الثانية .. مضبوطة كذلك علىٰ الأفلاك! ثم .. هذا العصفور الجميل الذي

يسقسق في الفضاء! هل سمعت هذه السقسقة ذات الأنغام الدقيقة البالغة الدقة؟! وهذا الطائر الملون الريش .. هل رأيت كل ريشة مفردة كيف لُوِّنت؟ كيف تداخلت الخطوط والألوان على مئات أو ألوف من الشعيرات كلٌّ تأخذ مكانها في اللوحة الدقيقة البالغة الإعجاز؟! والزهرة الدقيقة الملونة .. والكائن الدقيق الذي لا يكاد يرى بالعين وهو حي مكتمل الحياة! أي إعجاز في تلك الدقة البالغة في ذلك الكون الضخم الذي يروع بضخامته الحس والأبصار؟! وأي قلب يمكن أن ينجو من توقيعات تلك الدقة المعجزة ولا ينبعث يبحث عن الله .. سواء ضل بعد ذلك أم وصل إلىٰ هداه؟!)[1].

فالقرآن يعرض قضية الألوهية من خلال هذا الكون العريض والذي يتجلىٰ فيه قدرة الله وحكمته وإبداعه وعلمه المحيط بكل جزئية من جزئيات هذا الكون ... يعرض قضية الألوهية من خلال كل مخلوق فالشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالىٰ والماء الذي تدب بسببه الحياة علىٰ الأرض، والأرض بكل ما فيها والتي خلقها تعالىٰ لخدمة الإنسان، يقول تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٠-١٨].

ففي هذه المرحلة المكية نجد التفصيل المطول لعرض قضية الألوهية .. وهدف القرآن من هذا العرض الشامل أن يصل بالمرء إلىٰ درجة اليقين. كان يمكن

---

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ٣٥، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م، دار الشروق، القاهرة.

أن تكون بعض المشاهد المعدودة في هذا الكون تدل علىٰ الخالق ووحدانيته وتفرده في الخلق والصنعة ولكن الهدف من توارد الشواهد والأدلة هو الوصول بالمرء لدرجة اليقين لتكون هذه العقيدة موجهة للإنسان في سلوكه وعواطفه وجميع حياته، وليقيم حياته علىٰ ضوء هذا المعتقد.

ولم يَدْعُ القرآن الكريم للإيمان بالله تعالىٰ فحسب، بل دعا لتوحيد الله في ذاته وفي صفاته، فالله تعالىٰ واحد أحد فرد صمد، وكل ما في الكون إنما هو وحده خالقه وهو القادر المسيطر العليم بكل ذرة من ذرات هذا الكون .. ولا يشبهه أحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] .. فهو تعالىٰ متفرد في ألوهيته ومتفرد في ربوبيته ..

إننا لو أمعنا الفكر في هذا الكون، ولا حظنا وحدة نظامه من أبعد كوكب فيه عنا إلىٰ أصغر ذرة من ذراته، ولا حظنا تسايره المحكم البديع دون خلل أو اضطراب، أو فساد في أرضه وسمائه، في حركة نجومه وكواكبه، في وحدة نظام مجراته لوجدناه مترابطًا بعضه في بعض، مع أن كل جزء فيه يعمل في نطاقه ومجاله .. وهذا يدل علىٰ أنّ الخالق المهيمن علىٰ الكون كله واحد لا شريك له، ولو كان متعددًا لتعارضت قوانين الكون وانتهىٰ هذا الكون إلىٰ التصادم والفساد .. لذلك نعلم جازمين أن المهيمن علىٰ الكون كله، والمنظم له والموجه لكل جزء فيه واحد لا يشركه في أمره شريك. وهذا المعنىٰ هو ما يسمىٰ بصفة الوحدانية أو «توحيد الربوبية» أي: أنّ الله واحد لا شريك له في الخلق والأمر والتدبير والملك، وغير ذلك من الصفات التي يدل عليها اسم الرب .. قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وإذا كان الله وحده هو الخالق المدبر للأمر كله، ولا شريك له في ربوبيته فهذا يستلزم أن يكون هو حده المستحق للعبادة، ولا يصح أن يعبد غيره، وكل عبادة لغيره شرك .. وهذا ما يطلق عليه «توحيد الألوهية» ..

فالله تعالىٰ وحده هو الذي يستحق العبادة، ولا يستحقها ولا بعضًا منها أي مخلوق، مهما اتصف بصفات القوة والسيطرة والعلم وغير ذلك .. بل إن كل مخلوق يستمد صفاته من خالقه..

والقرآن الكريم لم يقتصر في الدعوة إلىٰ عبادة الله تعالىٰ، بل دعا لعبادة الله وحده وترك عبادة غيره من المخلوقات .. ولهذا نجد أن القرآن الكريم دعا لعبادة الله وتوحيد العبادة في صيغتين اثنتين، الأولىٰ: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، والثانية: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ [هود: ٢].

والعبادة لها مفهومها الواسع، وهي تشمل كل حركة وكل نشاط إنساني، فهي تعني (أقصىٰ غاية الخضوع والتذلل لله مع طاعته)[١] يقول الراغب الأصفهاني في تعريف العبادة: (العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالىٰ، ولهذا قال: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣][٢]، ويقول الدكتور يوسف القرضاوي في العبادة وشمولها. (إنها تتسع للحياة كلها، فلا تقتصر علىٰ الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد به الناس. فالجهاد في سبيل الله دفاعًا عن الحق وذودًا عن الحرمات ومنعًا للفتنة وإعلاء كلمة الله .. عبادة لا تعدلها عبادة .. وكل عمل نافع يقوم به المسلم لخدمة المجتمع أو مساعدة أفراده؛ وخصوصًا الضعفاء وذوي العجز والفاقة منهم .. هو كذلك عبادة أي عبادة! من ذلك ما جاءت به الأحاديث الكثيرة التي تحث علىٰ الصدقة كل يوم تطلع فيه الشمس. حتىٰ جعلت إماطة الأذىٰ عن الطريق صدقة، وحمل الرجل الضعيف علىٰ دابته صدقة، بل تبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل معروف صدقة .. ويدخل في دائرة العبادة: سعي الإنسان علىٰ معاشه ومعاش أسرته ليغنيهم بالحلال ويعفهم عن

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف الطبارة ص ١٩٢، ط ٢٧، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٨م.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، مادة (عبد)، دار المعرفة، بيروت.

السؤال .. وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر)[١]. ويقول سيد قطب: (ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى «العبادة» أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنىٰ العبادة أولاً وأخيراً.. وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، وتشريعات الأسرة، وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج .. ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنىٰ العبادة في حياة الإنسان .. والنشاط الإنساني لا يكون متصفًا بهذا الوصف، محققًا لهذه الغاية – التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني – إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفراد الله – سبحانه – بالألوهية؛ والاعتراف له وحده بالعبودية ... وإلا فهو خروج عن العبادة لأنه خروج عن العبودية، أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله)[٢].

فالله تبارك وتعالىٰ هو وحده الذي يستحق العبادة، ولا يستحقها أحد سواه، والعبادة يتسع مفهومها ليشمل كل سلوك أو نشاط إنساني .. وعبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه هو توحيد لله تعالىٰ في ألوهيته، لذلك كان من توحيد الألوهية أن نعبد الله كما شرع، فتكون إقامة الشعائر التعبدية كما شرع الله وبينها رسوله الكريم ﷺ وتكون كل حركة وكل سلوك عبادة إذا اقترنت بالنية لله عز وجل.

ومن توحيد الله تبارك وتعالىٰ في الألوهية: تحكيم شرعه، وذلك أن اتباع شرع مناقض لشرع الله تبارك وتعالىٰ فإنه يكون عبادة للأشخاص الذين شرعوا تشريعاً يناقض شرع الله تبارك وتعالىٰ، وهذا ما فسره النبي ﷺ لقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣١]، فعن عدي بن

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١١٧، ط. الثانية ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(٢) في ظلال القرآن، ٤ / ٢٧٧.

حاتم أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فذلك عبادتهم إياهم».

ففي هذا العهد - المكي - كان الحديث عن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية بشكل كامل ومفصل، وكانت هذه من القضايا الرئيسية في العهد المكي .. وفي سورة الأنعام كان هناك حديث مطول عن قضية التشريع، وأنها حق لله وحده، كان ذلك من خلال الحديث عن النذور والذبائح والأنعام والثمار والأولاد وغيرها والتي كان للجاهلية فيها تشريعات جائرة فكانت هناك فئة معينة تحلل وتحرم بعض هذه القضايا. وفي سورة هود حديث مطول عن عبادة الله وحده، وألا يعبد أحد سواه .. وقد دعا جميعُ الأنبياء أقوامهم لعبادة الله وحده ونبذ عبادة من سواه.



المبحث الثالث
الإيمان باليوم الآخر

الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان العقيدة الإسلامية، لما فيه من حقائق هامة ولما له من أثر بالغ في حياة الإنسان.

وأسلوب الحديث في العهد المكي هو التفصيل لكل جزئية من جزئيات اليوم الآخر، ولكل مشهد من مشاهد القيامة، بدءاً من مقدمات ذلك اليوم إلى قيام الساعة ثم الحشر ثم الحساب والعقاب واستقرار كل فريق حسب عمله في الحياة الدنيا.

وقد أنكر المشركون وغيرهم اليوم الآخر، وكانوا ينكرون ويتعجبون من الاعتقاد بذلك اليوم، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿**بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ**﴾ [ق: ٢].

لكن الحديث المطول لم يكن نتيجة لإنكار المنكرين للبعث فحسب، بل للأهمية البالغة للاعتقاد بذلك اليوم، فإن من اعتقد بذلك اليوم فإنه يكون له الأثر في منهج حياته وسلوكه، يقول سيد قطب: (التصديق بيوم الدين شطر الإيمان. وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً. والميزان في يد المصدّق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه. ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث .. المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنّيا، ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها .. والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر. ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه،

وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة .. وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في هذا الشطر من الحياة الذي يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته، قد لا يكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا معقولاً، ما لم يضف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول. ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله. ولا تستقيم له حياة رفيقة لا يجد جزاءها في هذه الأرض واضحاً .. ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شطر الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام»[1] فللإيمان باليوم الآخر أثر بالغ وعظيم في حياة الإنسان وسلوكه ومنهج حياته ... ولا تستقيم حياة ولا منهج إلا بالإيمان بهذا اليوم الذي يحاسب الله فيه عباده ويبدلهم خيراً من هذه الحياة الدنيا .. وعندها يعلم الإنسان أن هذه الحياة الدنيا ليست إلا دار عبور للحياة الآخرة، وأن هذه الحياة الدنيا ليست إلا للابتلاء فمن آمن وصدق بالحياة الآخرة أقام منهج حياته في الدنيا على أنها دار ابتلاء وامتحان وكان همه في العمل للآخرة لأنها دار القرار .. ومن أنكر الآخرة فإنه يقيم منهج حياته في الدنيا على أنها حياته التي ليس له سواها وبالتالي يكون همه في إشباع شهوته في هذه الحياة، ولا ضير إن سرق أو ظلم أو قتل أو فعل أي شيء إرضاء لشهوته ولحياته الدنيوية، فالفرق واضح جداً في سلوك كل فرد.

وكلما كان التصديق باليوم الآخر قويًا كان له الأثر الأكبر في منهج الإنسان وحياته .. لذلك نجد أن القرآن الكريم يدعو المرء للوصول إلى درجة اليقين بالآخرة، فيورد له من الشواهد والأدلة الكثيرة ما يوصله إلى درجة اليقين، واليقين بالآخرة: هو الاعتقاد بها اعتقاداً لا شك فيه ولا تخالطه أية ريبة أو شبهة .. فيكون منهج حياته مستمداً من هذا الاعتقاد اليقيني.

وفي الفترة المكية كان الحديث مطولاً عن اليوم الآخر بكل تفصيلاته حتى لا

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٧٠٠).

يكون هناك مجال لأية شبهة، بدءاً من مناقشة منكري البعث وعرض أدلة قيام الساعة، ثم عرض مشاهد مقدمات ذلك اليوم، ثم عرض مشاهد اليوم الآخر بكل ما فيه من أهوال ونعيم ..

وقد عرض القرآن الكريم عقائد منكري البعث وناقشها من خلال الأدلة الواضحة والمشاهدة في الكون، فالله تبارك وتعالى عادل حكيم ولا يرضى لعباده الظلم، ونشاهد وقوع الظلم في الحياة الدنيا، وبالتالي فإن عدل الله يقتضي رد المظالم لأهلها، ومعاقبة الظالمين .. كما أن الله تبارك وتعالى قادر على أن يعيد الحياة لهذه الأجساد فالذي خلقها أول مرة قادر - بل وحده القادر على أن يعيد الحياة .. والله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾ [يس: ٧٩].

كما عرض القرآن الكريم مقدمات اليوم الآخر: الساعة، قربها وأماراتها، والبرزخ وما فيه من نعيم وعذاب وسؤال، والنفختين، الأولى والثانية ومظاهر تبدل الكون .. ثم خروج الناس من قبورهم وحشرهم في أرض المحشر، وعرضهم للحساب وإعطاء كل فرد كتابه بيمينه أو بشماله .. ثم مرورهم على الصراط .. ثم دخولهم الجنة أو النار، وقد عرض القرآن كل مشهد من المشاهد وما فيه من أهوال شديدة وحالة الناس في كل مشهد ..

المبحث الرابع
الإيمان بالملائكة والرسل والكتب والقدر

تحدث القرآن الكريم في العهد المكي عن هذه القضايا كلها على أنها جزء متمم للعقيدة بعد الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، اللذين يستفرقان – من حيث الحجم – أكبر مساحتين في السور المكية، الإيمان بالله أولاً، ثم الإيمان باليوم الآخر.

إلا أن الحديث عن هذه القضايا كان ضروريًا، فقد كان للمشركين العرب وغيرهم تصوّر يشوبه الشرك بالله تعالى، فكانوا يعبدون الملائكة أو يعتقدون أن بين الله تعالى وبين الجِنّة نسبًا، ثم يعبدونهم بناء على ذلك .. وكانوا ينكرون رسالات بعض الرسل أو كتبهم، أو يعتقد بعضهم بصحة الكتب المحرفة .. وينظر بعضهم للقدر نظرة فيها شيء من الشرك، فكان البعض يرى أن عبادتهم للملائكة إنما هي بقدر الله، ولا قدر إلا قدرةُ لذلك يرون صحة عبادتهم للملائكة: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

.. فالحديث عن هذه القضايا كان لتصحيح العقيدة وتنزيه الله تعالي عن كل شريك.

أولاً: الإيمان بالملائكة:

والإيمان بالملائكة هو أحد أركان العقيدة الإسلامية (وأكبر فائدة لهذا الإيمان هو أن تتطهر عقيدة التوحيد من شوائب الشرك وأدرانه وأخطاره كلها)[١].

يقول الأستاذ محمد قطب: (أما الإيمان بالملائكة فهو يؤدي مهمة مزدوجة أو

---

(١) مبادئ الإسلام، أبو الأعلي المودودي، ص ٧٩، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م، الدار السعودية، جدة.

جملة مهام في وقت واحد .. فجبريل عليه السلام هو الذي نزل بالوحي على سيدنا محمد ﷺ . ومن ثم فالإيمان بجبريل – وهو أحد الملائكة – والشعور بالحب والمودة له، جزء من الاعتقاد اللازم للمؤمن، كالإيمان بصدق القرآن سواء، حتى لا يداخله شك في الطريق الذي وصل به إلينا القرآن .

ثم إن الملائكة عامة ذات صداقة ومودة للمؤمنين في الحياة الدنيا والآخرة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٠] .

ثم إن منهم الحفظة الذين يسجلون على الإنسان أعماله ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ** ﴾ [الانفطار: ١٠] .

ومعرفة ذلك كله تؤنس قلب المؤمن بتلك المودة النورانية التي تحسها الملائكة نحوه . كما أنه يحاول أن يلتزم بالسلوك الذي يفرضه عليه الإيمان، حتى لا يسجل الحفظة عليه إلا كل طيب من الأفكار والمشاعر والسلوك .

ومن هنا فإن الإيمان بالملائكة يؤدي « مهمة إيمانية » في حياة المؤمن، تتصل بالإيمان بالله، في الاعتقاد والسلوك، بالإضافة إلى تلك السعة النفسية التي يكتسبها الإنسان حين ينفسح أمامه عالم الكائنات، فلا يقتصر منها على ما تدركه حواسه فحسب ... ولا في حدود الحياة الدنيا، ولا في حدود ذات الإنسان .. وبالإضافة كذلك إلى الإحساس بعظمة الخالق الذي يخلق هذه الكائنات العلوية الشفيفة ..)[1] .

فالإيمان بالملائكة له أثر بالغ في حياة المؤمن، إذ تتجرد نفسه وروحه وعقيدته من كل صلة بالمخلوقات لتتصل بخالقها وخالق جميع الكائنات، ويشعر المؤمن أن هناك مخلوقات مسخرة لحفظه والعناية به فيدرك عناية الله وقدرته .. ومن ثم فإن حياته تنطبع بهذا الانطباع، وتكون هذه العقيدة موجهة له في سلوكه وجميع أمور حياته .

---

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ٩٣ .

ثانياً: الإيمان بالرسل والكتب:

والإيمان بالرسل وكتبهم هو أحد أركان العقيدة الإسلامية، وذلك أن الناس لا يستطيعون تحقيق حياتهم كما أراد الله تبارك وتعالى إلا على هدي من الرسل، والرسل بشر يصطفيهم الله تبارك وتعالى لتبليغ ما أوحي الله به، وليكونوا قدوة للعباد في إقامة الحياة التي يريدها الله تبارك وتعالى.

والناس محتاجون للرسل حاجة ماسة، وتتلخص حاجتهم للرسل بما يلي:

[١] لو ترك الناس لأنفسهم من غير تنبيه وإرشاد لظلوا في الضلالات، وذلك بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم.

[٢] إن الناس بحسب التقويم الذي فطرهم الله عليه، قد خلقهم الله ليختبر إرادتهم، ولولا أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، لكان للناس حجة عند محاسبتهم..

[٣] الناس لا يستطيعون أن يتوصلوا بأنفسهم إلى جميع الخيرات والفضائل الإنسانية والكمالات الخلقية، ويتفقوا عليها، لأن عوامل غرائزهم وشهواتهم تصرفهم عن الحق..

[٤] إن كثيراً من الحقائق العلمية التي لا غنية عنها لإصلاح الناس، وتقويم سلوكهم في الحياة، لا يمكن للعقل البشري أن يتعرف عليها بنفسه.. لذلك كان لابد من أن يتعرف الناس عليها عن طريق الوحي.

[٥] الناس بحاجة في إصلاح أفرادهم ومجتمعاتهم إلى مصلح مثالي يكون أسوة حسنة لهم)[١].

وبذلك يتبين حاجة الناس إلى الرسل لإصلاح حياتهم حسب منهج معين.. ولكن الرسل لابد أن تنتهي حياتهم ... وقد تحرف تعاليمهم لذلك كان لابد من منهج معين وقانون معين يرجع الناس إليه حال اختلافهم، فأنزل الله على

---

(١) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص ٣٠٧، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، دار القلم، دمشق.

الرسل كتبًا لتكون هي القانون لمنهج الحياة، ولحكمة من الله تبارك وتعالى، حرفت الكتب السابقة ثم أنزل القرآن الكريم وتكفل - سبحانه - بحفظه ورعايته من النقص والتحريف والضياع.

والذي يؤمن بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن حياته تنطبع بهذا الطابع، وذلك أن البشر جميعًا يعتريهم النَّقْص، وعليهم أن يستمدوا من خالقهم منهج حياتهم وسلوكهم، وهذا لا يمكن إلا عن طريق نبي يصطفيه الله تبارك وتعالى ليبلغ رسالته للناس ... فمن آمن بالنبي فعليه أن يتبعه بالشيء الذي جاء به، فيكون قد اتصل بالخالق جل وعلا واستمد منه هذا المنهج .. وبالتالي تصلح حياته وتكون حسب الوجه الذي أراده الله تعالى، بعيدة عن الأهواء والشهوات، وبعيدة عن تسلط البشر واستعباد بعضهم بعضاً .. وخاصة أن الرسل معصومون من الأهواء والزلل والفواحش.

فالإيمان بالنبوة واتباع منهج الأنبياء يعصم الإنسان من اتباع الأهواء والشهوات.

وفي هذه الفترة المكية عرض القرآن الكريم قضية الرسل والرسالات، فناقش هذه القضية بالتفصيل على أنها جزء من العقيدة، فلا يتم إيمان المرء حتى يؤمن بجميع الأنبياء الذين أشار إليهم القرآن تفصيلاً، وجميع الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن بشكل إجمالي ... كما بين القرآن في هذه الفترة تاريخ الأنبياء الطويل وأنهم جميعاً اتفقوا في الدعوة لتوحيد الله فكانت دعوتهم دعوة التوحيد ..

ثالثاً: الإيمان بالقدر:

أما الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى، فهو ركن من أركان العقيدة الإسلامية .. وفي الواقع أن هذه القضية تتصل بالإيمان بالله تبارك وتعالى، ولكن أفردت وجُعلت من أركان الإيمان لأهميتها البالغة في السلوك والاعتقاد، وللتصور الخاطيء الذي يمكن أن يحصل في أي فترة من التاريخ البشري. فالمشركون قديماً كانوا يحتجون بالقدر على عبادتهم للملائكة بأن الله تبارك

وتعالى يشاء ذلك، فهو عليم سميع قدير فلو شاء منعهم من عبادة هذه الملائكة التي يعبدونها .. فهذا المفهوم الخاطيء والذي يعكس أثره الشيء في السلوك حصل في فترة من الزمن ويمكن أن يحصل في كل وقت، لذلك كان لابد من تصحيح هذا الفهم السقيم .. فالله تبارك وتعالى له مشيئة وأعطى الإنسان مشيئة مستقلة يختار طريقه الذي يمليه عليه تفكيره ومعتقده، ولا تعارض بين مشيئة الله ومشيئة العبد .. ولقد قدر الله على الإنسان أقداراً حسب علمه السابق بالإنسان .. والله تبارك وتعالى يحاسب الإنسان فيما اختاره عن إرادة حرة مطلقة وفيما اكتسبه بإرادته.

وللإيمان بالقدر أثر بالغ في سلوك الإنسان، فمن آمن بقدر الله وعلم أن كل ما يصيبه من الله تبارك وتعالى ليبتليه سواء كان خيرًا أو شرًا – في نظره – فإن سلوكه يكون دائم الصلة بالله تبارك وتعالى في جميع الأحوال على السواء، فلا ينظر لأي قضية من القضايا، ولكنه ينظر لله تبارك وتعالى، فإن أعطي رزقًا شكر واعتبره ابتلاء، وإن منع عن رزق صبر، واعتبره ابتلاء .. وهكذا حال من يؤمن بالقدر خيره وشره.

وقد عرض القرآن الكريم هذه القضايا في هذه الفترة «المكية» فناقش التصور الخاطيء لهذه القضية وعرض التصور الذي يستقيم مع الإيمان بالله وحكمته وعدالته وعلمه الشامل المحيط بكل ذرة من ذرات الكون.

وهكذا نجد أن هذه الفترة قد عرضت فيها أصول العقيدة الإسلامية، العقيدة التي تجرد الإنسان من كل مخلوق لتربطه بالله تبارك وتعالى، الخالق لهذا الكون والمتصرف فيه .. وليكون سلوك الإنسان جميعه في ضوء هذا التفكير وهذا المعتقد، وليكون جميع عمله منصبًا في هذا الإطار.

والقرآن الكريم لم يْدعُ لهذا التصور عن الكون وخالقه وما فيه من إنسان أو حيوان أو جماد، ليكون مجرد تصور صحيح فحسب، بل ليكون تصوراً مؤثراً في سلوك الإنسان .. ولهذا نجد أن القرآن الكريم لا يعرض هذه التصورات عرضاً

يمر عليه مروراً ليصححه، بل إنه يورد جميع الأدلة التي توصل الإنسان لدرجة اليقين. وطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض، وقد حوى كل مخلوق خلقه الله تعالى دليلاً يدل على خالقه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فالقرآن يدعو للنظر في ملكوت السماوات والأرض حتى يوقن بالله تبارك وتعالى .. وقد طلب الله تعالى من رسوله أن يعبده حتى يأتيه اليقين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وفُسِّر اليقين بالموت، لأن الموت لا شك فيه فيؤمن به كل مخلوق.

واليقين هو: الاعتقاد بالشيء اعتقاداً لا يعتريه شك، قال الراغب: (اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم .. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]، أي ما قتلوه قتلاً يتقنوه، إنما حكموا تخميناً ووهماً..)[١].

---

(١) المفردات، ص ٥٥٢.



الفصل الرابع

العقيـــدة في العهـــد المـــدني

المبحث الأول: عقائد المنافقين واليهود والنصارى وأخلاقهم

المبحث الثاني: الإيمان بالله تعالى

المبحث الثالث: الإيمان باليوم الآخر

المبحث الرابع: الإيمان بالملائكة والرسل والكتب والقدر



تمهيـــد

كان العهد المكي عهد بناء العقيدة بكل ما فيها، من نقاش للمشركين لكل ما يحملونه من أفكار وتصورات يشوبها الشرك بالله تعالى سواء كان في ذات الله أو في مخلوقاته التي تصوروا فيها شيئًا من قدرة الله تبارك وتعالى وقاموا بعبادتها .. وقد كان الفرق واضحاً في سلوك المشركين وما تمليه عليهم تصوراتهم وأفكارهم نحو هذه المخلوقات، وفي سلوك المؤمنين وتوحيدهم لله تبارك وتعالى في كل قضية من القضايا سواء كان في تصورهم ومعتقدهم أو في سلوكهم وعواطفهم ..

انتهت الفترة السابقة وكانت طبيعة الحديث تقتضي التطواف في كل ما خلقه الله تبارك وتعالى، وأن كل ما في الكون من مخلوقات إنما هي مخلوقات خلقها الله تبارك وتعالى وهو الذي يتصرف في شؤونها وأن كل مخلوق يسبح بحمد ربه وفيه دلالة على خالقه، لذلك كان القرآن يطوّف بالعقل في السماوات وفي الأرض وفي عالم الغيب الذي لا تدركه الحواس .. انتهت هذه الفترة واستقرت العقيدة في نفوس فئة مؤمنة ترجمت هذه العقيدة إلى واقع حيّ، وصار سلوكهم ومنهج حياتهم مرتبطاً بالقرآن الكريم، فكانوا أفضل ترجمة بواقع القرآن – رغم الطبيعة البشرية لذلك الجيل – ... انتهت تلك الفترة وكانوا قد أعدوا لحمل تلك الأمانة الكبرى التي أبت السماوات والأرض حملها .. وكانت العقيدة قد ترسخت في نفوس الصحابة وصاروا يعرفون معنى توحيد الله تبارك وتعالى تصوراً وسلوكًا ولم يعد شيء من الأرباب والآلهة المزيفة المخلوقة له أثر في نفوسهم، بل كان الله في ذاته وفي صفاته واضحاً في تصورهم وفي سلوكهم كل الوضوح.

وبعدها بدأت الفترة التي تليها – العهد المدني – وهي فترة إقامة شرع الله في الأرض والدفاع عن هذه العقيدة وهذه الشريعة دفاعاً بالكلمة والسيف..

ولما كانت العقيدة هي محور وجود الإنسان وسلوكه، ورغم البناء العقدي في الفترة المكية إلا أن الحديث عن العقيدة لم ينقطع في العهد المدني، بل استمر مطولاً عن هذه العقيدة، وإن كان في أسلوب آخر . . ففي العهد المكي كان عهد بناء العقيدة ذاتها، أما في العهد المدني فكان عهد بناء التشريعات والتنظيمات من خلال هذه العقيدة، بناء لا ينفصل ولا ينفك في أي جزئية من هذه الجزئيات عن العقيدة، لذلك كانت طبيعة الحديث وموضوع الآيات في هذه الفترة هي بناء التشريعات والتنظيمات وإقامة أركان المجتمع الإسلامي من خلال هذه العقيدة – عقيدة التوحيد .

يقول الأستاذ محمد قطب : (تتحدث السور المدنية عن العقيدة . . ولكن حديث العقيدة هنا لا يأخذ المساحة التي كان يأخذها في السور المكية، لأنه هناك كان للتأسيس، وهو هنا للتذكير. لقد تأسست العقيدة بالفعل في فترة التربية العقيدية في مكة، واليوم يقوم مجتمع مسلم ودولة مسلمة في المدينة، تحتاج إلى تنظيمات وتشريعات، وتحتاج إلى جهاد لحمايتها من أعدائها بادئ ذي بدء، ثم لنشر الإسلام في الأرض فيما بعد . ومن ثم يحتل هذان الموضوعان الجديدان معظم المساحة في السور المدنية . التنظيمات والتشريعات، والجهاد في سبيل الله .

ولكن الذي يسترعي النظر أن حديث العقيدة لم ينقطع ليبدأ الحديث عن هذين الموضوعين . بل استمر على ذات النمط المكي – وإن كان في حيز أقل – فتحدث عن الألوهية، واليوم الآخر، والملائكة والكتاب والنبيين والقدر خيره وشره، وقصص الأنبياء، وقصة آدم والشيطان، وأخلاقيات لا إله إلا الله . وتحدث في كل واحد من هذه الموضوعات عن مفرداته جميعًا كما كان يتحدث في مكة . فتحدث في الألوهية عن الكون بضخامته المعجزة ودقته المعجزة، وعن الموت والحياة، وعن حدوث الأحداث وجريانها، وعن الضعف البشري في مقابل القدر التي لا يعجزها شيء، وعن علم الغيب . وتحدث في اليوم الآخر عن البعث والحساب والثواب والعقاب . .

كما أن هناك ما يسترعي النظر أكثر من ذلك: أن الموضوعين الجديدين اللذين استغرقا أكبر مساحة من السور المدنية، وهي التشريعات والتنظيمات، والجهاد في سبيل الله، لم يعالجا كموضوعين قائمين بذاتهما، وإنما عولجا من خلال العقيدة، وابنثاقاً منها!! وهذا هو العنصر الأهم في الموضوع كله! فليس في هذا الدين عقيدة منفصلة وتشريعات وتنظيمات منفصلة! ولا عبادات منفصلة ومعاملات منفصلة! وإنما كله وحدة، وكله «عبادة» بالمعنى الشامل للعبادة، الذي تتضمنه الآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦][(١)].

طبيعة القرآن في العهد المدني وموضوعاته:

كانت طبيعة العهد المكي تقتضي حديثًا مطولاً عن الكون والإنسان والحياة ونظرة القرآن لذلك، وتصحيح المعتقدات الفاسدة عن هذه المخلوقات وعن خالقها ... وحديثاً مطولاً عن المشركين والكافرين ومعتقداتهم.

أما في العهد المدني فالوضع كان مختلفًا كل الاختلاف، فكان في المدينة أهل الكتاب من اليهود، وظهر تيار قوي في المجتمع الإسلامي سمي «مجتمع المنافقين». وبعد انتشار الإسلام وإعلاء رايته ظهرت مشكلة النصارى وحوارهم للنبي ﷺ ورد القرآن الكريم عليهم في أمر معتقداتهم، تجلى ذلك في وفد نصارى نجران ومجادلتهم، ... ثم إن الجهاد قد فرض على المسلمين، حيث ينبغي أن يكون الجهاد في سبيل العقيدة ومن خلالها .. لذلك اقتضت طبيعة المرحلة حديثاً خاصاً عن العقيدة، وأسلوبًا معيناً من خلال طبيعة المرحلة والوضع القائم في مجتمع المدينة، فكانت الآيات في العهد المدني تتحدث في محورها عن هذه القضايا (المنافقون، اليهود، النصارى) ومشاكلهم العقدية وغيرها، وفي نفس الوقت كان البناء التنظيمي والتشريعي لمجتمع المسلمين من خلال العقيدة.

---

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ٢٦٦

المبحث الأول
عقائد المنافقين واليهود والنصارى وأخلاقهم

أولاً: المنافقون

تشير كلمة نَفَقَ إلى معنى المضيّ والنفاذ، ونفق البيع إذا نفذ. والنَفَقَ هو الطريق النافذ والسَّرَب تحت الأرض. وبه سمي المنافقون، فإيمانهم دخل إلى عقولهم وقلوبهم وخرج من مكان آخر ولم يستقر في نفوسهم فلم يؤثر في أعمالهم، وإما من النفق تحت الأرض فظاهره ليس له اتصال بغيره وباطنه متصل بغيره. ولعل الأولى اعتبار صلتهم بأعدائهم كان بينهم وبين أعداء المسلمين نفقاً واتصالاً، فظاهرهم مع المسلمين وباطنهم مع أعدائهم.

والنفاق قد يراد به الإيمان، وقد يراد به العمل. ونفاق الإيمان هو أن يظهر الإنسان الإسلام ويبطن الكفر، أما نفاق العمل فيعمل أعمالهم نتيجة ضعف في شخصيته ولا يقصد صاحبه الولاء للكافرين إنما من باب المعصية. وأكثر حديث القرآن عن المنافقين يقصد به نفاق الإيمان الذي هو إبطان الكفر وإظهار الإيمان، أما نفاق العمل فقد يوجد بين المسلمين، وقد حددها الحديث مبيناً صفات المنافق بأنه إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر، فإن كانت هذه المعاصي قد خرجت من الإنسان نتيجة خبث ومكر وتصميم فهي علامات نفاق الإيمان، وإن كانت نتيجة نقص وضعف فهي علامات نفاق العمل. لذلك وصف القرآن المنافقين بصفات تدل على مكرهم وخبثهم فإيمانهم فارغ وأخلاقهم فاسدة لا يحتكمون إلى شرع الله وعباداتهم فارغة، وإليك بيانها.

[١] فإيمانهم فارغ لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة: ٩].

[٢] وإذا تمت دعوتهم للإيمان والعمل الصالح الحقيقي يعرضون أشد الإعراض ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ [النساء: ٦١]، ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ [المنافقون: ٥].

[٣] إنهم يرغبون في الاحتكام إلى الطاغوت – وهو كل معبود من دون الله من إنس وجن وهوى إنسان وشعارات جاهلية ونحوها – ويعرضون عن الاحتكام إلى شرع الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال: ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴿٤٨﴾ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾

[النور: ٤٨-٤٩].

[٤] والمنافقون ولاؤهم لغير المسلمين ويتربصون بالمسلمين الدوائر ويتآمرون عليهم، قال سبحانه: ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [الحشر: ١١]، وقال: ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ [النساء: ١٤١].

[٥] وصلاتهم خاوية من المعاني الحقيقية يقومون إليها كسالى ويراؤون الناس بها، قال سبحانه: ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء: ١٤٢].

[٦] وإذا أنفقوا شيئًا من أموالهم لا ينفقون إلا وهم كارهون، قال سبحانه: ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ﴿٥٣﴾ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ [التوبة. ٥٣-٥٤].

ثانياً، اليهود:

سمي اليهود بهذا الاسم من قولهم: هدنا إليك، أي تبنا ورجعنا إليك قالوا ذلك لتوبتهم من عبادة العجل، أو نسبة إلى يهوذا بن يعقوب وهو أكبر أولاد يعقوب عليه السلام. أما بنو إسرائيل فنسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام، أي ذرية يعقوب.

وبنو إسرائيل أرسل إليهم موسى عليه السلام ليخرجهم من أرض مصر ويعيدهم إلى الأرض المقدسة – وهي بيت المقدس – ليقوموا بأمر خدمة الدين فينشروه ويحافظوا عليه. ويرجع تاريخهم إلى زمن يوسف عليه السلام الذي استقر هو وأبواه وإخوته في مصر، فتعرضوا لظلم الفراعنة فأرسل الله لهم موسى عليه السلام.

كان فرعون يقتل من وُلد من بني إسرائيل لإخبار الكهنة له أنه يولد منهم ولد يقوض ملكه، فأوحى الله لأمه أن تلقيه في اليم ليصل إلى قصر فرعون وينشأ فيه. شب موسى عليه السلام وقتل قبطيًا ثم خرج فاراً لعلمه بتآمرهم على قتله. فوصل لمدين فوجد ابنتي شعيب لا تزاحمان الرجال لتسقيا من البئر فسقى لهما، وحكت البنتان الأمر لوالدهما شعيب الذي أمّنه فيما بعد وعرض عليه الزواج من إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانية أو عشرة أعوام. فرجع موسى بعدها بأهله إلى مصر. وفي طريقه إلى مصر أمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون يطلب منه أن يرسل معه بنو إسرائيل، فحاور فرعون، واستشار فرعونُ الملأ فأشاروا عليه بجمع السحرة بعد أن ذكر لهم فرعون أن موسى ساحر حيث رأى معجزاته، فاجتمع السحرة وألقى موسى عصاه فالتقفت إفكهم فآمنوا، ثم هددهم فرعون فلم يأبهو لتهديده، وكان ممن آمن امرأة فرعون. خرج موسى مع قومه بني إسرائيل فتبعهم فرعون فانفتح لموسى طريق في البحر وتبعه فرعون فنجا موسى وأغرق الله فرعون ولفظت جثته لتكون عبرة لغيره.

بعد نجاة موسى عليه السلام ومن معه ساروا في الطريق باتجاه الأرض المقدسة فمرّوا بقوم يعبدون أصناماً فطلبوا من موسى أن يجعل لهم آلهة مثلهم، فنهاهم عن

ذلك. ثم ذهب موسى لميقات ربه وأخلف أخاه هارون وذهب لمناجاة الله فطلب أن يرى الله فقال الله له: لن تراني، وبين الله له أنه اصطفاه بالرسالة وأنزل عليه التوراة وأمره بأخذها بقوة. رجع موسى فوجد قومه يعبدون العجل فغضب ولام أخاه في ذلك، لكن أخاه هارون بين له أنهم استضعفوه وكادوا يقتلونه، فطلب موسى منهم أن يتوبوا إلى الله بقتل أنفسهم، أي أن يقتل بعضهم بعضاً، فقتل منهم كثير على ما قيل في شكل القتل. ثم سار بهم ليدخل الأرض المقدسة فاتحين لها لكنهم قالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، فضُرب عليهم التيه أربعين سنة في الصحراء. ومات موسى وأخاه هارون في التيه. ثم أرسل الله لهم نبيًا بعد أربعين سنة أخرجهم من التيه وأدخلهم الأرض المقدسة طالبًا منهم أن يقولوا: حطة، أي حطّ عنا ذنوبنا، فلم يقولوا ذلك وبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزل الله عليهم رجزاً أي عذابًا بسبب فسقهم.

وكان بنو إسرائيل في تلك الأثناء عرضة لغزوات الأمم المجاورة لهم وكانوا إذا خاضوا حربًا مع أعدائهم حملوا تابوت العهد يستنصرون به، وفي التابوت ما بقي من موسى من ألواح التوراة وعصاه وبقايا الأنبياء وآثارهم، فغلبوا وسلب منهم التابوت، فأصابهم ذل كبير. بعدها ذهب أشرافهم لنبي لهم طلبوا منه أن يختار لهم ملكًا يجمعهم ليقاتلوا تحت رايته ويستردوا التابوت، فولى عليهم طالوت فاعترضوا عليه فبين لهم أن الله اصطفاه لهم فاقروا وساروا تحت رايته ليسترد لهم التابوت. سار طالوت بالجنود وأراد أن يختبرهم بالشرب من النهر فلم يثبت منهم إلا قليل. فلما خرجوا لملاقاة جالوت وجنوده لم يستطع الأكثرون من بني إسرائيل الذين شربوا من النهر أن يقاتلوا، وثبت من لم يشرب من النهر فهزموهم بإذن الله وقتل داودُ – الذي كان صغيراً في جيش طالوت وقد أرسله أبوه مع إخوته الثلاثة في جيش طالوت ليرعاهم – جالوت الرجل الضخم الذي هابه بنو إسرائيل فلم يستطع أحد أن يتعرض له بالقتال والمبارزة. فولى

الفلسطينيون الذي كانوا في جيش جالوت هاربين لمقتل جبارهم وتغلب عليهم بنو إسرائيل وتم استرداد التابوت.

وبعد موت طالوت اتخذوا داود ملكًا عليهم فجمع بين النبوة والملك وأقام لهم مملكة ذات شأن، ثم وليه ابنه سليمان عليه السلام الذي أتم بناء المملكة العظيمة.

عقائد اليهود وأخلاقهم:

سجل القرآن الكريم لليهود تاريخاً أسود في غالبه من العقائد والأخلاق منذ خروجهم مع موسى وطلبهم منه أن يجعل لهم آلهة يعبدونهم، ثم عبادتهم العجل وضرب التيه عليهم، وكيفية دخولهم الأرض المقدسة، وتعاملهم مع طالوت، وتحريفهم الكتاب، وقتلهم الأنبياء، ونسبة النقص إلى الله تعالى بشكل لا يقبل تاويلاً، إلى غير ذلك من رذائل استمروا عليها في تاريخ حياتهم حتى بعثة محمد ﷺ ويمكن إجمالها بما يلي:

(١) نسبة النقص إلى الله تعالى:

نسبوا إلى الله تعالى بأنه فقير وأن يداه مغلولة، ويكاد لا يوجد في تاريخ البشرية من ينسب النقص إلى الله تعالى بهذه الصلافة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤] كما قالوا عن الله سبحانه بأنه فقير، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

(٢) موقفهم من الأنبياء:

وهم بين مكذب للأنبياء أو قاتل لهم إذا جاء بما لا تهواه أنفسهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

(٣) قولهم عزير ابن الله:

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، قيل بأن الذين قالوا

ذلك هم فرقة من اليهود، وعن ابن عباس أنه قالها أربعة من أحبارهم: سلام بن مشكم ونعمان بن أبي أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف.

فالذي قالها هم المعتبرون من علمائهم وشاعت هذه المقالة فيما بينهم ولم يصدر منهم إنكار عليها، فكانت بمثابة إقرار من الجميع.

(٤) تحريف التوراة وعدم الاحتكام إليها:

قال تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فنسبوا للتوراة ما ليس منها، وحذفوا صفة النبي ﷺ والبشارة به وأعرضوا عن أحكام التوراة، فماذا بقي منها؟

(٥) نقض العهود:

فلا يمكنهم الثبات على عهد أيًا كان العهد ﴿ **أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٠٠] وهذه الصفة ثابتة لهم. وفي السيرة نقضوا جميع العهود التي عقدوها مع النبي ﷺ حتى تم إجلاؤهم من الجزيرة العربية.

(٦) الربـــــا:

ومن تحريفهم أكل الربا وقد نهوا عنه صريحًا، بل أكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿ **وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ** ﴾ [النساء: ١٦١].

(٧) إنكارهم نبوة محمد ﷺ:

نص القرآن الكريم على وجود صفة النبي محمد ﷺ ومن معه من أصحابه في التوراة والإنجيل فقال سبحانه: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ**

السُّجُود ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

وأهل الكتاب يقيناً كانوا يعرفون صفة النبي محمد ﷺ في كتبهم وبالأخص اليهود كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

واليهود كانوا ينتظرون بعثة محمد ﷺ ويستفتحون على الذين كفروا، أي كانوا يقولون للكفار من الأوس والخزرج: اقترب زمان بعثة نبي يخرج في هذه الأرض فسنكون معه ونقتلكم قتل عاد وإرم. ولما بعث وعرفوه بأوصافه التامة كفروا به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثالثاً: النصارى:

النصارى اسم لأصحاب عيسى عليه السلام حينما قال: من أنصاري إلى الله، فقال الحواريون: نحن أنصار الله، أو نسبة إلى الناصرة التي هي قريتهم، ولعل الأول هو الأولى.

كان عمران أبو مريم رجلاً عظيمًا في بني إسرائيل وكانت امرأته عاقرًا لم ترزق بولد، فالتجأت لله تعالى أن يهبها غلامًا ونذرت إن رزقت بولد أن تهبه ليقوم على طاعة الله وخدمة بيته المقدس. فأجاب الله دعاءها، لكن المولود كان أنثى والبنات عادة لا يصلحن لخدمة المعبد، فتقبلها ربها بقبول حسن وكفلها زكريا، وذلك أن والدها قد توفي وهي صغيرة.

نشأت مريم في كفالة زكريا عليه السلام، وكانت قد اتخذت مكانًا شرقيًا فاتخذت حجابًا يعزلها عن الناس لتعبد الله في المحراب – وهو المكان المخصص للعبادة – وكانت ترزق برزق من عند الله تعالى، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب

وجد عندها رزقًا يسألها من أين لك هذا؟ فتقول: هو من عند الله. وبينما هي كذلك وقد عرفت بالعذراء البتول - أي المنقطعة لعبادة ربها - إذ يأتيها جبريل في صورة بشر فتستعيذ بالرحمن منه، فيبين لها أنه رسول من الله ليهب لها غلامًا ذكيًا أي طاهرًا، فتستغرب من ذلك وأنها لم يمسها بشر ولم تك بغيًا، فيبين لها بأن الله يقول بأنه عليه هيّن وليجعله آية للناس. وقد خلقه الله بهذه الصورة ليكون آية على قدرة الله على خلق أناس من العدم ليدل على خلق الناس وإعادتهم يوم القيامة، وأن مَثَله عند الله كمَثَل آدم في خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. حملت مريم بمولودها كما قال سبحانه: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] وهل النافخ الله أو جبريل بأمر الله فهو محتمل، ولم يرد بيان شكل النفخ في الجيب - وهو فتحة الصدر - أو القميص أو في الفم - والمهم أنها حملت من غير أب، فأجاءها المخاض لجذع النخلة، وتمنت الموت ولم يكن قد حصل لها ما حصل، فناداها جبريل ألا تحزن وأن تهز بجذع النخلة فيتساقط عليها رطباً جنيًا تأكل منه وأن تشرب من جدول الماء وتقرّ عيناً وتترك الأمر لله تعالي وألا تتكلم في شيء وتقول: نذرت للرحمن صوماً.

جاءت مريم قومها بالمولود الجديد، قالوا: لقد جئت شيئًا فريًا أي عظيمًا، وأنت أخت هارون الذي هو أخو موسى أي مثله في العبادة، أو هارون رجل عابد في بني إسرائيل يضرب به المثل، المهم أنها الفتاة الطاهرة المطهرة العابدة الزاهدة، فقال عيسى متكلمًا في المهد: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

نشأ عيسى عليه السلام والناس يعلمون بنبوته، وعلمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل الذين قد بلغ فيهم الضلال مداه، وكانوا قد حرمت عليهم طيبات بسبب ظلمهم، فبعث الله عيسى يدعوهم للتوحيد وعبادة الله وحده ومصدقاً لما ورد في التوراة ومبشراً بمحمد

عليه السلام. لكن زعماء بني إسرائيل الدينيين لم يقبلوا دعوته، وكان له أنصار آمنوا بدعوته، فاستنهضهم عيسى قائلاً: من أنصاري إلى الله، فأجابه الحواريون – وهم أصحابه وتلاميذه قائلين: نحن أنصار الله، فآمنت به طائفة من بني إسرائيل، وقيل: كان الحواريون اثني عشر رجلاً وهم الذين قاموا بالتبشير بدعوته.

أيد الله عيسى بمعجزات لتأييد دعوته، وهي أنه كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً حقيقًا، ويبرىء الأكمه وهو من ولد أعمى وكذا الأبرص، ويحيي الموتى بالنداء أو باللمس وينبيء الناس ما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، يفعل كل ذلك بإذن الله وينسبه إليه، لأن بني إسرائيل كانوا ينكرون مسألة الروح والإيمان باليوم الآخر. أما الحواريون لعلهم وجدوا أنفسهم أمام أناس عتاة في التكبر والفساد، فأرادوا الاطمئنان لدعوة عيسى، فقالوا: هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً وآية من عند الله، فأنزلها الله عليهم مبينًا أن من يكفر بعد ذلك يستحق العذاب الشديد.

اصطدم بنو إسرائيل بعيسى الذي صارت دعوته تنتشر بين الفقراء والضعفاء، فقام زعماؤهم بإغراء الملك الروماني لإصدار أمر بالحكم عليه بالصلب والقتل، فبحث عنه الجنود، وكان من أصحابه رجل منافق وشى به فألقى الله عليه شَبَهَ عيسى فصلبوه وقتلوه، ونص القرآن على أنهم لم يصلبوا عيسى ولم يقتلوه، لكنهم شُبّه لهم ذلك. علمًا أن طوائف من النصارى تنفي عنه الصلب والقتل.

أما نهاية عيسى عليه السلام فيذكر القرآن قول الله لعيسى: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي مستوف أجلك لا أسلط عليك من يقتلك، أو متوفيك بمعنى رادك إليّ، فيحتمل أن الله توفاه في الدنيا ورفع جسمه إلى السماء، أو رفعه الله حيًا إلى السماء. ورفعه إما رفع جسمه أو رفع مكانته. وأنه سينزل في آخر الزمن إما هو حي أو يحييه الله وينزله.

عقائد النصارى وأخلاقهم:

[١] غلا النصارى غلوًا كبيرًا في شأن عيسى ﵇، وحكم عليهم القرآن الكريم بالكفر بذلك، فمنهم من جعله ابن الله ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ومنهم من جعله هو الله، ومنهم من جعله هو وأمه إلهين من دون الله فقالوا بأن الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ويقصدون بالثلاثة: الله وعيسى ومريم. لذلك ينفي القرآن على لسان عيسى أنه قال ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

ووصف القرآن الكريم عيسى ﵇ بأنه عبد أنعم الله عليه، وأنه هو وأمه كانا يأكلان الطعام، فكيف يكون هو الله أو ابنه ويأكل الطعام، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

[٢] نص القرآن الكريم على أن أهل الكتاب من يهود ونصارى حرفوا الكتب وأخفوا كثيرًا منها، والقرآن نص على أن في الإنجيل التنصيص على صفة محمد ﷺ وأصحابه لكنهم أخفوا ذلك وغيروه، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وتحريف النصارى للكتاب إما تحريف معنوي بتغيير مدلولات الألفاظ وترجمتها إلى ما يوافق تحريفهم، أو تحريف لفظي بتبديل أو زيادة أو نقصان. وقد تتبع المحققون في كتب أهل الكتاب فوجدوا فيها الكثير من التحريفات التي

يشهد العقل بداهة أنها بلا شك تحريف، وكشفوا جملة من التناقضات والأغلاط. وقد أورد الشيخ رحمه الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) مائة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي في كتب العهدين القديم والجديد.

[٣] يعتبرون أنفسهم أنهم أحباء الله وأنهم مهتدون ومن لم يكن منهم لا يدخل الجنة، قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة: ١١١]، وقال: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ** ﴾ [المائدة: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ [آل عمران: ٢٤].

[٤] لن يرضوا عن النبي ﷺ وعن المؤمنين إلا باتباع ملتهم: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ** ﴾ [البقرة: ١٢٠].

[٥] الخلاف فيما بينهم شديد وهم فرق كثيرة ولا يمكنهم أن يتوحدوا إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ [المائدة: ١٤].

[٦] امتدح الله بعض أهل الكتاب بتأدية الحق مهما كان، بينما ذم بعضهم بالمماطلة به متعذرين بقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، أي العرب، فاعتبروا أنه لا إشكال في عدم الوفاء مع هؤلاء الأميين استخفافًا بهم، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فهم يفعلونه قاصدين لا جاهلين. والقنطار هو المال الكثير.

[٧] وصف الله اليهود بأنهم مغضوب عليهم والنصارى بالضالين: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]، وفي الحديث أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى.

[٨] وفي المقارنة بين اليهود والنصارى في العداء أن النصارى هم أقرب للمسلمين من اليهود والمشركين، قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٢].

[٩] وصف الله سبحانه النصارى بأن في قلوبهم رأفة ورحمة، لكنهم ابتدعوا رهبانية لم يكتبها عليهم، قال تعالى: ﴿ ... وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

المبحث الثاني
الإيمان بالله تعالى

وقضية الإيمان بالله تعالى هي القضية الرئيسية في القرآن الكريم كله، إذ هدف القرآن الكريم تجريد كل ولاء لغير الله سواء كان في التصور أو في السلوك. وفي هذا العهد تغير أسلوب عرض هذه القضية. وإن كانت لا تزال هي القضية الرئيسية.

وقد لا نجد في السور المدنية حديثًا خاصًا ومطولاً عن الإيمان بالله تبارك وتعالى، ولكن قد نجد حديثًا مقتضبًا من خلال آية أو آيات معدودة تعرض في ثنايا الموضوع المتحدث عنه.

ففي سورة البقرة نجد حديثًا عن صفات الله تبارك وتعالى في آية الكرسي، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي سورة آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧]، وفي سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] .. والملاحظ من هذه الآيات العرض المقتضب الشامل لقضية الألوهية

وصفات الله تبارك وتعالى، وليس الهدف هو عرضها للمناقشة إنما عرضها للإيمان واليقين، لأن النفوس التي أصبحت تتعامل مع القرآن كانت قد قطعت شوطًا طويلاً في الإيمان بالله تعالى والتعامل مع القرآن.

وقد نجد قضايا أكثر تفصيلاً في قضية الألوهية، مثل قضية عيسى وما ثار حوله من جدل ونقاش .. وهذه القضية من قضايا الشرك، ولعل السبب في تأخير عرضها هو طبيعة القرآن في العهد المكي، ونزوله منجمًا حسب الحوادث والأزمان، وذلك أنه لم يكن في مكة نصارى ولم تكن قضيتهم ذات إشكال في ذلك الوقت .. فنجد في هذا العهد الحديث عن قضية عيسى وأنه عبد لله تبارك وتعالى .. ونقاش هذه القضية من عدة أوجه، قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا**﴾ [النساء: ١٧١-١٧٢]. ونجد تفصيلاً لهذه القضية في أكثر من موطن ومناقشة لها مثل أن عيسى مثل آدم عليهما السلام.

ومن قضايا الألوهية التي عرضت في هذا العهد قضية توحيد الله في العبادة واتباع شريعته، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١]، فالقرآن اعتبرهم يعبدون غير الله تعالى في اتباع شرع يخالف شرعه .. وقد فسر النبي ﷺ عبادتهم بأنهم لما أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم[١] .. وقد سبق لهذه القضية أن عرضت في العهد المكي - كالتي عرضت في سورة الأنعام، وكيف كان المشركون يحلون ويحرمون حسب أهوائهم وما تمليه عليه مصلحتهم ويعتبرون

---

(١) انظر سنن الترمذي (٣١٠٤)، كتاب التفسير باب (٩) وقال: حديث غريب.

أن هذا شرع من عند الله تبارك وتعالى، وكانت لهم في الأنعام والأولاد والزروع والثمار أحكام خرافية مرجعها الشرك بالله تعالى.

إن قضية الألوهية إذا لم تعرض بالتفصيل في هذا العهد، لا يعني قلة الحيز الذي تأخذه قضية الألوهية والإيمان بالله تعالى وصفاته وأسمائه، ولكن تغير أسلوب العرض، فلا تكاد تجد آية من ايات التشريع والجهاد تخلو من لفظ الجلالة «الله» . . . بل لا تكاد تجد – إلا في القليل النادر – آية من آيات العهد المدني لا تكون مذيلة بالإيمان بالله وصفاته وأسمائه تبارك وتعالى.

المبحث الثالث
الإيمان باليوم الآخر

والإيمان باليوم الآخر من أهم أركان العقيدة .. وقد لاحظنا كيف كان العهد المكي مفصلاً لقضية الإيمان باليوم الآخر، في كل جزئية من جزئياته .. وقد تجد محور سورة من السور يعرض هذه القضية أو جزءاً منها.

ولما كان للإيمان باليوم الآخر أثره البالغ في حياة الإنسان، فإن الحديث عنه لم ينقطع في العهد المدني، وإن كان قد اختلف أسلوب العرض، فلم يعد عرض قضية اليوم الآخر لإثباته، ولكن تثبيت الإيمان بذلك اليوم حتى يترسخ في اعتقاد المؤمن ويكون له أثره في سلوكه في حياته ..

وقد كان للإيمان باليوم الآخر أثره البالغ في حياة الصحابة الكرام الذين ترجموا القرآن إلى واقع حيّ متجسد في ذلك المجتمع، فتجدهم يندفعون إلى الموت اندفاع الإنسان إلى الحياة، تحفزهم الرغبة إلى الجنة والشوق إلى لقاء الله تبارك وتعالى ونيل رضاه، يقول الأستاذ محمد قطب: (هذا التصوير المبدع لمشاهد القيامة، هو الذي جعل الجيل الأول من المسلمين يعيش بوجدانه في الآخرة وهو يخطو بجسده على الأرض. وأوجد في نفوسهم تلك الحساسية الهائلة في كل تصرف يتصرفونه، خشية أن يحرمهم من النعيم ويؤدي بهم إلى النار .. وهو الذي جعلهم كذلك يعيشون بوجدانهم في الآخرة فيستبطئون خطواتهم على الأرض، شوقًا للقاء الجنة، ولقاء الله .. حتي ليقول أحدهم في ساحة القتال: أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقتل هذا الرجل أو يقتلني؟! ويندفع إلى القتال كأنه ذاهب إلي عرس. ويأخذ آخر تمرات يتقوت بها وهو مقدم على المعركة، ثم يحركه الشوق للقاء الجنة ولقاء الله فيلقي التمرات من يده ويقول: لئن بقيت حتى آكلها إنّ هذا لأمر يطول! .. وكذلك يفعل الإيمان باليوم الآخر

حين يستقر في النفس ويرسخ، فيعيش الإنسان بوجدانه في الآخرة، بينما هو بكل طاقته يعمل في الأرض!)[١].

فبعد استقرار الإيمان باليوم الآخر في نفوس ذلك الجيل، صار مجرد الحديث عن ذلك اليوم يحرك قلوبهم ويحفزهم على العمل شوقًا للقاء الله ونيل رضاه، ورغبة فيما وعدهم به من النعيم المقيم، وخوفاً من عذاب الله تعالى.

إذًا، في العهد المدني لم تعد حاجة للتفصيل في شان اليوم الآخر بل مجرد الإشارة بذلك اليوم .. ومن ثم فإن القرآن يربط موضوعاته الجديدة «التشريع والجهاد» باليوم الآخر، فيبيّن أن من يلتزم بهذه القضايا التي فرضها الله تبارك وتعالى فإن له الأجر العظيم في الآخرة وله جنات عرضها السماوات والأرض، وأن الله تعالى يجنبه العذاب الذي أعده للكافرين ..

ويظهر في هذه الفترة الربط بين الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فيصف المؤمنين بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويصف الكافرين بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويصف المنافقين بأنهم يزعمون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

والذي يظهر من خلال تتبع آيات اليوم الآخر في العهد المدني أنّ القرآن الكريم يعرض قضية اليوم الآخر على أنها دار للثواب والعقاب، وأن الدنيا مزرعة للآخرة، وأن الإنسان سيردّ إلى الآخرة ليجد جزاء عمله، مع الإشارات لإنكار الكفارين لعدم بعثهم، وإثبات القرآن للبعث إثباتًا لا تفصيل فيه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ

(١) دراسات قرآنية، محمد قطب، ص ٨٢ .

فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٧-٩].

وقال تعالى مخوفًا من عذابه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٣-٢٤].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يعرض قضية اليوم الآخر عرضًا غير مفصل، فيشير بإيجاز لقضايا اليوم الآخر ولصور النعيم والعذاب.

المبحث الرابع
بالملائكة والرسل وكتبهم والقضاء والقدر

تعتبر هذه القضايا مكملات للإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وإذا كانت قد أفردت بالحديث فلأهميتها في حياة المسلم ..

وعلى حسب طبيعة القرآن وأسلوبه في عرض العقيدة وتفصيلها في العهد المكي، أما في العهد المدني فإنها عرضت من خلال الحديث عن موضوعات معينة، فإننا نجد القضية واضحة في هذه الموضوعات أيضاً، فلا نجد حديثاً مفصلاً مستقلاً عن هذه القضايا .. بل نجد الحديث عنها بشكل مجمل، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ...﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿... وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٣٦].

أولاً: الإيمان بالملائكة:

وقد عرضت قضية الملائكة في العهد المكي، لاحتمال أن يشوبها شيء من التصور المشرك في أي عصر من العصور، وقد اعتقد فيها المشركون اعتقادات شتى من أنها بنات الله، ثم عبدوها .. فناقش القرآن هذه القضايا ورد افتراءاتهم وتصوراتهم الشركية.

والملائكة مخلوقات، خلقها الله تبارك وتعالى بصفات خاصة، وجعل لهم وظائف من جملتها تأييد المسلمين وتثبيتهم وعنايتهم ورعايتهم، وهذا ما عرضه القرآن الكريم من قضية الملائكة في العهد المدني، لذلك كان الاعتقاد بالملائكة له أثره الواضح في حياة الفرد المؤمن .. وإذا كانت النفوس في العهد المكي قد

تطهرت من إشراك الملائكة بالله في أي صفة من الصفات فإنه لابد من استمرار هذا الإيمان وهذا التصور .. وخاصة أن اليهود - والذين عرضت قضيتهم في العهد المدني - كانوا يعتقدون عداوة جبريل ﷺ .. فكيف ينزل جبريل بالرسالة على محمد ﷺ وهو ليس من نبي إسرائيل؟! لذلك كانوا أعداء لجبريل ﷺ. وقد رد عليهم القرآن الكريم: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

فالملائكة خلقهم تعالى ليقوموا بوظائف معينة .. واستمرار هذا العرض في العهد المدني يؤكد أهمية هذا التصور وضرورة وضوحه في نفس الفرد، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولما طلب منهم السجود لآدم سارعوا ملبين أمر ربهم، ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ...** ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقد عرضت قضية سجود الملائكة لآدم في مواطن متعددة من العهد المدني، وواضح الصلة بين عرض هذه القضية والقضايا المتحدث عنها، ففي سورة البقرة كان هناك حديث مطول عن اليهود وعدم امتثالهم أمر ربهم، فكانوا يخالفون أوامر الله وأوامر رسلهم، لذلك كان عرض قضية سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس للسجود للربط بين اليهود وبين إبليس في رفض أوامر الله تعالى.

والملائكة تعين المؤمنين في قتالهم وتثبتهم في الأزمات، قال تعالى: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فالملائكة تثبت المؤمنين ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾ [الأنفال: ١٢]. ولكن لابد من الإشارة والتذكير بأن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

إذًا، في العهد المدني لم تعرض قضية الملائكة عرض تفصيل ونقاش إنما كان مجرد تذكير بوظائف أعمالهم وما يقومون به. وذلك لاستمرار وضوح التصور

القرآني لقضية الملائكة في نفوس المؤمنين، حتى يصل الأمر بالمؤمن لدرجة اليقين فيترسخ في قرارة نفسه عناية الله به من خلال رعاية الملائكة وحفظها له وتسجيل كل قضية عليه.

ثانياً: الإيمان بالرسل والرسالات:

أما قضية الرسل والرسالات وما جاؤوا به من عند الله تبارك وتعالى لا تزال في العهد المدني ذات شأن خطير وتحتاج إلى وقفة مع المحاربين والمعاندين للرسل لدعواتهم. وإذا كان الأسلوب المكي يقتضي عرضاً معيناً للرسالة والرسل، فإن العهد المدني يقتضي أسلوباً آخر من العرض .. كان أسلوب عرض الرسالة في العهد المكي يقتضي عرض رسالة النبي محمد ﷺ وصدقه، وصدق ما جاء به، وبيان الصلة بينه وبين جميع الأنبياء، إذ دعا جميعُ الرسل إلى رسالة ذات هدف واحد هي رسالة التوحيد، وإن اختلفت بعض الشرائع بشيء من الاختلاف .. أما في العهد المدني فكان المناوئون للرسالة لهم طبيعتهم، والتي أفرزتها الظروف في المدينة فكان اليهود والنصارى والمنافقون، وكان المؤمنون في الطرف المقابل لذلك عرض القرآن الكريم قضية الرسل والرسالة من خلال هذا الواقع والظروف التي كانت تناسبه.

فاليهود والنصارى هم أصحاب كتب سماوية «محرفة» وكانوا يعلمون علم اليقين ببعثة محمد ﷺ كما نصت عليها كتبهم، وكانوا ينتظرون بعثته، كما دلت عليها الوقائع التاريخية، وكما أثبت القرآن الكريم ذلك، قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿**مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ [الصف: ٦] فنجد أن القرآن يعرض هذه القضية في مواطن متعددة.

وقضية عيسى عليه السلام تعرض في هذه المرحلة، وقد نجد فيها شيئًا من التفصيل لصلتها البالغة بالواقع الذي ينزل فيه القرآن في العهد المدني، فيبين القرآن شبه النصارى واليهود حول عيسى، ابتداء من خلقه من غير أب، وانتهاء بشبهة قتله. فيبين حقيقته أنه عبد لله تعالى وكلمته ألقاها إلى مريم: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ**

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [المائدة: ٧٥]، ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧ – ١٥٨].

أما المنافقون، فقد كان للقرآن الكريم وقفة معهم، فهم من أخطر التكتلات ضد الدعوة الإسلامية، ولهذا واجههم القرآن وبين عقيدتهم الباطنة في أمر الرسول وكيدهم نحو الرسالة الجديدة وحاملها، وتظاهرهم بالإيمان بدعوته، قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [الفتح: ١٢].

أما العرض الأكبر فكان لموقف المؤمنين من الرسول ورسالته، لبيان طبيعة الرسول وطبيعة رسالته وأدب المؤمنين مع الرسول ورسالته. ومن أهم القضايا التي عرضت: طاعة الرسول، قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [النساء: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، فالله تبارك وتعالى أمر بطاعة الرسول وبين أنها من طاعة الله، وأن طاعة الرسول فيها الرحمة والفلاح والنجاة ... وبين أن صفة المنافقين الإعراض عن طاعة الرسول: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١] .. ولهذا ينبغي أن نرد أي اختلاف إليه ﷺ: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]، ولهذا كان الرسول أسوة للمؤمنين ينبغي اتباعه ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

كما بين القرآن طبيعة الرسول محمد ﷺ من أنه خاتم النبيين، أي كانت له

تلك الصفة بوصفه رسول الله وخاتم النبيين وليس بوصفه أبًا لأحد من الرجال ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الاحزاب: ٤٠].

وبين القرآن الكريم أدب المؤمنين مع الرسول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ [الحجرات: ٣] وبين جزاء عصيان ومشاقة الرسول وإيذاءه ...

وخلاصة القول في ذلك: أن القرآن الكريم قد عرض قضية الرسالة والرسول عرضًا مطولاً وبين طبيعة الرسالة والرسول، وما ينبغي أن يكون موقف المؤمنين منه، وذلك بسبب الأهمية البالغة في حياة الفرد وسلوكه ..

وأما الكتب السماوية، فقد تحدث القرآن عن القرآن نفسه وموقف كل فريق منه، فمنهم من آمن وسلم بما فيه وهم المؤمنون، ومنهم من رفض التسليم لكتاب الله مع تظاهره بالامتثال لأمر الله، وهم المنافقون، ومنهم من تحايل على الكتاب ورفضه رفضًا قاطعًا رغم أنه مصدق لما معهم، وهم اليهود .. فأما القرآن بالنسبة للمؤمنين فهو هدىً وبشرى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥] .. وأن المؤمنين يزدادون إيمانًا بكتاب الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].. أما المنافقون، فإن موقفهم من القرآن الكريم موقف الريبة والشك، فيزدادون رجسًا إلى رجسهم، ولا يحتكمون لكتاب الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

كما بين تبارك وتعالى أن في القرآن المحكم والمتشابه، والمحكم: هو الذي لا لبس فيه ولا غموض، أما المتشابه: فهو الذي اشتبه تأويله وما يعلم حقيقة تأويله

إلا الله تعالى. . .[١]، ولهذا نجد أن المنافقين يتبعون ما تشابه من القرآن بقصد الفتنة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾

[آل عمران: ٧].

. . أما اليهود، فكان للقرآن معهم وقفة طويلة، فكانوا يعلمون حقيقة العلم أنه سيبعث نبي في أرض كذا وكذا، وكان ذلك في كتبهم، فلما بعث النبي كفروا به وبالقرآن الذي أنزل عليه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾

[البقرة: ٨٩-٩١].

وأما التوراة والإنجيل فقد تحدث القرآن عنهما وعن تحريفهما، وأن أهل الكتاب عدلوا عن اتباع حتى الذي كان موجوداً عندهم في التوراة والإنجيل. بينما كان الحديث في العهد المكي عن البشارة بسيدنا محمد ﷺ. ففي العهد المكي: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، بينما تركز الحديث في العهد المدني على تحريف تلك الكتب، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ....﴾ [المائدة: ١٣-١٥].

---

(١) قضية العلم بتأويل المتشابه ذات خلاف، حيث يرى البعض أنه لا يعلم تأويلها إلا الله، ويرى آخرون بأن العلماء يعلمونه.

ثالثاً: الإيمان بالقدر:

وأما قضية «القضاء والقدر» فلا يزال الحديث عنها مطولاً في العهد المدني، وذلك أن كل قضية وكل مخلوق تسيران بأمر الله تبارك وتعالى. فالقضايا الرئيسية في عقيدة القضاء والقدر كالرزق والهداية والأجل، كلها تجري بأمر الله كما يشاء الله تبارك وتعالى وأن لله تعالى مشيئة تجري الأمور حسبها، وقد أعطى الإنسان إرادة مستقلة ليختبره فيها، وأن ما يصيب الإنسان من مصائب إنما هو بإرادة الله ليختبره في ذلك، وأن لكل شيء فيه حكمة ...

فالهداية بيد الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومعنى أنه يضل من يشاء: أنه يتركهم لكفرهم وفسقهم، وليس معناه أنهم أرادوا الهداية فمنعهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فعدم الهداية كان بسبب أنفسهم فلما كفروا وزاغوا أعرض الله عنهم .. إلا أن الله تبارك وتعالى جعل وسائل الهداية مبثوثة في الآفاق يراها كل عاقل، ويتوصل إليه من يريد.

وما يصيب الإنسان من أذى إنما هو بعلم الله وحكمته وإرادته، وأن ما يسميه الإنسان خيراً أو شراً إنما هو بسبب ما يعود عليه نفسه من نفع أو ضر، ولكنّ أنواع الابتلاءات التي يصاب بها المؤمن إنما هي لاختباره وتمحيصه ليزداد بذلك إيماناً ويزداد أجراً على المصيبة. فالفقر والمرض وغيرها ابتلاءات يبتلي الله بها المؤمنين ليعلم الصابرين منهم، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فالقرآن الكريم في العهد المدني يركز على قضية القضاء والقدر، لما لها من أثر بالغ في سلوك الفرد في حياته، ولما لها من أثر في توضيح التصور الإيماني الصحيح.

وهكذا نجد أن العهد المدني قد تحدث عن أركان العقيدة التي تحدث عنها

العهد المكي، وإنما كان الفرق بينهما في أسلوب العرض من جهة، وليتناسب مع الواقع الذي رافق نزول القرآن الكريم.

كما أن العهد المدني تعتبر قضاياه تكملة للعهد المكي، فأركان الإيمان هي ذاتها: الإيمان بالله، والملائكة، والرسل والكتب، واليوم الآخر، والقضاء والقدر. وإن كان القضاء والقدر لم يذكر في القرآن على أنه ركن من أركان الإيمان، إنما هو يندرج تحت ركن الإيمان بالله، لكن إفراده بالذكر لأهميته في حياة المؤمن، ولما يمكن أن يكون سبباً في ضلال الكثيرين.

الفصل الخامس

أصناف المخلوقات وعلاقة الإنسان بها

المبحث الأول: الكــون

المبحث الثاني: الملائكة

المبحث الثالث: الجــن

المبحث الرابع: الإنسـان

المبحث الخامس: علاقة الإنسان بالمخلوقات

تمهيد

أشار القرآن الكريم إلى أصناف المخلوقات التي خلقها الله سبحانه وتعالى وبين صفات كل مخلوق ودوره في هذه الحياة الدنيا.

فالكون بما فيه من سماوات وأرض وحيوان ونبات جعل الله لها دوراً في الحياة، وهذه المخلوقات تجمعها قضية الدينونة والخضوع لله سبحانه وتعالى، فهي مؤمنة مسبحة بحمد الله جل شأنه، وقد اختبرها الله سبحانه الاختبار الأكبر حيث قال سبحانه: ﴿**فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ [فصلت: ١١]، فجعلها سبحانه بصفات تجعلها مسخرة للإنسان.

والملائكة من أهم صفاتها أنها تسبح الله وتذكره وتنفذ أمره ولا تعصيه ما أمرها، وقد اختبرها الله سبحانه الاختبار الأكبر حيث أمرها بالسجود لآدم فسجد جميعهم دون استثناء، لكنهم كانوا قد استغربوا أن يجعل الله له خليفة في الأرض صنفًا سيخلقه من جملة صفاته أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، لكنه سبحانه بيّن لهم الصفة التي أهلته لذلك وهي صفة العلم والتي أداتها العقل.

أما **الجن** فخلقهم الله سبحانه بصفات معينة، وكان إبليس طائعًا لله كالملائكة، لكنه لما أمره بالسجود امتنع عن ذلك، ثم ذكر سبب امتناعه بأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين، وأصر على ذلك، وطرد من الجنة، ثم يعطيه الله القدرة على إغواء بني آدم، فدوره في حياة الإنسان الوسوسة والإغواء.

أما **الإنسان** فميزه الله من بين سائر المخلوقات وجعله سيد هذا الكون، وسخر له الكون بما فيه، وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له. ثم إن الله سبحانه امتحنه الامتحان الأكبر حيث حذره ونهاه أن يأكل من شجرة وأباح له الأكل من شجر الجنة، لكن الشيطان بقي يوسوس له حتى أوقعه في ذلك. وقد أخبر القرآن بأن

آدم نسي ولم يكن له عزم على المعصية وكان هذا خطأ منه، إلا أنه تدارك هذا الخطأ بالاستغفار.

وعليه، فالإنسان سيد هذا الكون، والكون مسخر للإنسان، والملائكة تنفذ أمر الله، أما إبليس وأعوانه فهم العدو الأول للإنسان، وأن على الإنسان أن يتخذ الشيطان عدواً له بالحذر من كيده معتمداً على هداية الله ومتبعاً للرسل.

وهذا محور من أهم محاور القرآن حيث يبين علاقة الإنسان بالمخلوقات، ثم إن هذه المخلوقات لها دور في الحياة ولا يمكن أن تكون معبودة من دون الله، وهو وحده سبحانه المعبود.

وهذا ما يبينه هذا الفصل.

المبحث الأول
الكــون

الكون بما فيه من سماوات وأرض وجبال وحجر وشجر وحيوان، من أكبر جرم حتى أدنى ذرة صغيرة فيه مخلوقات مؤمنة موحدة مسبحة لله سبحانه وتعالى تشهد له بالوحدانية.

فعندما خلق الله سبحانه السماوات والأرض اختبرها اختبارًا عامًا؛ حيث أمرها بالخضوع له سبحانه طوعًا أو كرهًا، فقالتا: أتينا طائعين، فخضعت لأمره سبحانه طائعة له، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

فالكون مؤمن موحد طائع لله سبحانه وتعالى. وقد ذكر القرآن الكريم بعضًا من نماذج عبودية هذه المخلوقات لله سبحانه.

فقد بين سبحانه وتعالى أن كل شيء في هذا الكون يسبح بحمده، حيث قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. والتسبيح تنزيه الله سبحانه وتعالى.

والرعد يسبح بحمده سبحانه: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

والجبال مخلوقات جامدة تسبح بحمده ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وهي مع صلابتها وقساوتها يمكن أن تتفتت وتتهدّ من خشية الله ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..﴾ [البقرة: ٧٤]، بل إن الجبال تكاد تخر إلى الأرض مهدودة تتفتت من هول ما تسمع من هذا الإنسان وجحوده ونكرانه وشركه بالله سبحانه كما قال جل شأنه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١-٩٢]. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن**»[١] ومنه تسبيح الحصى في كفه، ﷺ.

وقد حاول البعض أن يؤوّل ذلك تأويلاً عقليًا حيث ذهب إلى أن التسبيح إنما هو تسبيح دلالة، أي أراد استبعاد نطق هذه المخلوقات بالتسبيح لله سبحانه، لكن النص القرآني يشير لخلاف ذلك، فلما قال سبحانه: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أشار إلى أنه أمر لا تدركه العقول قال الراغب الأصفهاني: (فذلك يقتضي أن يكون تسبيحًا على الحقيقة وسجودًا له على وجه لا نفقهه، بدلالة قوله: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾)[٢].

وأما الشجر والنبات فهو من جملة المخلوقات المؤمنة الموحدة التي تخضع لأمر الله مسبحة ساجدة له كالمؤمن الطائع العابد لله سبحانه، قال سبحانه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨-٤٩]، روي البخاري عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - أو رجل -: يا رسول الله ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: «**إن شئتم**» فجعلوا له منبرًا. فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياحَ الصبيّ، ثم نزل النبيُّ ﷺ فضمه إليه، تئن أنين الصبي الذي يُسَكَّنُ. قال: «**كانت تبكي على ما**

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل رقم (٢).

(٢) المفردات: ص ٢٢١.

كانت تسمع من الذكر عندها»[١] وروى البخاري من حديث علقمة عن عبد الله قال: ... ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[٢].

ولا يعدو أن يكون الحيوان صنفًا من المخلوقات المسبحة الموحدة لله سبحانه وتعالى، فهذا هدهد سيدنا سليمان عليه السلام يتعجب أشد العجب من مخلوق يسجد للشمس من دون الله، قال سبحانه حاكيًا عن الهدهد قوله: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [النمل: ٢٣-٢٦].

فالكون بكل ما فيه خاضع لله سبحانه شاهد له بالوحدانية مسبح ساجد له. ولهذا الشعور أثره الكبير على نفسية الإنسان وشعوره حينما يعلم أن كل ذرة صغيرة في هذا الكون والسماوات والأجرام والأرض بما فيها خضعت لله سبحانه، إنه حينما يتوجه إلى الله سبحانه ويحس بأن الكون بما فيه يتوجه إلى الله يشعر بانه مخلوق مثل بقية المخلوقات يسير في الركب، أما الإنسان الجاحد فإنه كالذي يسبح معاكسًا للتيار، يسبح ويُجْهد نفسه فإذا به إما تراجع للخلف أو لازال مكانه يقول سيد قطب: (وإنه لمشهد كوني فريد، حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر، كل حبة وكل ورقة، كل زهرة وكل ثمرة، كل نبتة وكل شجرة، كل حشرة وكل زاحفة، كل حيوان وكل إنسان، وكل دابة على الأرض وكل سابحة في الماء والهواء .. ومعها سكان السماء .. كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه .. وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح، ويتوجه بالتسبيح، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى وتدرك من أسرار هذا ما لا يدركه الغافلون؛ الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا

---

(١) رواه البخاري (٣٥٨٤). (٢) البخاري (٣٥٧٩).

الوجود)[١]. ويقول أيضًا: (إنها إيماءة عجيبة إلى انقياد هذاالكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته. فليس هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرهًا في أغلب الأحيان، إنه خاضع لهذا الناموس لا يملك أن يخرج عنه، وهو ترس صغير جدًا في عجلة الكون الهائلة والقوانينُ الكونية الكلية تسري عليه رضي أم كره. ولكنه هو وحده الذي لا ينقاد طائعًا طاعة الأرض والسماء. إنما يحاول أن يتفلت وينجرف عن المجرى الهيّن الليّن، فيصطدم بالنواميس التي لابد أن تغلبه – وقد تحطمه وتسحقه – فيستسلم خاضعًا غير طائع. إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم .. تصطلح كلها مع النواميس الكلية، فتأتي طائعة وتسير هينة لينة مع عجلة الكون الهائلة، متجهة إلى ربها مع الموكب، متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب وتأتي بالخوارق؛ لأنها مصطلحة مع الناموس، مستمدة من قوته الهائلة، وهي منه وهو مشتمل عليه في الطريق إلى الله «طائعين». إننا نخضع كرهًا فليتنا نخضع طوعًا. ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء، في رضًى وفي فرح باللقاء مع الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين)[٢].

وبعد، فهذا هو التصور القرآني للكون إنه بأعظم جرم فيه وأدنى ذرة صغيرة خاضع لله مؤمن مسبح موحد ساجد له. ولقد ضل في التاريخ أقوام وأفرد في فهم هذا الكون وصلته بخالقه وصلة الإنسان به، حتى وصل الأمر بهم إلى خرافات أثرت في حياتهم وسلوكهم.

فالبعض تصور أن هذه المخلوقات والأجرام لكونها الأثر المباشر في نفع معين أنها هي مصدر النفع وبالتالي أوصله الأمر لعبادتها. ولقد ذكر لنا القرآن الكريم بعض الصور من عبادة بعض المظاهر الكونية. فهذه ملكة سبأ يحكي القرآن عنها

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤ / ٢٢٣١).
(٢) المصدر السابق (٥ / ٣١١٤).

وعن قومها أنها كانت تسجد للشمس من دون الله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]، وحكى عن المشركين نسبة الموت إلى الدهر: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ..﴾ [الجاثية: ٢٤]، (وقد كان من العرب من يعبد الأجرام السماوية ولا سيما الشمس والقمر، وكانوا يسمون الشمس «الإلاهة» .. والطوطمية كان لها حظ عند العرب في الجاهلية – والطوطمية تعني: اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرهم مقدسة، ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو أكلها. وتشمل الطوطمية النباتات كذلك، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدسها قطعها. ويؤلف المعتقدون بالطوطم جماعة تشعر بوجود روابط دموية بين أفرادها وبين «الطوطم» الذي هو حاميها والمدافع عنها – وقد تسمت بعض البطون والعشائر بأسماء بعض الحيوانات مثل: كلب، وذئب، ودب، ونسر، وثعلب، وهر، وبطة، وثور .. يضاف إلى ذلك أسماء أشجار ونباتات أخرى)[١] .. كما وجد في التاريخ من عبد النار، وبعضهم عبد العجل، وبعضهم يعبد جنس البقر ..

لذلك يأتي القرآن الكريم ليبين لنا أن هذه المخلوقات كلها عابدة لله مطيعة له ساجدة مسبحة بحمده فلا تستحق شيئًا من العبادة، بل الله وحده هو الذي يستحق العبادة، وأن أي تصور لأي نفع إنما مصدره من الله لا من هذه المخلوقات.

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف طبارة، ص ٩٢ .

المبحث الثاني
الملائكة

الملائكة صنف من المخلوقات خلقهم الله سبحانه من نور كما قال ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[١].

والملائكة من أهم صفاتهم أنهم ينفذون أمر الله ولا يعصونه في شيء، كما قال جل شأنه: ﴿ ... **بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿ .. **عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦].

وقد اختبر الله سبحانه الملائكة في أمر سجودهم لآدم فسارع جميعهم للسجود؛ لم يتخلف منهم أحد. وكانت قضية الأمر بالسجود هذه بعد أن أخبر الله سبحانه الملائكة بأنه سيجعل له خليفة في الأرض، ومن جملة صفات هذا الخليفة أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فتعجب الملائكةُ مستغربين كيف يجعل الله له خليفة ومن جملة صفاته ذلك، وهم يسبحونه وينزهونه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم ما لا يعلمون. ثم بين لهم حكمة اختيار هذا الخليفة وصفته الأساسية التي أهلته لتحمل الخلافة وهي صفة العلم، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم**

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد حديث رقم (٦٠).

بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (٣٣) وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٤].

ولما كانت الملائكة ذات طبيعة معينة خارقة لعادة البشر، حمل البعض على عبادتها، لكن القرآن بين أنها لا تستحق العبادة وأنها مخلوقات تنفذ أمر الله وتعبده وتطيعه وتسبح بحمده، بل إنها تستنكر من يعبدها. فقد نفى القرآن أن يأمر أحدٌ بعبادتها كما قال تعالى: ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [آل عمران: ٨٠]، كما استنكر الملائكةُ أنفسهم أن يستحق أحدهم العبادة، كما قال جل شأنه: ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٤٠) قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، وقد جعل المشركون الملائكة بنات ونسبوها لله، فنفى القرآن هذا الزعم ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ﴾ [النجم: ٢٧]، ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف: ١٩].

المبحث الثالث
الجـــــن

تحدث القرآن الكريم عن الجن على أنه عالم غيبي غير محسوس للإنسان ولهم طبائع معينة. وخلاصة القول فيهم أنهم مكلفون وسيحاسبون كالإنسان، لكن بعض البشر أخذ عنهم بعض التصورات الخاطئة مما جعل البعض يستعين بالجن ويعبدهم. وقد ذكر القرآن الكريم صفات الجن وطبيعتهم وهذه أهمها:

- أنهم مخلوقون من مارج من نار، ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] - أي من أخلاط نار صافية.
- كما أنهم خلقوا للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
- وهم لا يعلمون الغيب: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].
- ومنهم الصالحون ومنهم الطالحون: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].
- ومنهم الدعاة إلى الله، ومنهم الدعاة إلى السوء والشر: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ..﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].
- وهم مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة، وذات إرادة واختيار، فهم مكلفون بالإيمان

والعبادة، منهيون عن الكفر والمعاصي، إذ كثير من خطابات التكليف والتحدي تشمل الإنس والجن، وسيحاسبون على أعمالهم:

[أ] قال تعالى في شأن حسابهم: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

[ب] وقال تعالى في شأن شمولهم بالتحدي: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

- ومن صفاتهم أنهم يرونا ولا نراهم – وهذا في الحالات المعتادة ولا يمنع من رؤيتهم بشروط خاصة – قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].
- وللجان قدرات كبيرة ومهارات صناعية، فقد سخرهم الله سبحانه لخدمة سليمان يصنعون له ما يشاء: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٦-٣٧]، ولما طلب سليمان عليه السلام الإتيان بعرش بلقيس: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].

وللجن طبائع أخرى أشارت إليها نصوص السنة كالتشكل بالأشكال الجسمية التي يمكن أن نراها بحسب استعداداتنا البشرية.

والشيطان إذا أطلق فيراد به إبليس الذي أغوى آدم عليه السلام، كما قد يراد به كل من كان من حزبه، فإبليس أبو الشياطين وأصلهم الأول.

وإبليس خلقه الله سبحانه من مارج من نار أي من خالص اللهب، وهذه الإشارة إلى أصل الخلقة تشير إلى طبيعة هذا المخلوق الناري التي تبعثه على التمرد والغواية، وقد أشارت النصوص القرآنية إلى استجابة أمر الله بالنسبة للملائكة وامتناع إبليس وحده الذي اعتد بخلقه حيث قال: خلقتني من نار

وخلقته من طين. وذكْره مع الملائكة لكونه كان حاضراً فشهد الأمر بالسجود، وتلقى الأمر بالسجود كما تلقته الملائكة، وليس لكونه منهم. قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠-٤٣].

فأصل الخلقة تشير إلى الطبيعة المادية لهذا المخلوق الذي يغلب عليه التمرد والغواية وهو قد يؤثر على الإنسان ويغلب تأثيره على الوسوسة، وقد سماه القرآن الوسواس الخناس. وقد اتخذ سبيله في إغواء بني آدم وقد أذن الله له في ذلك وأعطاه القدرة عليه. وقد أخبر القرآن أن كيد الشيطان ضعيف لكون تأثيره على الذين اتخذوه أولياء، قال تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

كانت هذه طبيعة الجن بشكل عام وإبليس بشكل خاص. وكم يعجب المرء حينما يجد أن قوماً من البشر عبدوا الجن كما حكى القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ... ﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]. قال القرطبي في قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾: نزلت في مشركي العرب. ومعنى إشراكهم بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عز وجل .. وقال الكلبي: نزلت في الزنادقة، قالوا: إن الله وإبليس أخوان؛ فالله خالق الناس والدواب، وإبليسُ خالق الجان والسباع والعقارب. ويقرب من هذا قول المجوس،

فإنهم قالوا: للعالم صانعان: إله قديم، والثاني شيطان حادث من فكرة الإله القديم؛ وزعموا أن صانع الشرع حادث. وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد بن حائط، زعموا أن للعالم صانعين: الإله القديم، والآخر محدث؛ خلقه الله عز وجل أولاً ثم فوض إليه تدبير العالم وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة)[١]، وقال الألوسي: (ومعنى جعلهم شركاء أنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى، أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم)[٢].

وفي قوله تعالى فيما يحكيه من قول الملائكة: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ..﴾ قال ابن كثير: (يعنون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم)[٣]، وقال القرطبي: (﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ..﴾ أي يطيعون إبليس وأعوانه. وفي التفاسير: أن حيًا يقال لهم بنو مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم وأنهم ملائكة وأنهم بنات الله؛ وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ...﴾، وقال الألوسي: (﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ..﴾ أي الشياطين كما رُوي عن مجاهد حيث كانوا يطيعونهم فيما يسوّلون لهم من عبادة غير الله تعالى، وقيل: صورت الشياطين لهم صور قوم من الجن وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها فعبدوها .. وقال ابن عطية: يجوز أن يكون في الأمم الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن آيات يظهر منها أن الجن عُبدت في سورة الأنعام وغيرها)[٤].

وقال تعالى حاكيًا عن الجن قولهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦]، قال القرطبي: (والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بواد: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه؛ فيبيت في جواره حتى يصبح؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما)[٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد الأنصاري، المعروف بالقرطبي، (٧/٥٣)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة عام ١٩٨٥م.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لمحمود الألوسي (٧/٢٤١) دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(٣) القرطبي (١٤/٣٩).

(٤) روح المعاني للألوسي (٢٢/١٥١).

(٥) القرطبي (١٩/١٠).

وعليه فقد وجد أقوام يعبدون الجن باتباع ما سولت لهم أو الاستعانة والاستعاذة بهم وقد قال إبراهيم لأبيه: ﴿ **يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٤]، أي أن عبادتك للأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الذي يسولها لك ويغريك به[1]. والقرآن الكريم يذكر أن الجن مخلوقات لا تملك من أمرها شيئًا، وإن كان لها من قدرة فبتسليط الله لها على الإنسان للابتلاء وأنها محاسبة، ومن عصى منها وكفر فإنه يكون لجهنم حطبًا، فهي لا تملك غيبًا ولا شيئًا إلا ما أذن الله لها أن تعلمه، وبالتالي لا يمكن لأي عاقل أن يتوجه إليها بالعبادة ولا بالاستعانة ولا نحوها.

بل إن الشيطان نفسه يتبرأ من كفر الإنسان بعد أن يغويه ويوقعه في الكفر، كما قال تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الحشر: ١٦].

---

(١) روح المعاني (١٦/٩٧).

المبحث الرابع
الإنســــــان

سبقت الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى أخبر الملائكة بأنه سيستخلف خلقًا سيخلقه وله صفات ومن جملة صفاته أنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فتعجب الملائكة من ذلك ويقولون: ﴿ .. قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، لكن الله سبحانه بيّنَ لهم ما ميز به هذا المخلوق الذي أهّله لذلك حيث ميزه بالعلم، فلما علّم آدم الأسماء وعرضهم على الملائكة بينوا أنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله سبحانه وتعالى.

والقرآن الكريم يشير إلى طبيعة خلق الإنسان حيث خلقه سبحانه من تراب، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩]، والصلصال: الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة إذا نقر، وفي آية أخري: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: ١٤]، والحمأ: الطين الذي تغير واسودّ بطول مجاورة الماء، والمسنون: المتغير أي المنتن، ولعل كلمة الحمأ إشارة إلى تغير اللون والمسنون إشارة إلى تغير الرائحة، والله أعلم. وعليه فإن أصل خلق الإنسان من طين متغير منتن، وهذه الصفة والطبيعة الأولى للإنسان، وفيه إشارة لتفاهة هذا الإنسان لولا تكريم الله له بنفخته الروحية. فهذا هو الإنسان الأول أما الإنسان الذي تناسل من آدم عليه السلام فيشير القرآن أيضاً إلى كيفية تخلقه، يقول تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق: ٥-٧]، ويقول سبحانه: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس: ١٧-٢٠].

أما الطبيعة الثانية للإنسان حيث كرمه الله سبحانه تكريمًا يجعله سيد هذا الكون ويصبح قادراً على حمل الأمانة الكبرى - أمانة الاستخلاف في الأرض - وعمارة هذه الأرض ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ.. ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فالإنسان مهما بلغت مرتبته من السموّ، ومهما اتصف من صفات نادرة، فليس ذلك نابعاً من ذاته ولا هو اكتسبه بجهده وطاقته، إنما جاءه فيضاً من الله سبحانه. أما تكوينه الذاتي فهو مخلوق من تراب تافه ومن ماء مهين، وهو مخلوق عاجز أطبقت عليه آصار العبودية لله سبحانه وتعالى الذي بيده الخلق والتدبير. لكن الله سبحانه لما اختاره لعمارة هذه الأرض، وكلفه بتأليف أسرة إنسانية تقيم حياتها على منهج الشريعة الربانية جهزه بملكات نادرة وميزه بصفات سامية لم توجد في غيره، فأورثه العقل والتفكير، وسخر له ما في السماوات والأرض وأمده بالطاقة والقوة ليقوم بهذه المهمة[١].

فالميزة الأساسية التي ميز الله بها الإنسان هي العقل الذي هو أداة العلم. والقرآن الكريم يؤكد كثيراً على قضية العقل، ويجعل الذين يتعظون ويعتبرون بأنهم هم الذين يعقلون، أما الكافرون والمشركون والمنافقون فيصفهم بأنهم لا يعقلون. لكن العقل محدود بإطار ما يصله من معلومات عن طريق الحواس فلا

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، للبوطي، ص ٤٩ .

يستطيع الحكم على العالم الغيبي، والحواسُّ قد تخدع في عملها، وبالتالي فالعقل قد يخدع في عمله .. ولهذا فإن الله امتن على الإنسان بأن وهبه من روحه فنفخ فيه تلك النفخة الروحانية بحيث يستطيع أن يتصل بالله تبارك وتعالى ويستمد منه – عن طريق الرسل – أسباب حياته المادية والروحية، فوهبه هذا العقل ليتمكن من تلقي تشريع الله، حيث لا يمكن للعقل إنشاء تشريع تتم فيه الطمأنينة للإنسان ... أما حينما يستقل العقل بنفسه بعيداً عن الوحي فلابد أن يتعرض للضلال والانحراف ونقص الرؤية وسوء التقدير والتدبير.

والقرآن الكريم يشير إلى الهدف من خلق الإنسان وهو تحقيق معنى العبودية كما قال سبحانه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهذه الصيغة – صيغة النفي والاستثناء – تفيد القصر أي مهمته الأساسية في ذلك ... وهذا لا يتنافى مع مهمة الاستخلاف وعمارة الأرض كما قال سبحانه: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ [هود: ٦١]، أي أمركم بإعمارها ... لأن مفهوم العبادة يعني كل عمل نافع يبتغي به الإنسان وجه الله تعالى، وليست العبادة تقتصر على الركوع والسجود والصوم ونحوه، بل كل عمل نافع يسمى عبادة، كما ورد في حديث أنس عند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل**»[١] وعليه فإن عمارة الأرض جزء من عبادة الله سبحانه وتعالى.

والإنسان من أهم صفاته أنه مركب على الخطأ وغير معصوم، فلما كانت طبيعته المادية والروحية تتجاذبه فقد تتغلب إحدى الطبيعتين على الأخرى فيغلب عليه جانب الخير أو جانب الشر كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**﴾ [الإنسان: ٣]، وهذا بشكل عام، ولكن الإنسان مهما غلب عليه الجانب الروحي فإن النقص يلازمه والخطأ والمعصية لا يمكن للإنسان أيًا كان أن يتجنبهما مطلقًا، فالإنسان غير معصوم أبداً، والعصمة المطلقة من الخطأ لله

(١) رواه أحمد (٣/ ١٩١).

وحده ... والأنبياء عليهم الصلاة والسلام رغم عناية الله بهم بقيت صفة البشرية تلازمهم وكذا صفة الخطأ، وهم مع عصمتهم كان الخطأ يلازمهم أحيانًا الدلالة على بشريتهم. وعصمةُ الأنبياء ليست من كل معصية، إنما هي عصمة من كبائر الذنوب وما يُخل بشرف النبوة. والقرآن الكريم أشار لأخطاء وقع فيها الأنبياء ثم صححها، فآدمُ عليه السلام عصى ربه ثم استغفر، قال تعالى: ﴿ ... **وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]، ونوح عليه السلام يقع في خطأ فتدركه العناية الإلهية فيسارع للعودة، فحينما ينفصل عنه ابنه ولا يركب معه في السفينة ويدركه الغرق فيقول نوح عليه السلام وكما حكى القرآن عنه: ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [هود: ٤٥-٤٦]، وإبراهيم يَعِدُ أباه بالاستغفار له رغم إصراره على الشرك: ﴿ **قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾ [مريم: ٤٧]، علمًا أنه لم يستغفر له ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾ [التوبة: ١١٤]، ومحمد ﷺ يعاتبه الله سبحانه في أكثر من موطن كما في شأن الأعمى ابن أم مكتوم: ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ** ﴾ [عبس: ١-٣]، وكذا في شأن أسرى بدر وغيرها، والرسول ﷺ يبين طبيعة الإنسان في الخطأ والمعصية، فيقول: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»[(١)] ويقول: «**والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم**»[(٢)].

فإذا عرفنا تفاهة الأصل الذي خلق منه الإنسان: من تراب منتن ومن ماء مهين؛ فهو مخلوق تافه لولا تكريم الله له بتلك النفخة الروحانية التي أهلته للاتصال بالملأ الأعلى، وإذا عرفنا أن الله ميز الإنسان بالعقل؛ إلا أن العقل قاصر

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٤/ ٢٤٤)، والدارمي (٢/ ٣٠٣).
(٢) رواه مسلم في التوبة رقم (١١)، وأحمد (٢/ ٣٠٩).

عن إدراك عالم الغيب بل عالم الحسّ والعقل يُودي بالإنسان إلى الهلاك والدمار لو استقل بعيداً عن الوحي، ولولا عناية الله بالإنسان في إرسال الرسل ليكونوا قدوة للبشر لضاع هذا الإنسان الضعيف، وإذا عرفنا أن الإنسان مركب على الخطأ والمعصية .. فكل صفاته تشير إلى أن هذا الإنسان لا يمكن بأي حال أن يكون إلهًا يعبد في الأرض، إنه أمر من التفاهة بمكان أن يعرف الإنسان بطبيعته القاصرة ثم يمكن أن تنسب له الربوبية والألوهية.

وقد حصل في التاريخ البشري أن كثيراً من الأقوام عبدت بشراً مثلها. فالنصارى مثلاً ادعت أن عيسى عليه السلام هو الله أو ابن الله وأن الله سبحانه هو ثالث ثلاثة ... وادعت اليهود أن عزيرًا ابن الله: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٠]، بل ادعوا أنهم جميعاً أبناء الله وأحباؤه: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ..** ﴾ [المائدة: ١٨] .. وهذه التخيلات من علمائهم وعبادهم الذين اتبعوهم في ذلك حتى وصل بهم الأمر لأن يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم واتخذوهم أربابًا من دون الله، كما قال سبحانه: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ [التوبة: ٣١]، وقد بين النبي ﷺ كيفية اتخاذهم أربابًا فقال: «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئًا استحلّوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه**» ... وعيسى عليه السلام ينفي عن نفسه أن يكون مستحقًا للعبادة في شيء، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾ [المائدة: ١١٦] ولذلك نجد أن النبي ﷺ يدعو النصارى وجميع أهل الكتاب لأن لا يتخذ أحدٌ ربًا إلا الله: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ...** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير باب (٩) سورة التوبة.

فالإنسان لا يستحق أيًا كان أن يكون معبودًا، بل إن طبيعته تشير إلى كامل عبوديته فهو مخلوق ضعيف وبأمسّ الحاجة إلى من يعينه ويرعاه، وأن مهمته في الحياة هي عبادة الله سبحانه كما قال سبحانه: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات: ٥٦] فهو عباد لا معبود، وكما قيل لا يوجد إنسان يعبد وإنسان لا يعبد، فكل الناس يعبدون، لكن يختلف المعبود الذي يخضع له الإنسان فالكفرة والمشركون يعبدون مخلوقات، والمؤمن يعبد الله وحده.

المبحث الخامس
علاقة الإنسان بالمخلوقات

بعد التأمل في صفات كل صنف من المخلوقات التي خلقها الله سبحانه يتبين لنا أن لكل صنف ميزة خاصة ليتناسب ذلك مع المهمة التي خلق لأجلها، والعلاقة بين هذه الأصناف علاقة تكامل وليست علاقة تضاد، لذلك ينبغي أن نبين علاقة أصناف المخلوقات بالإنسان وإن كان الذي يجمعها جميعًا صفة العبودية.

أولاً: الإنسان والكون:

يشير القرآن الكريم في كثير من الآيات إلى تسخير الكون للإنسان، الكون بما فيه من سماوات وأرض وما فيه من قوانين كونية كلها متناسبة مع الإنسان ومسخرة له، وانظر إلى هذه الآيات: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ..﴾ [لقمان: ٢٠]، ويقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٠-١٦] وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ [الإسراء: ١٢]،

ويقول سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

وانظر إلى التعبير القرآني الذي استخدم كلمات: التسخير والتذليل، كما استخدم لفظة التمكين، وهي تشير إلى أبلغ معاني الإخضاع والتمكين .. وانظر إذا شئت في نظام الأفلاك وحركتها، والكواكب مع أبراجها، والأرض ودورانها، وتأمل في السحب والمياه والبحار، والتراب والدواب والأنعام، وفي مسرى الرياح ونمو النبات والأشجار تجدها جميعاً عاكفة على خدمات نوعية شتى من شأنها أن تنسج مقومات الحياة الآمنة والعيش الرغيد .. ألا ترى إلى كلمة «ذلولاً» في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً .. ﴾ كيف صورت الأرض وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان بكل ما فيها من ذخر، وبكل ما على ظاهرها من خير ليُعمل فيها قدرته العضلية ومواهبه الفكرية، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفع[١].

وبذلك تعلم أن علاقة الإنسان بهذه المخلوقات لم تكن في يوم من الأيام علاقة تحد وصراع، ولا علاقة قهر واستعباد، إنما هي علاقة تكامل وتوازن .. وعليه فإن ما يستخدمه بعض السطحيين وبسطاء الباحثين من ألفاظ: تحديات الطبيعة، وقهر الطبيعة فليس له أي مدلول ذي معنىً في ميزان العلم أو الوقائع والأحداث التاريخية.

ثانياً: الإنسان والملائكة:

حينما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد إعلامهم بأنه خليفة الله في الأرض وأنه يملك ملكة العلم فيعلم أموراً لا تعلمها الملائكة، وعندها سارع الملائكة بالامتثال لأمر الله وسجدوا أجمعون، وشعر الملائكة بقيمة هذا الإنسان ومكانته.

والملائكة ذات صداقة ومودة للمؤمنين، وهم ينفذون أمر الله سبحانه فيما يأمرهم به ولا يملكون مخالفته أبداً، فمن أعمالهم ما يلي:

---

(١) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم للبوطي، ص ٩٨، (بتصرف).

■ فهم حفظة يحفظون هذا الإنسان كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ...﴾ [الانعام: ٦١]، ويقول سبحانه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤].

■ وهم يسجلون جميع أعمال الإنسان: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

■ ومن أعمالهم الدعاء للمؤمنين: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الاحزاب: ٤٣].

■ ومن أعمالهم تخفيف روع المؤمنين والبشارة بالجنة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

■ ومن أعمالهم تثبيت المؤمنين في القتال وإعانتهم والقتال معهم، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الانفال: ٩]، وقال سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الانفال: ١٢].

فالملائكة تنزل بأمر الله لا تخالفه، والعجب أن تجد من يدعي عداوة الملائكة كاليهود الذين حكى القرآن عنهم ذلك: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧] ... وقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا من الذي يأتيك من الملائكة، فإنه ليس من نبي إلا يأتيه ملك من عند ربه عز وجلّ بالرسالة وبالوحي، فَمَنْ صاحبُك؟ قال: «جبريل» قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة اتبعناك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ...﴾ إلى قوله: ﴿... فَإِنَّ

﴿اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾(١) وقال مقاتل: قالت اليهود: إن جبريل عدونا، أُمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا، فأنزل الله هذه الآية(٢).

ثالثاً: الإنسان والشيطان:

إن المادة التي خلق الله منها إبليس – وهي النار – تشير إلى طبع هذا المخلوق والتي يغلب عليه جانب الشر والأذى والتمرد والغواية، لكن عناية الله كما أدركت الآدميين فكرم الإنسان بالنفخة الروحية كذلك كانت هذه العناية للجن فكان منهم المؤمنون كما كان منهم الكافرون.

ولفظ الشيطان لا يقتصر على الجن، بل يشمل الإنس والجن، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] .. ولكن إذا أطلق لفظ الشيطان فيراد به إبليس، وقد يراد به كل من حزبه من الإنس والجن.

وإبليس هو العدو الأول للإنسان، ولعل السبب في عداوته يرجع لأمرين هما:

[١] الطبيعة الشريرة لإبليس.

[٢] أن آدم كان هو السبب المباشر في إخراجه من الجنة وطرده منها. علماً أن السبب الحقيقي هو امتناعه عن السجود.

والله سبحانه ابتلى الإنسان فجعل نوازع الخير ونوازع الشر فيه متكافئة يشد كل منها الإنسان إلى جانب معين، فخلق الإنسان من طين منتن ومن ماء مهين وركب فيه الشهوة والهوى وجعل الشيطان يدخل من خلالها وأعطاه القدرة على الوسوسة والإغواء. كما جعل فيه نفخة الروح الإلهية وأيد ذلك بالرسل التي ترشد الإنسان إلى الخير وتحضه عليه. فالإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: ٣].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٤٥) ح (١٢٤٢٩) والواحدي في أسباب النزول، ص ٢٨، وهو حسن بشواهده.
(٢) أسباب النزول للواحدي، ص ٣١.

فإبليس من أهم المحرضات على الشر والغواية، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٠-٤٢]، وقال سبحانه: ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ... ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

فإذا كان الشيطان بهذا العداء للإنسان، فمن أعجب ما يكون العجب من إنسان يتخذه وليًا له، وخاصة إذا عرف أن الشيطان له هدف وهو إغواء الإنسان: ﴿ .. أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠].

لذا يشير القرآن الكريم للإنسان لأن يتخذ منهجًا عامًا وهو معاداة إبليس وذريته، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... ﴾ [فاطر:٦] واتخاذه عدوًا بالحذر من كيده، وسد الأبواب التي يدخل منها – وهي الغرائز والشهوات – وذِكْرُ الله والتمسك بهديه..

الفصل السادس

العبـــــــــادة

المبحث الأول: معنى العبادة ومفهومها

المبحث الثاني: الأمر بعبادة الله

المبحث الثالث: النهي عن عبادة غير الله

تمهيد

أشار القرآن الكريم إلى أن الهدف من خلق الإنسان هو العبادة، كما قال جل شأنه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وهذه الآية تبين أن الإنسان لا تصلح حياته ولا يستقيم أمره ولا يشعر بدوره إلا في ضوء هذا المفهوم واعتبار هذه القضية أساساً تبنى عليه النظرة للحياة الإنسانية، وبالتالي فإن أي انحراف عن هذا الهدف إنما هو مزلق خطير يحول الإنسانية عن هدفها ويدخلها في دوامة الشقاء والتخبط والضنك ولا يخرجها من ذلك إلا العودة لهذا المنهج.

وهذا المنهج لا يتحقق إلا بالتخلص من العبودية للمخلوقات ليكون عبداً لله وحده في جميع أمور الحياة ... والعبودية للمخلوقات تتعارض وتتنافى مع العبودية لله سبحانه، لأن الإنسان إما أن يكون عبداً لله؛ أو عبداً للمخلوقات.

فالعابد بحق هو الذي تجرد عن العبودية للمخلوقات إلى العبودية لله وحده. لذلك كان مقام العبودية لله أسمى وأرفع مقام يرتقي إليه الإنسان، ولذلك نجد أن الله سبحانه يصف نبيه محمداً ﷺ بوصف العبودية، يصفه بذلك في مقام التكريم والتشريف، حيث يقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ...﴾ [الإسراء: ١].

إن منهج العبودية لله يتفق مع تكريم الإنسان الذي جعله الله سيد هذا الكون وخليفته في الأرض وسخر له هذا الكون بأكمله، إنه يسمو بالإنسان ليرتفع عن العبودية للمخلوقات وعن العبودية للشهوات ليكون عبداً لله وحده، الإله الذي يستحق وحده أن يكون الإنسانُ عبداً له.

وإذا كان على الإنسان أن يسعى لهذا الهدف؛ فإن عليه أن يقيم جميع

أنظمة حياته في ضوء هذا المفهوم، سواء كانت الأنظمة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها.

إننا نجد في كثير من الأنظمة والبلدان أن «الزعيم» هو المعبود، فالاقتصاد والسياسة وجميع التشريعات كما يريده «الزعيم» لا كما يريد الله، ولا كما يريد الشعب.

إن منهج العبودية لله وحده هو الأساس الوحيد الذي يمكن أن يلتقي عليه جميع البشر، ولا يمكن لأي عاقل أن يرفضه، وهو المنهج الذي أرشد اللهُ رسولَه أن يدعو أهل الكتاب إليه: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا يتطلب منا بحث قضية العبادة بشيء من التفصيل.

المبحث الأول
معنى العبادة ومفهومها

فسّر صاحب القاموس المحيط العبادة بأنها الطاعة. وقال الراغب الأصفهاني: (العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾. والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير ... وعبادة بالاختيار؛ وهي لذوي النطق، وهي المأمور بها في نحو قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ و﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾)(١).

فالعبادة بالنسبة للإنسان تعني غاية الخضوع والتذلل، وهي لا تقتصر على أداء أركان الإسلام بل هي أشمل وأوسع من ذلك (فالعربي الذي خوطب بهذا القرآن أول مرة لم يكن يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يُؤمر به في مجرد أداء الشعائر التعبدية، بل إنه يوم خوطب به أول مرة في مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية، إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده في أمره كله وخلع الدينونة لغير الله من عنقه في كل أمره ... ولقد فسر رسول الله ﷺ العبادة نصًا بأنها هي «الاتباع»، وليست هي الشعائر التعبدية، وهو يقول لعدي بن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابًا: «**بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال؛ فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**»)(٢).

ويمكن القول أن معنى العبادة: الخضوع والاتباع، فإن كانت عن قهر فتفيد التذلل، وإن كانت عن تسليم فتفيد الاتباع.

وعلى هذا تحمل عبادة الشيطان، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ

---

(١) المفردات، ص ٣١٩، وانظر روح المعاني (٢٧/ ٢٠).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٠٢).

أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [يس: ٦٠]، وقول إبراهيم لأبيه: ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا﴾ [مريم: ٤٤]، فوالد إبراهيم كان يظن أنه يعبد الله، وكذلك كان المشركون، والقرآن اعتبر ذلك عبادة للشيطان فإنه الموسوس والمزين لهذه العبادة.

وعليه فالعبادة تتسع دائرتها لتشمل كل عمل وكل نشاط أو سلوك إنساني، حيث يمكن أن يكون ذلك عبادة إذا خلصت النية لله تعالى وكان العمل نافعًا (فكل عمل نافع يقوم به المسلم لخدمة المجتمع، أو مساعدة أفراده؛ وخصوصًا الضعفاء وذوي العجز والفاقة منهم ... هو كذلك عبادة أيُّ عبادة، من ذلك ما جاءت به الأحاديث الكثيرة التي تحث على الصدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، حتى جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وحمل الرجل الضعيف على دابته صدقة، بل تبسمك في وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل معروف صدقة. ويدخل في دائرة العبادة: سعي الإنسان على معاشه ومعاش أسرته ليغنيهم بالحلال ويعفهم عن السؤال .. وأكثر من ذلك أنه جعل من وضع شهوته في حلال كان له بها أجر)[١]. وفي هذا يقول سيد قطب: (ليس في التصور الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى العبادة، أو لا يطلب فيه تحقيق هذا الوصف. والمنهج الإسلامي كله غايته تحقيق معنى العبادة أولاً وأخيراً.

وليس هناك من هدف في المنهج الإسلامي لنظام الحكم، ونظام الاقتصاد، والتشريعات الجنائية، والتشريعات المدنية، وتشريعات الأسرة، وسائر التشريعات التي يتضمنها هذا المنهج .. ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى العبادة في حياة الإنسان ... والنشاطُ الإنساني لا يكون متصفًا بهذا الوصف، محققًا لهذه الغاية - التي يحدد القرآن أنها هي غاية الوجود الإنساني - إلا حين يتم هذا النشاط وفق المنهج الرباني، فيتم بذلك إفرادُ الله - سبحانه - بالألوهية والاعترافُ

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص ١١٧.

له وحده بالعبودية .. وإلا فهو خروج عن العبادة، لأنه خروج عن العبودية، أي خروج عن غاية الوجود الإنساني كما أرادها الله)(١).

والقرآن الكريم دعا لعبادة الله وحده وترك عبادة غيره، وعليه فلا تتحقق العبادة إلا بوجود هذين الأمرين معًا، فلا يمكن للإنسان أن يكون عابدًا لله إلا بترك عبادة غيره من المخلوقات، أما أن يعبد الله ويعبد غيره فهذا هو الشرك في العبادة.

وإذا كانت العبادة تشمل جميع أنظمة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وبالتالي فلا يتحقق منهج العبودية لله بأن تكون هذه الأنظمة مستمدة من القرآن ومن غيره، وإلا كان ما يسمى «منهج الترقيع» أو الترقيع في المنهج، كأن يكون النظام الاجتماعي مستمداً من القرآن والنظام الاقتصادي من الأنظمة الأخرى، وهذا الترقيع في المنهج من اسوأ ما يكون أثرًا، فالفرد أو المجتمع يعبد الله في جانب ويعبد غيره في جانب، وهذا هو منهج المنافقين الذي أشار إليه القرآن الكريم: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ...**﴾ [الحج: ١١]، والقرآن الكريم يبين ضرورة وضوح المنهج وتميزه وعدم الخلط بينه وبين منهج آخر، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكافرون: ١-٣] ويؤكد هذا الأمر النصوص التي تشير إلى ضرورة البراء عن عبادة الكافرين...

والقرآن الكريم يدعو لعبادة الله من خلال صيغتين اثنين، هما: ﴿**اعْبُدُوا اللَّهَ**﴾ و﴿**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ**﴾.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٧).

المبحث الثاني
الأمر بعبادة الله

والله سبحانه وتعالى وحده الذي يستحق العبودية، ولا يستحقها أحد من المخلوقات، سواء كان ملكًا أو بشرًا أو غير ذلك، فكل ما في السماوات والأرض عبيد لله، كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

والقرآن الكريم يشير في آيات كثيرة لهذه القضية، منها:

١- صفة الخلق:

فالله سبحانه هو خالق كل شيء ولا يوجد في المخلوقات من يجادل في هذه القضية، ولا يمكن لأحد من المخلوقات أن يدعي أنه يمكن أن يخلق أي شيء، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] وقال سبحانه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الانعام: ١٠٢]، وكم يعجب المرء من عقل الإنسان الناقص كيف يعبد المخلوق ويترك الخالق!؟.

٢- صفة الإحياء والإماتة:

والذي بيده الموت والحياة هو الذي يستحق أن يكون معبودًا، وليس المخلوق الذي يموت، فكيف يكون معبوداً وهو يموت؟ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤].

٣- صفة الرزق:

الرزق سبب من أهم الأسباب في عبودية المخلوقات لبعضها البعض، فمن عرف أن الله هو الرزاق المقيت المغني الباسط القابض وعرف أن رزقه مكتوب ولابد أن يأخذ ما قدر الله له، ولا يملك أي مخلوق أن يمنعه مما قدره الله له، ومن عرف أن الله سبحانه يقبض الرزق ويبسطه لحكمة، فيعطي المؤمن من الرزق المقدار الذي يصلحه في دينه ودنياه ولا يفتنه، يعطيه رزقًا ليزداد قربًا من الله ويمنعه منه كله أو بعضه لئلا يفتنه ذلك، لأن من عباد الله من لا يصلحه إلا الغنى، ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، وقال: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]، أي فلولا الخشية – رحمة بالمؤمنين – من أن يكون المال فتنة لهم لكان علامةُ الكافرين أن يغدق عليهم المال الكثير.

فالله سبحانه يبسط الرزق ويقبضه لحكمة وكما ورد في الحديث: **«إذا أحب الله عبداً حماه الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه الماء»**[1] يقول سيد قطب: (لقد يغدق الله على أهل الشرّ استدراجًا لهم ليزدادوا سوءاً وبطراً وإفساداً، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة – وفق حكمته وتقديره – بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادوا شراً وفسوقًا وجريمة وجزعًا وضيقًا ويأسًا من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال. ولقد يغدق الله على أهل الخير ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب

---

(١) رواه الحاكم (٤/٣٠٩) والترمذي (٢٠٣٦) كتاب الطب رقم (١) وصححه الحاكم ووافق الذهبي وقال الترمذي: حسن.

واللسان والفعل الجميل، ويذخروا بهذا كله رصيداً من الحسنات .. وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان وثقتهم بربهم ورجاءهم فيه واطمئنانهم إلى قدره ورضاهم بربهم وحده - وهو خير وأبقى - وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير)[١].

فالله سبحانه يبسط الرزق ويقبضه لحكمة. وهو سبحانه لم يترك أحداً دون رزق فتكفل برزق جميع المخلوقات كما قال سبحانه: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ...** ﴾ [هود: ٦].

فالله سبحانه وحده هو الرزاق ولا رازق غيره، ولا يملك أحدٌ أن يرد رزقاً عن أحد. والرزاق هو الذي يستحق العبادة، كما قال جل شأنه: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، ويقول سبحانه: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ** ﴾ [النحل: ٧٣] .. ولذلك امتن الله على قريش ودعاهم لعبادة من أطعمهم من جوع فقال سبحانه: ﴿ **فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش: ٣-٤].

فالقرآن يشير إلى أن هدف الإنسان تحقيق معنى العبودية وليس هدفه الرزق، وكم من فرق بين الإنسان الذي يكون همه وهدفه في الحياة تحقيق الرزق، وبين الإنسان الذي أيقن بأن رزقه مكفول تكفل الله به، وليس له من هدف إلا إرضاء الله سبحانه.

٤- النفع والضر:

كثيراً ما يكون سبب العبودية للمخلوقات هو تصور أنها يمكن أن تنفع أو تضر، لكن القرآن الكريم يبين أن كل نفع أو ضر هو من الله سبحانه وهو المصدر الرئيسي لذلك، وهو سبحانه الذي أعطى هذه المخلوقات تلك الصفات، فالبعض

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩١٠).

تصوروا أن الشمس هي مصدر نفع مباشر للعباد فلولا الشمس لمات العباد على سطح الأرض، لكنهم لم يدركوا أن الله هو الذي جعل الشمس بتلك الصفة .. والبعض عبد النار لمثل هذا الوهم .. وقل مثل ذلك في كل معبود. فكل نفع أو ضر من الله سبحانه، وبالتالي فهو الذي يستحق أن يكون معبوداً دون غيره من المخلوقات، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦]، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٦].

توحيد العبادة:

والعبادة لا تكون سليمة إلا بعبادة الله وحده وترك عبادة غيره، بل البراءة من عبادة غيره سبحانه، كما قال سبحانه معلماً عباده كيف يعبدونه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، والمعنى نعبدك وحدك ونخصك بالعبادة ولا نعبد سواك، وعُلم هذا المعنى من خلال الأسلوب حيث قدم في الذكر لفظ «إياك» وهو المفعول على الفعل «نعبد» وتقديمُ المفعول يفيد الاختصاص.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، أي لا يشرك بعبادته أي مخلوق وفي أي شيء من العبادة، قال الشوكاني: (﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ من خلقه سواء كان صالحًا أو طالحًا، حيوانًا أو جمادًا، قال الماوردي: قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية: إن المعنى لا يرائي بعمله أحداً. وأقول: إن دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء، ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها، إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية)[١].

فالرياء من أخطر الأعمال التي تخالط العمل فتفسده، بل هي أكثر ما ينطبق

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/٣٢٢).

عليه مفهوم الإشراك في العبادة، فالناس قد لا يعبدون شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا ولا وثنًا؛ إنما يغلب عليهم المراءاة بأعمالهم، وهذا هو المقصود بالشرك الخفي، وفي الحديث: «**الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا**»[1]، وعن شداد بن أوس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك**» ثم قرأ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾، الآية[2]، وفي الحديث أيضًا: «**إن الله يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئًا فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشركه أنا عنه غني**»[3].

ويدخل في هذا الإطار قضية البراءة من عبادة الكافرين، إذ لا يقف محايدًا أمام عبادة الكافرين وإشراكهم بالله شيئًا من خلقه، أو تعظيمهم لأي مخلوق كتعظيم الله سبحانه، بل لابد من أن يتبرأ من عبادتهم تلك، قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ..**﴾ [الممتحنة: ٤].

الصبر في العبادة:

إذا عرفنا أن مقام العبودية هو المقام الذي يرقى بالإنسان إلى أفق أعلى، وهو المقام الذي يسمو فيه الإنسان من العبودية للشهوات ولجميع المخلوقات إلى مقام العبودية لله، ذلك المقام الذي يتفق مع كيان الإنسان ومكانته باعتباره سيد هذا الكون وخليفة الله في الأرض، وهذا المقام لا يصل إليه الإنسان إلا بعد مجاهدة طويلة وحثيثة وبحشد جميع طاقاته للوصول إلى ذلك المقام السامي.

---

(١) رواه الحاكم (٢ / ٢٩١) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (٣٧٣٠).
(٢) رواه أحمد (٤ / ١٢٦)، والحاكم (٤ / ٣٢٩)، والطبراني (٧١٣٩).
(٣) رواه أحمد (٤ / ١٢٦) وغيره وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠ / ٢٢٤) فيه شهر بن حوشب وثقه أحمد وغيره، وضعفه غير واحد.

وهذا هو المنهج الذي يشير إليه القرآن الكريم حيث يقول سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ...﴾ [مريم:٦٥]، والقرآن الكريم استخدم صيغة الانتقال في الصبر فقال: ﴿اصْطَبِرْ﴾ ولم يقل واصبر، لأن الافتعال يدل على المبالغة في الفعل، أي بمعنى اجمع نفسك واحشد كل طاقتك في الصبر على العبادة. يقول سيد قطب: (اعبده واصطبر على تكاليف العبادة، وهي تكاليف الارتقاء إلى أفق المثول بين يدي المعبود، والثبات في هذا المرتقى العالي. اعبده واحشد نفسك وعبىء طاقتك للقاء والتلقي في ذلك الأفق العلوي .. إنها مشقة، مشقة التجمع والاحتشاد والتجرد من كل شاغل ومن كل هاتف ومن كل التفات .. والعبادة في الإسلام ليست مجرد الشعائر، إنما هي كل نشاط: كل حركة؛ كل خالجة؛ كل نية؛ كل اتجاه، وإنها لمشقة أن يتجه الإنسان في هذا كله إلى الله وحده دون سواه، مشقة تحتاج إلى الاصطبار، ليتوجه القلب في كل نشاط من نشاط الأرض إلى السماء، خالصاً من أوشاب الأرض وأوهاق الضرورات وشهوات النفس ومواضعات الحياة.

إنه منهج حياة كامل ... وإنه لمنهج يحتاج إلى الصبر والجهد والمعاناة)[١].

ويذكر الإمام الغزالي في إحيائه أن الصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية، كما يذكر أن الإنسان يحتاج إلى صبره على طاعته في ثلاث أحوال:

الحالة الأولى: قبل الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر على شوائب الرياء ودواعي الآفات وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص وآفات الرياء ومكايد النفس.

الحالة الثانية: خالة العمل، كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا من شدائد الصبر.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٣١٥) باختصار.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره[١].

وفي الآية الكريمة تعدية فعل الصبر باللام، فقال: لعبادته ولم يقل: على عبادته، كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]، وذلك لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق[٢].

(١) إحياء علوم الدين (٤ /) بتصرف.

(٢) روح المعاني للألوسي (١٦/ ١١٦).

المبحث الثالث
النهي عن عبادة غير الله

المعبودات من دون الله كثيرة، وعبادتها إما بالخضوع والسجود لها تعظيماً، أو بالاتباع، وهو أكثر ما يكون في عبادة غير الله سبحانه. لذا ينبغي الإشارة إلى أصناف المعبودات في القرآن الكريم، وهي:

١- عبادة الشمس:

حكى القرآن الكريم عن ملكة سبأ حيث كانت هي وقومها يسجدون للشمس من دون الله، ولعلهم تصوروا أن الشمس مصدر خير كثير للعباد فصاروا يعبدونها ويسجدون لها، كما حكى القرآن قول الهدهد: ﴿**وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ...**﴾ [النمل:٢٤]، وكما حكي عن المشركين نسبة الموت والحياة إلى الدهر: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾ [الجاثية: ٢٤]، وكان من العرب من يعبد الأجرام السماوية، ولا سيما الشمس والقمر، وكانوا يسمون الشمس الإلاهة[١].

٢- عبادة الأصنام:

ارتبطت عبادة الأصنام بكثير من الأمم التي كانت تعبدها وتدافع عنها، ففي عهد نوح حكى القرآن تمسكهم بعبادة الأصنام: ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح:٢٣]، فكانت هذه أكبر أصنامهم، وقيل إنها أسماء رجال صالحين كانوا بين آدم ونوح ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صوّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبركون بهم، ففعلوا، فلما مات قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم[٢] وكانت عبادة الأصنام متأصلة أشد

(١) روح الدين الإسلامي، لعفيف طبارة، ص ٩٢.
(٢) تفسير أبي السعود (٩ / ٤٠) الطبعة الرابعة ١٩٩٤م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

التأصيل في قوم إبراهيم عليه السلام، وقد حكى القرآن الكثير من حوار إبراهيم عليه السلام لقومه عامة وأبيه خاصة، وينتهي الحوار بأن يكسر إبراهيم الأصنام ثم تتم محاكمته وإلقاء في النار نصراً لتلك الآلهة: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٨]، ولم تكن الأصنام في مشركي العرب زمن بعثة النبي ﷺ أقل انتشاراً من الأقوام السابقة، حتى إن الأصنام أصبحت مظهراً من مظاهر حياتهم، ودخلت الأصنام بيت كل واحد منهم، فكان لأهل كل دار من مكة – مثلاً – صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً[١] وكانت عبادتهم لهذه الأصنام بدعوى أنها تقربهم إلى الله ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]، وهذه دعوى باطلة وغير مقبولة، فلو كانوا يريدون عبادة الله لما عبدوها، قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

٣- عبادة البشر:

وعبادة البشر نوع من أنواع العبادة، حيث تصور البعض فيهم نوعاً من أنواع التعظيم فصاروا يعبدونهم، أو اتبعوهم في التحليل والتحريم بخلاف ما شرع الله، أو نحواً من ذلك، ويمكن إيجازها بما يلي:

أ- عبادة الأموات:

قال تعالى عن قوم نوح قولهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]، وكان هؤلاء قوم صالحون بين آدم ونوح، وكان

(١) الأصنام، لابن الكلبي، ص ٣٣.

لهم أتباع، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم لكان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم[١]. واللات صنم كان لثقيف في الطائف، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى ﴾ [النجم:١٩]، وكما قيل إنه اسم لرجل كان يلتّ للحجيج في الجاهلية السّويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه[٢].

وعبدت النصارى عيسى ﷺ لادعائهم أن الله قد حل فيه أو أنه ابن الله، وادعت اليهود أن عزيرًا ابن الله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ... ﴾ [التوبة: ٣٠]، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ... ﴾ [المائدة: ١١٦].

ب- عبادة الأحياء:

وصورة ذلك في الاتباع، كما قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، والأحبار: علماء اليهود، والرهبان: علماء النصارى من أصحاب الصوامع[٣] ومعنى اتخاذهم أربابًا من دون الله أنهم أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرمه سبحانه، وهو التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ، كما روي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة: «﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ فقال: **«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه»**[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/٤٢٧). (٢) تفسير ابن كثير (٤/٢٥٥).

(٣) روح المعاني، للألوسي (١٠/٨٤).

(٤) رواه الترمذي في كتاب التفسير باب (٩) سورة التوبة، ونسبه السيوطي في الدر المنثور (٣/٤١٥) لابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه.

٤- عبادة الشهوات:

الشهوة هي نزوع النفس إلى ما تريده ورغبتها في إشباع ذلك. ويبدأ ذلك بالرغبة في إشباع الشهوات ويترقى في ذلك لأن يصبح عبداً لها، فتكون الشهوة هي التي تسيره، لا هو الذي يسيرها، فالاستغراق في الشهوات يجعل المرء عبداً لها، لكن القرآن الكريم اتخذ منهجًا متوازنًا فجعل إشباع الشهوات أمرًا فطريًا، وذلك إذا كان ضمن الحدود المشروعة، فالطعام مثلاً شهوة للإنسان فإذا زاد فيصل بالمرء إلي حد يقتل الإنسان، وهكذا جميع الشهوات، والمال شهوة، وحبه أمر فطري، لكن الحب الشديد للمال يجعل الإنسان عبدًا للمال، قال عليه الصلاة والسلام: «**تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض**»[١]. فالنبي ﷺ جعل صاحب هذه الصفة عبداً للدينار والدرهم.

وأهم أنواع الشهوات يمكن أن تجعل من المرء عبدًا لها هي:

أ- المـــال:

المال نعمة عظيمة على الإنسان، به يقيم أمور حياته فيؤمِّن المسكن والملبس وجميع ضرورات الحياة كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥]، أي به تقيمون أمر حياتكم، والمال أحد الضرورات الخمس التي حافظت عليها الشريعة، وهي: الدين والنفس والعرض والمال والعقل. والفقير الذي لا مال له يشغل وقته في طلب قوته وتهيئة الضرورات، وربما شغله ذلك عن العلم والعبادة وكثير من الفضائل. وحب المال فطرة فطر الله الإنسان عليها، كما قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾ [العاديات: ٨]، والخير: المال، وقال تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾ [الفجر: ٢٠]، وفي الحديث: «**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب أحب أنّ له واديًا آخر، ولن يملأ فاه إلا التراب، والله يتوب على من تاب**»[٢].

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٣٥).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، رقم (١١٥).

لكن المال فتنة عظيمة كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وفي الحديث: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»(١) وكان المال سبب فتنة الكثير من الناس، فيحكي القرآن قصة قارون الذي أضله المال حيث كان قارون من قوم موسى فآتاه الله مالاً كثيراً، ويصيبه الغرور الكثير فيقول له قومه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ فيقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [انظر قصة قارون في سورة القصص: ٧٦-٧٧] .. ولما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعض الصحابة لبعض: فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها؛ فأنزل الله على نبيه: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة هي الانتباه إلى الأموال وإصلاحها وترك الجهاد(٢).

فالمال مزلق خطير للإنسان ويجعل الإنسان يسير وراء شهوة لإشباعها وهي شهوة لا تشبع، وكلما جمع الإنسان مالاً طلب المزيد ولن يملأ فاه إلا التراب.

ب- النساء:

محبة النساء والرغبة فيهن أمر فطري، وهذه الرغبة من عناية الله بالإنسان إذ جعل لكل من الرجل والمرأة صفات يكمل الواحد منهما الآخر ويلبي حاجاته النفسية والعقلية والجسدية، فيجدان مع بعضهما الطمأنينة والسكينة لتقوم الحياة على الوجه المطلوب.

والقرآن الكريم ما جاء ليكبت هذه الشهوة والرغبة، إنما أراد أن ينظمها ويضبطها بالشكل الذي يتناسب مع استخلاف الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، والله سبحانه زين للناس حب الشهوات ومنها النساء، وذلك للابتلاء ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ..﴾ [آل عمران: ١٤]، وفي الحديث: «**حُبِّبَ إليّ النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٧)، وقال: حسن صحيح.
(٢) انظر سبب النزول في سنن أبي داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢).
(٣) رواه النسائي (٧/٦١) والحاكم (٢/١٦٠) وصححه ووافقه الذهبي.

لكن هذه الرغبة قد تكون سببًا لبلاء عظيم لكل من الرجل والمرأة في دينه ودنياه، وذلك إذا خرجت الشهوة عن حدها الطبيعي، لأن الإنسان إذا زادت فيه هذه الشهوة زيادة كبيرة أخرجته عن كونه ذلك المخلوق الذي خلقه الله ليكون خليفته في أرضه ويكون سيد هذا الكون، إنها تسلب عقله وتؤثر على كيانه .. وكم ذل وانحرف من الرجال بسبب عشق النساء، لذلك ورد في الحديث: **«ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء»**(١) .. انظر إلى الطغاة مثلاً وذلهم أمام شهوة النساء، فتجد أحدهم يتطلع للمزيد، حتى إذا رأى امرأة جميلة سعى للتمتع بها وبذل في ذلك جهده ولو على حساب نزعها من زوجها.

لذلك حرص القرآن على عدم إثارة هذه الغريزة فحرم النظر، والنظرةُ سهم مسموم من سهام إبليس كما ورد في الحديث، كما حرم القرآن لين الكلام، وحرم الحديثُ الخلوة. وجعل السبيل في إشباع هذه الشهوة هو الزواج الذي يكون فيه الألفة والمودة وتكوين أسرة ذات كيان مترابط تشكل نواة للمجتمع الكبير المترابط السليم الذي تكون فيه استقرار الحياة.

جـ- البنــــون:

الأولاد نعمة عظيمة من نعم الله في الحياة الدنيا، وهم عون للرجل في دينه ودنياه، فيعينونه في الدنيا على قضاء حوائجه وخاصة حال كبره وضعفه ومرضه. وإذا مات الإنسان كان له أجر في عمل ولده الصالح: **«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**(٢)، لذا يمتن الله على عباده بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]، ووصفهم القرآن بزينة الحياة الدنيا وحبهم للنفوس أشد الحب ..

فحب الأولاد فطرة إنسانية، حتى إن بعض الأنبياء كانت نفوسهم تتطلع إلى الولد ليكون منه الذرية كما حصل لإبراهيم وزكريا عليهما السلام.

لكن حب الأولاد قد يكون سببًا للتقصير أو الضلال أو ترك الكثير من

---

(١) رواه البخاري برقم (٥٠٦٣).
(٢) رواه مسلم في الوصية (١٤).

الواجبات، فقد يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد بحجة الخوف على الولد وتأمين المعيشة، قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الانفال:٢٨]، وفي قصة الغلام الذي قتله الخضر بين الله أن الحكمة هي الخشية من فتنة الوالدين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠].

والبعض تتطلع نفوسهم لإنجاب الأولاد الذكور، لكن الله جلت حكمته يهب لمن يشاء الإناث ولمن يشاء الذكور، وذلك ليبتلي العباد وليعلم صبرهم وتسليمهم ورضاهم بما منحهم الله، وبذلك قد تتعارض رغبة الإنسان مع تقدير الله، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠]، فقد يكون الولد عاقًا أو فاسقاً أو فاجرًا أو كافرًا أو مشوه الخلقة فتتحول الرغبة في الولد الذكر إلى مشقة وعناء، والمرء لا يدري ما هو الأفضل له، لذا عليه أن يسلم لأمر الله ويرضى بقضاء الله وقدره، فيرضى إن أعطاه أو منعه من الأولاد، ويرضى إن أعطاه ذكرًا أو أنثى، ويرضى إن رد الله أمانته بوفاة ولده ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وهكذا يريد القرآن الكريم أن يحول هذه الرغبة في الأولاد إلى رغبة ترضى بقدر الله ولا يجرها ذلك الأمر لذلك المزلق الخطير الذي يودي بالإنسان إلى مهاوي الضلال والتيه، وقد يصل الإنسان إلى الطغيان والكفر ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.

د- الهـــوى:

الهوى: ميل النفس للشهوة، ويستعمل غالبًا في الحب المذموم، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية وفي الآخرة إلى الهاوية[١]. وقال ابن القيم: (وقد يستعمل في الحب

(١) المفردات للراغب الأصفهاني مادة هوى.

الممدوح استعمالاً مقيداً، ومنه قول النبي ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**[١][٢] فإن كان تابعاً للشرع كان غير مذموم.

واتباع هوى النفس من أكثر أسباب الضلال والانحراف عن المنهج السليم، فهو مزلق خطير، وقد تجد المرء يقر بالحقيقة لكنه يعدل عنها إرضاء لهوى النفس، وبين سبحانه وتعالى أن سبب ضلال بني إسرائيل هوى النفس: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ**﴾ [القصص: ٥٠]، فاليهود كانوا يعلمون علم اليقين ببعثة محمد ﷺ وكما أخبر القرآن أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم بسبب هوى النفس وبسبب الحسد كفروا ببعثته ﷺ.

والهوى سبب ضلال الكثير من الناس، إن العاصي والفاسق يطلق للنفس هواها فيعمل بما تأمره، فلا يهوى شيئًا إلا وقد عمله، قال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]، قال ابن عباس في الآية: كلما هوى شيئًا ركبه، وكلما اشتهى شيئًا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: **«ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله تعالى أعظم عند الله عز وجل من هوىً يتبع»**[٣]. وانظر إلى القرآن الكريم كيف جعل هؤلاء كالأنعام بل أضل حينما أطلقوا لنفسهم العنان، فهي الإله المعبود من دون الله تعالى بلا ضابط يضبطها ولا معايير ولا موازين، فالميزان هو ما ترغبه النفس سواء أذن الله به أم لم يأذن. فأي فرق بينه وبين الحيوان الذي لا هم له إلا إشباع شهوته.

ومن اتباع هوى النفس اتباع عقل الإنسان ولو كان مناقضاً للشرع، وهي

---

(١) أورده النووي في الأربعين النووية (٤١) وقال رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

(٢) روضة المحبين لابن القيم، ص ٣٩.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٨/١٢٣) وفيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث كما في مجمع الزوائد (١/١٩٣) ورواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة رقم (٣).

قضية من أخطر أسباب الانحراف والضلالة، حيث يعتبر البعض أن العقل لا يمكن أن يخطئ، وأنه الهادي الذي لا يضل، وله الحكم في كل مجال وكل قضية، وهو مقدم على الشرع والوحي .. وقد نجد عامة المبتدعين والمنحرفين يشتركون في تقديم العقل على الشرع، فإن تعارض نص شرعي مع العقل فيتهمون الشرع ولا يتهمون عقلهم .. علماً أن العقل السليم لا يتعارض مع نقل صحيح.

إلا أن العقلانيين في التاريخ القديم والحديث وقعوا في أخطاء شنيعة لاعتمادهم العقل بعيداً عن النص الشرعي، لقد اختلفت عقول البشر حتى الأذكياء والعباقرة منهم في حقيقة وجود الله ووحدانيته، فمن قائل بأن الكون والإنسان ناشئ من غير خالق، بل من قائل بأن الإنسان هو الذي خلق الله، ومن قائل بتعدد الآلهة أو تأليه الحجر أو الشجر أو غيره، كما اختلفوا في الإنسان، هل هو روح خالد أم مادة فانية، نور من السماء أم طين من الأرض، كما اختلفوا في غاية خلقه ولماذا يحيى، وما رسالته في الحياة وما مصيره ... لقد اختلفت الفلاسفة اختلافًا كبيرًا حتى أنكر بعضهم وجود أي حقيقة..[1].

فالعقل إن اعتمد عليه الإنسان بعيداً عن الشرع أنتج أفكاراً هي أشبه بعقل الطفل الصغير، ولا ضابط له إلا هدي الشرع.

٥- عبادة الشيطان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

والمراد بالجن التي عُبدت هي الشياطين، وهذا يشمل إبليس وأعوانه، وعبادتهم باتباع ما سولت لهم من عبادة الأصنام أو اتباع الهوى ونحوه، أو بالاستعانة والاستعاذة بهم، قال الألوسي: (﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي

(١) انظر المرجعية العليا في الإسلام للقرضاوي، ص ٣٣١.

الشياطين كما روي عن مجاهد، حيث كانوا يطيعونهم فيما يسولون لهم من عبادة غير الله تعالى[١].

وقال سبحانه حاكيًا قول إبراهيم لأبيه: ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم: ٤٤] أي إن عبادتك للأصنام عبادة للشيطان لأنه هو الذي يسولها لك ويغريك به[٢].

فالله يأمر بعبادته وحده والشيطان يأمر ويوسوس بخلافه، فالذي لا يتبع هدي الله فيكون قد اتبع هدي الشيطان.

٦- عبادة الطاغوت:

والطاغوت كل معبود من دون الله، فهي تشمل ما سبقت الإشارة إليه من المعبودات التي خلقها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ... ﴾ [النحل: ٣٦].

والطاغوت مأخوذ في الفقه من الطغيان، فقيل هو الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، وقد يكون واحدًا أو جمعًا[٣].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ .. ﴾ [المائدة: ٦٠] فقد يراد به العجل أو الكهنة أو كل من أطاعوه في معصية الله عز وجل، فيعم الحكم دين النصارى أيضًا[٤].

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٢٢/ ١٥١).
(٢) روح المعاني للآلوسي (١٦ / ٩٧).
(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٥٠).
(٤) تفسير أبي السعود (٣/ ٥٦).

الفصل السابع

التشـــــريــع

المبحث الأول: صلة التشريع بالعقيدة

المبحث الثاني: خصائص التشريع القرآني

المبحث الثالث: الأسس التي قام عليها التشريع القرآني



المبحث الأول
صلة التشريع بالعقيدة

التشريع بالنسبة للعقيدة يُمثل الجانب العملي التطبيقي للإيمان، وذلك أن للإيمان بالله وحده أثر في التشريع، وكذا عدم الإيمان أو الكفر والشرك بالله تعالى، فلكل عقيدة أثر في التشريع، إن تصور التعظيم مثلاً في أي مخلوق من المخلوقات يؤدي لتشريع أحكام لحماية هذه المخلوقات التي تعبد من دون الله، فالذين عبدوا الأصنام شرّعوا لها أحكامًا تناسب هذه العبادة وهذا التعظيم؛ من الذبح عندها وغير ذلك، والذين عبدوا البشر وعظموهم تعظيمًا معينًا أدى ذلك لاعتبار أهوائهم شرعًا يتبع، وقل مثل ذلك في كل معبود من دون الله.

لذلك نجد أن القرآن الكريم يربط كل أحكام الشريعة بالإيمان بالله وحده، وينهى عن الشرك بالله. ويمكننا تفصيل هذه القضية من خلال ما يأتي:

أولاً: عرض بعض الأحكام مرتبطًا بالنهي عن الشرك:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، ففي هذه الآية التي تتحدث عن بعض العلاقات الاجتماعية نجد تصديرها بالأمر بالعبادة والنهي عن الشرك، ولعل المعنى هو أن من امتنع عن الإحسان لهؤلاء المذكورين إنما يمتنع غالباً نتيجة لهوى النفس، إذ قد تأمر النفس أحيانًا بخلاف ذلك وهو سبيل للشرك واتباع الهوى.

والقرآن الكريم عرض صوراً لأثر الشرك في التشريع من قتل أولادهم وتحريم أكل بعض الأنعام أو ركوبها ونحو ذلك، يقول سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ

الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٦-١٣٩].

وكانوا في الجاهلية يقدمون الأشهر الحرم أو يؤخرونها، فيحلون القتال حينما يريدون ويحرمونه حينما يريدون، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

فالعقبة الكبرى في التشريع هي الشرك بالله أو الكفر به والذي يؤدي لتشريعات معينة، يقول الندوي في كتابه القيم: «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: (انحلت العقدة الكبرى ... عقدة الشرك والكفر .. فانحلت العقد كلها، وجاهدهم رسول الله ﷺ جهاده الأول؛ فلم يحتجْ إلى جهاد مستأنف لكل أمر أو نهي، وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى؛ فكان النصر حليفه في كل معركة. وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة؛ لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى؛ ولا يجدون في أنفسهم حرجًا مما قضى؛ ولا يكون لهم الخيرة من بعدما أمر ونهى. حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم؛ وعرّضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد ... نزل تحريم الخمر والكؤوس المتدفقة على راحاتهم فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتّقدة؛ وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة..)[1]، ويقول الأستاذ محمد قطب: (ليس الفارق بين إنسان

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي ص ٨٧-٨٨، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، طب الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية.

وإنسان أن هذا يعبد وهذا لا يعبد، إنما الفارق في المعبود: أهو الله سبحانه أم غيره من الآلهة.

كان الناس في جاهليتهم يعبدون الأب أو الطوطم أوقوى الطبيعة من رعد وبرق وريح ومطر، ويعبدن الأفلاك من شمس وقمر ونجوم، أو يعبدون الأصنام والأوثان، أو يعبدون البشر من الأنبياء والقديسين والأحبار والرهبان، أو يعبدون الطبيعة أو الشيطان .. ثم عبد الإنسانُ ذاته في الجاهلية المعاصرة، ثم تعددت المعبودات فصار اسمها الوطن أو الدولة أو القومية أو المذهب أو الحزب أو الزعيم .. أو الجنس أو الإنتاج المادي أو الدولار.

كلها معبودات يتخذها الناس أرباباً من دون الله، وتتحكم في حياتهم فيسيرون علي مقتضى ما تأمرهم به في الوهم أو الحقيقة)[١].

ثانياً: عرض الأحكام مرتبطاً بالإيمان

تتبين العقيدة الحقة من خلال سلوك الفرد والمجتمع، وذلك من خلال تنفيذ هذه الشرائع أو عدم تنفيذها. وقد جعل القرآن الكريم إيمان المرء متوقفًا علي قبوله لهذه التشريعات وإقامتها والاحتكام إليها، حيث يقول سبحانه: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

يقول الدكتور الترابي في كتابه الإيمان وأثره في حياة الإنسان: (فالأحكام الفرعية العملية إنما هي وجوه التعبير عن الإيمان في واقع الحياة، وهي في ذات الوقت أسباب تزكية لمعانيه في النفوس، كما أن الإيمان ينصب الغاية التي ينبغي أن يتجه إليها كل عمل، ويمثل القاعدة التي تندفع عنها طاقاته. فالدين واحد في معانيه تتكامل فيه العقيدة والشريعة ... فبالإيمان يستمد المرء قوته ويهتدي إلى وجهته في الحياة، وبالشريعة يتعلم أي نحو مفصل ينحو بعمله في واقع أحواله المعنية كما يتعرف دقائق نظم السلوك وضوابطه)[٢].

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب ص١٨، الطبعة الأولى ١٩٨٣، دار الشروق.
(٢) الإيمان وأثره في الحياة، د. حسن الترابي، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م، دار القلم الكويت.

فالعقيدة هي الأساس الذي يضبط التشريع من أن ينحرف أو يزيغ، فيضع الأسس التي تبين مكانة الإنسان ودوره في الحياة، فهو خليفة الله في الأرض خلقه الله بصفات معينة ليقوم بهذا الدور، وسخرك هذا الكون، وأعطاه العقل الذي ميزه به عن جميع المخلوقات وأعطاه حرية الإرادة، ولكنه مع كل ذلك لا يستطيع أن يكون هو المشرع تشريعًا كاملاً وإلا ضل وانحرف لأن عقل الإنسان لا يمكنه إدراك أسرار الكون إدراكًا تامًا إلا بهدي الشرع، وجعل سبحانه الناس صنفان رجال وإناث ليكمل بعضهم بعضًا لا ليستغل أحدهم الآخر .. وعليه فالعقيدة ترسم للإنسان الخط العام الذي يسير عليه وتبين دوره في الأرض ليقيم تشريعاته ضمن هذه الأسس والمعطيات.

لذلك نجد أن القرآن الكريم قد أكد في تشريعه للأحكام على أن هذه الأحكام مرتبطة في كل جزئية من جزئياتها بالعقيدة ولا تنفصل عنها أبدًا، وكان هذا التأكيد في العهدين المكي والمدني.

ففي الفترة المكية التي تحدث فيها القرآن الكريم عن أسس العقيدة وناقش جزئياتها تحدث عن قضية حق التشريع أو الحاكمية» باعتبارها أنها حق لله وحده وأن البشر لا يمكنهم أن يشرعوا لأنفسهم، تجلى ذلك في سورة الأنعام التي كان فيها حديث مطول عن النذور والذبائح والثمار والأولاد وغيرها؛ والتي صورت الجاهلية ومدى تحكمها وتسلطها من خلال فئة معينة أسندت لنفسها حق التشريع، فكان فيها الظلم والجور وتأليه المخلوقات من دون الله، والتي شرعت القوانين لحماية هذه المعبودات الأرضية، كما بينت الآيات أن المستفيد هي تلك الفئة التي شرعت ذلك: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٣٦].

أما العهد المدني فلم ينقطع فيه الحديث عن جوانب العقيدة، إنما اختلف أسلوب العرض. ولما أصبح للمسلمين دولة صار من المناسب عرض تفصيلات

الأحكام، وكان هناك موضوعان جديدان عُرضا بتفصيل مطول هما: التشريع والجهاد، ولم يتم معالجتهما بتجرد، أي على أنهما منفصلان عن العقيدة بل تمت مناقشتهما من خلال العقيدة، انظر مثلاً في قضية الربا وكيف عالجها القرآن الكريم، يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥-٢٨٠].

فانظر أولاً لكيفية العلاج، حيث نفي كون البيع مثل الربا، وأشار للصدقات والزكاة، ومن تاب فله رأس ماله، ويجب إنظار المعسر حتى يتيسر له وفاء دينه.

وانظر للأجر العظيم الذي رتبه لذلك والذي من جملته أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وكفى بذلك أجراً عظيماً.

وانظر أيضًا لتلك التهديدات العنيفة مثل: أصحاب النار هم فيها خالدون، محق الله للربا، الحرب من الله، وغير ذلك مما تنص عليه وتشير إليه من العقوبات.

فأنَّى للتشريعات الأرضية أن تأتي بتهديد وعقاب له أثر رهيب في النفوس مثل ذلك الترهيب والتهديد، وأنىَّ لمؤمن أن يدعي الإيمان وهو يستمرئ أكل الربا. إن القوانين الأرضية والتشريعات الدنيوية فإن لم تشرع لحماية القوي وأكل الضعيف كتشريع الربا وحمايته فإنها إن شرعت للعقاب فإن عقابها يزيد المجرم إجرامًا، والشره شراهة والسيء سوءًا، إن عقوبة السجن مثلاً تتحول بالنسبة للمجرم لأمر في غاية السهولة بل قد يصبح السجن مكانًا محببًا له.

إن القرآن الكريم قبل أن يفصّل في تشريع الأحكام، عمد إلى العقيدة فأصلحها ومكنها في النفوس، حتى أصبحت هذه النفوس نفسها تتطلع إلى الخير وتنفر عن الشر، إن الخمر مثلاً قبل أن يتم تحريمه كانت النفوس مهيأة لذلك التحريم، بل كانت نفوس الكثيرين تتطلع لتحريم الخمر، حتى كان يقول عمر رضي الله عنه: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا.

لقد أقام القرآن الكريم العقيدة ذاتها ضابطًا لتنفيذ هذه الشرائع، حتى إذا أفلت المرء من الرقابة الخارجية لاحقته عقيدته ولاحقه ضميره المؤنب ونفسه اللوامة فيسارع للتخلص من هذه الإثم وتلك الجريمة؛ حتى لو أدى الأمر لقتله وإراقة دمه، كل ذلك خوفًا من عقاب الله الأخروي، ولما يعلم من أن الله يراقبه في السر والعلن.

لقد ربى القرآن الكريم ذلك الجيل الفريد من الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – فنفذوا تلك التشريعات وطبقوها بتلك الصورة الرائعة التي يشهد لم التاريخ لها مثيلاً، أقاموه بصورته الظاهرة بعد أن كانت نفوسهم مهيأة لذلك التلقي والتنفيذ، يقول سيد قطب: (ومتى استقرت عقيدة «لا إله إلا الله» في أعماقها الغائرة البعيدة؛ استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه «لا إله إلا الله» وتعين أن النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة .. واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته، وقبل أن تعرض عليها تشريعاته. فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الإيمان .. وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس تنظيمات الإسلام وتشريعاته بالرضى والقبول، لا تعترض على شيء منه فور صدوره إليها؛ ولا تتلكأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له. وهكذا أبطلت الخمر، وأبطل الربا، وأبطل الميسر، وأبطلت العادات الجاهلية كلها، أبطلت بآيات من القرآن أو كلمات من رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما الحكومات الأرضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها

ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطانها، ودعايتها وإعلامها .. فلا تبلغ إلا أن تضبط الظاهر من المخالفات؛ بينما المجتمع يعجّ بالمنبهات والمنكرات)[١].

كان الخمر متفشيًا في الجاهلية بشكل يسيطر على كل بيت وفرد، وكان ذلك من تقاليد المجتمع حتى إن أحدهم ليباهي في صرفه المال في شأن الخمر ... ولما جاء الإسلام ونزلت بعض الآيات تحرم الخمر سارع كل بيت وكل فرد للامتثال، حتى أريقت الخمر في طرقات المدينة، بل من كان في فمه شربة من خمر أراقها، سارع الجميع للامتثال من دون شرطة ولا محاكم ولا محاكمات. إن الأديان السماوية المحرفة كاليهودية والنصرانية تحرم الخمر، فما هي نتيجة امتثال هؤلاء؟ حتى الأحبار والرهبان والمتدينون منهم ... وإن كثيراً من القوانين الأرضية تحرم الخمر أو تحرم السكر أو تمنعه، فما هي النتيجة؟ لقد (حاولت الحكومة الأمريكية مرة القضاء على هذه الظاهرة، فسنت قانونًا في سنة (١٩١٩م) سمي « قانون الجفاف » من باب التهكم عليه، لأنه يمنع الريّ بالخمر! وقد ظل هذا القانون قائمًا مدة أربعة عشر عامًا، حتى اضطرت الحكومة إلى إلغائه في سنة (١٩٣٩م) وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والإذاعة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر. ويقدرون ما أنفقته الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ستين مليونًا من الدولارات، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عامًا لا يقل عن (٢٥٠) مليون جنيه، وقد أعدم فيها (٣٠٠) نفس، وسجن كذلك (٥٣٢٣٣٥) نفساً، وبلغت الغرامات (١٦) مليون جنيه، وصادرت من الأملاك ما يبلغ (٤٠٠) مليون وأربعة بلايين جنيه .. وبعد ذلك اضطرت إلى التراجع وإلغاء القانون)[٢].

ولم يكن الزنا أقل تفشيًا من الخمر في ذلك المجتمع الذي نشأ فيه الصحابة، وحينما جاء الإسلام أبطل هذه العادة القبيحة، أبطلها ببعض آيات من القرآن

---

(١) في ظلال القرآن (٢ / ١٠١٠).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٧.

الكريم، حتى إن أحدهم إذا أصاب هذا المنكر سارع بنفسه ليتم تطبيق الحكم عليه وليطهر نفسه من هذا الرجس. وهكذا أبطل الإسلام جميع المنكرات وغيّر المجتمع من مجتمع يأكل القوي فيه الضعيف إلى مجتمع الرحمة والمودة والفضيلة والأخلاق الحسنة. لقد كانت الرقابة على تنفيذ هذا التشريع داخلية نابعة من ضمير الفرد لذلك كان هذا التطبيق الفريد.

فالعقيدة هي المحرك والأساس في تلقي هذه الأحكام وتنفيذها بأكمل وجه، والعقيدة هي الضمان الوحيد لاستمرار هذا التطبيق، وكلما وجدت لفرد أو لمجتمع سمواً روحيًا وزيادة إيمان وجدت تطبيقًا فريداً من نوعه.

ثالثًا: أسلوب القرآن في ربط الأحكام بالإيمان:

[١] كثيراً من آيات التشريع والأحكام تصدر بالنداء ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ وذلك ليستشعر المخاطبون إيمانهم، وليدل على صلة الأحكام بالإيمان.

[٢] الربط بين الأحكام والإحسان: ﴿ ... **وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وفيه حث على الإتيان بالأحكام على أحسن وجه.

[٣] الربط بين الأحكام والبرِّ: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢].

[٤] الربط بين الأحكام والشكر: ﴿ **وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة: ٦].

[٥] الربط بين الأحكام والتقوى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأي مؤمن لا يريد أن يكون مؤمنًا حق الإيمان فيكون مؤمنًا محسنًا شاكرًا بارًا تقيًا؟! إن من يريد أن يكون كذلك لابد أن ينفذ هذه الأحكام في الظاهر والباطن.

إن كثيراً من التشريعات الشائكة في حياة الإنسان لا يضبط تنفيذها إلا

الإيمان وإلا الرقابة الداخلية، فالطلاق من أكثر القضايا الشائكة التي تجعل المرء قلما يتذكر فيها المنطق والعدل والإحسان، فحينما تشتد الخلافات بين الزوجين وتصل لحد الطلاق، فنجد الكثير من الرجال ممن يضر بالمرأة مستخدمًا حق القوامة وحق الطلاق استخدامًا سيئًا، وخاصة أن المرأة إذا طلقت حل لها مؤجل المهر – غالباً – مما يحمل الرجل على الانتقام بشتى الوسائل. كان الرجل في الجاهلية يطلق المرأة حتى إذا قارب انتهاء أجلها راجعها ليُضرّ بها. أما القرآن الكريم فعالج هذه القضية مبيناً حرمة الإضرار بالمرأة ومذكرًا بالتقوى، ففي سورة الطلاق نجد الآيات: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾.

المبحث الثاني
خصائص التشريع القرآني

إن للتشريع في القرآن الكريم مزايا وخصائص لم تجتمع لنظام قانوني من قبل ولا من بعد، ويمكن الإشارة لأهم هذه الخصائص، وهي:

أولاً: الربانيـــة:

فالشريعة في القرآن ربانية المصدر والهدف: ويراد بربانية المصدر أن أحكام هذه الشريعة وأسسها ليست من وضع بشر يحكمه القصور والعجز والتأثر بمؤثرات المكان والزمان والحال والثقافة، ومؤثرات الوراثة والمزاج والهوى والعواطف. وإنما شارعها هو صاحب الخلق والأمر في هذا الكون، ورب كل من فيه وما فيه، الذي خلق الناس وهو أعلم بما ينفعهم ويرفعهم ويصلح أمرهم[1] إنه صادر ممن هو أعلم بحقيقة الكائن الإنساني والحاجات الإنسانية وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان وما تحكمه من قوانين. وعليه فلا يكون في هذا المنهج تفريط في شيء من أمور الحياة، ولا يقع فيه أي تصادم مدمر بين أنواع النشاط الإنساني، ولا أي تصادم بين النشاط الإنساني والقوانين الكونية، إنما يكون التوافق والتوازن والتناسق والاعتدال وهو أمر يصعب وجوده لمنهج من صنع الإنسان.

ويراد بربانية الهدف؛ أن هدف هذه الشريعة الأول هو ربط الناس بالله تبارك وتعالى؛ حتى يعرفوه حق المعرفة؛ ويعبدوه حق العبادة. وليس هذا خاصاً بالعبادات المحضة كالصلاة والصيام والزكاة والحج؛ إنما يشمل ذلك سائر أحكام الشريعة في مجالاتها الأسرية والمدنية والجنائية والدولية وغيرها.

---

(١) انظر شريعة الإسلام، للقرضاوي، ص ١٨.

فالقصد من هذه التشريعات أن يستريح الناس في حياتهم ويتحرروا من النزاع والتظالم والصراع على المتاع الأدنى ...

ثانياً: الإنسانية العالمية:

فأحكام الشريعة ومبادئها ذات صبغة عالمية، فهي هداية للناس كافة؛ وليست تشريعاً لجنس خاص من البشر أو لإقليم معين؛ إنما هي للإنسان من حيث هو إنسان: أبيضاً أو أسوداً، عربياً أو أعجمياً في أي طبقة من طبقات المجتمع فرداً كان أو ملكاً؛ غنياً أو فقيراً، فلا عنصرية ولا عصبية ولا طبقية (إنها الشريعة العالمية التي استطاع علماء القانون أن يتخيلوها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يوجدوها)[1].

ثالثاً: الموازنة بين الفرد والمجتمع:

فالشريعة حفظت للفرد كامل حقوقه كما حفظت للمجتمع كامل حقوقه، فلا يطغى حق على حق على حساب الآخر. فالفرد يحق له أن يتصرف بحقوقه دون الإضرار بحقوق المجتمع وضمن أحكام الشريعة.

(ولعل من أوضح الأمثلة قضية الملكية فقد أباحت للأفراد أن يتملكوا لأن في ذلك إشباعاً لدافع فطري أصيل، كما أن التملك من دلائل الحرية والسيادة والقدرة، فالحر هو الذي يملك سراً وجهراً، والعبد المملوك لا يقدر على شيء لأنه لا يملك شيئاً. بل الملكية من خصائص الإنسانية أيضاً لأن البهائم لا تملك، وهذا فضلاً عما يعطيه التملك للفرد من حوافز تدفعه دائماً إلى الإنتاج والإتقان والتفوق.

ولكن الشريعة تقيد حق الملكية الفردية بقيود كثيرة لمصلحة المجتمع، فهي ليست كالملكية في النظام الرأسمالي، التي تكاد تكون مطلقة من كل قيد، بل تضع الشريعة قيوداً على طرق التملك؛ وقيوداً على طرق تنمية الملك؛ وقيوداً

---

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، عبد القادر عودة، ص ١٤، وشريعة الإسلام للقرضاوي، ص ١٩ – ٢٠.

على التوزيع؛ وقيودًا على الإنفاق والاستهلاك؛ وقيودًا على كل العمليات الاقتصادية التي تتبادل بوساطتها الأموال والمنافع. وبعض هذه القيود أخلاقية يقوم عليها الإيمان، وبعضها الآخر قانوني تقوم عليه السلطة. والهدف من ذلك هو إقامة القسط بين الناس؛ وإشاعة التكافل والتراحم بينهم، حتى لا يمتص بعض الأقوياء الضعفاء بوسائل الاحتكار والربا وما يتبعهما؛ ولا يكون المال دُولة بين الأغنياء.

وفلسفة الشريعة هنا أن الفرد وإنْ كسب المال وتملكه؛ ليس هو المالك الحقيقي له، إنما المالك هو الله، والإنسانُ مستخلف فيه وأمين عليه، فتصرفه فيه تصرف الوكيل المقيد بمشيئة الموكل وأوامر وتوجيهاته. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧][١].

رابعًا: العدل المطلق:

وهدف الشريعة هو العدل المطلق بين جميع الأفراد وصيانة دماء جميع الناس وأعراضهم وأموالهم وعقولهم، وليست الغاية تحقيق مصلحة طبقة دون طبقة، ولا شعب دون شعب، وليست الغاية تحقيق المصلحة الاقتصادية مع إهمال الناحية الخلقية والروحية، ولا المصالح الدنيوية على حساب الأخروية كما تفعله القوانين الأرضية، ولا العكس كما في بعض الديانات والمذاهب المتطرفة.

ومراعاة جميع هذه الاعتبارات يستحيل تحققه في تشريع بشري، لأن الإنسان دائمًا ينظر من زاوية ويغفل زوايا كثيرة، أما الذي ينظر النظرة المحيطة فهو الخلاق العليم الذي وسع علمه كل شاردة وواردة وكل صغيرة وكبيرة[٢].

خامسًا: الجمع بين الثبات والمرونة:

فالثبات في الأصول والأهداف، والمرونة في الفروع والوسائل.

فالتشريع بمرونته يستطيع أن يتكيف ويواجه التطور ويلائم كل وضع

---

(١) شريعة الإسلام، للقرضاوي، ص ٢٢

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠

جديد، وهو بثبات أصوله وأهدافه يستعصي على الذوبان والميوعة والخضوع لكل تغيير. لأن مهمة التشريع تصويب الخطأ وتقويم الاعوجاج، لا أن يخضع له ويبرر قيامه ويصحح وجوده باسم التطور، إنه وُضع ليرقى بالمجتمع ويُخضع ظروف هذا المجتمع وأوضاعه لهدايته وتوجيهه.

وليس معنى ذلك هو جمود الناس أمام هذا التشريع، ولكن للاجتهاد البشري مجال كبير من خلال فهم النصوص واستنباط الأحكام؛ ومن خلال القياس والمصلحة والاستحسان والعرف وغيرها من الأدلة.

فهناك منطقة محرمة لا يدخلها الاجتهاد، وهي منطقة «القطعيات» من الأحكام التي جاءت بها النصوص وأجمعت عليها الأمة، كفرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج، وتحريم الزنا والخمر والميسر والربا، وتحديد أنصبة المواريث. فهذه ومثلها لا يجوز أن تكون موضع جدل، كأن يبحث البعض في جواز تعطيل الزكاة اكتفاء بالضرائب؛ أو تعطيل فريضة الحج توفيراً للعملة الصعبة؛ أو تعطيل الصيام تشجيعًا للإنتاج؛ أو إباحة الزنى والخمر ترغيبًا في السياحة؛ أو إباحة الربا دعمًا للتنمية والإنتاج.

وهناك منطقة بل مناطق مفتوحة للاجتهاد البشري، وهي منطقة «الظنيات» من الأحكام، وهي كثيرة، بل هي أكثر الأحكام الشرعية العملية. فأما ما فيه نص شرعي فلتفسير النص مجال كبير حيث يفهم من ظاهر النص أمور وقد يؤخذ الحكم من فحوى النص ودلالته وإشارته. وأما ما لا ينص فيه فهناك القياس والاستحسان والمصالح المرسلة والعرف ونحوها. كما أن هناك قواعد تشريعية مأخوذة من استقراء النصوص مثل: الضرر يزال، والضرر لا يزال بالضرر، ويتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام والأدنى لدفع الأعلى، والضرورات تبيح المحظورات، والضرورات تقدر بقدرها، والمشقة تجلب التيسير، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وهكذا[١].

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٢-٢٣، باختصار.

سادساً: الجمع بين الدين والدنيا:

فالشريعة القرآنية شرّعت للدنيا والآخرة، وهذا هو السبب الأهم الذي يحمل على طاعتها في السرّ والعلن والسراء والضراء، لأنهم يؤمنون – طبقاً لأحكام الشريعة – بأن الطاعة نوع من العبادة تقربهم إلى الله؛ وأنهم يثابون على هذه الطاعة، ومن استطاع منهم أن يرتكب جريمة ويتفادى العقاب فإنه لا يرتكبها مخافة العقاب الأخروي وغضب الله عليه، وكل ذلك مما يدعو إلى قلة الجرائم وحفظ الأمن وصياغة نظام الجماعة. بعكس الحال في القوانين الوضعية؛ فإنها ليس لها في نفوس من تطبق عليهم ما يحملهم على طاعتها، وهم لا يطيعونها إلا بقدر ما يخشون من الوقوع تحت طائلتها، ومن استطاع أن يرتكب جريمة ما – وهو آمن من سطوة القانون – فليس ثمة ما يمنعه من ارتكابها من خلق أو دين، ولذلك تزداد الجرائم زيادة مطردة في البلاد التي تطبق القوانين وتضعف الأخلاق، ويكثر المجرمون في الطبقات المستنيرة تبعاً لزيادة الفساد الخلقي في هذه الطبقات؛ ولمقدرة أفرادها على التهرب من سلطان القانون(١).

---

(١) الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه لعودة، ص ١١.

المبحث الثالث
الأسس التي قام عليها التشريع القرآني

إن أهم الأسس التي قام عليها التشريع في القرآن الكريم يمكن إيجازها بما يلي:

أولاً: عدم الحرج:

لا يوجد في التكاليف الشرعية في القرآن الكريم شيء من الحرج يعسر على الناس ولا يمكنهم فعله. ولا يعني ذلك انتفاء أصل الحرج من جميع الأعمال، وذلك أن المشقة نوعان:

النوع الأول: مشقة معتادة، وهذه لا تعتبر في الحقيقة مشقة؛ لأن كل عمل في الحياة لابد له من مشقة، حتى حاجات الإنسان التي لا غنى له عنها من الأكل والشرب واللبس ونحوها لابد لها من مشقة، فمثل هذه لا مانع من وقوعها في التكاليف الشرعية، لأنه لا يمكن أن يكون تكليف ما إلا بمشقة، والتكليف مأخوذ لفظه من الكلفة وهو المشقة، فالصلاة والصيام والحج والزكاة وجميع الأعمال فيها مشق لكنها معتادة.

النوع الثاني: مشقة غير معتادة، وهي التي تضيق بها الصدور؛ وتؤثر على المرء في جسمه أو ماله؛ وتؤدي به إلى الانقطاع عن كثير من الأعمال النافعة. فمثل هذه هي التي تفضل الله على هذه ورفعها عنهم تيسيراً عليهم.

وذلك أن الله سبحانه لا يريد أن يعسر على هذه الأمة فلا يكلفها بما يشق عليها، يقول سبحانه: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويقول: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ**﴾ [النساء:٢٨]، ويقول: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ**﴾ [المائدة: ٦]، ويقول: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [الحج:٧٨].

إننا لو قارنا تكاليف هذه الأمة بتكاليف اليهود التي كلفوا بها عقاباً على

ظلمهم ليشق عليهم كما قال سبحانه: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠-١٦١]، أما التكليف بالنسبة للمسلمين هو إحلال الطيبات وتحريم الخبائث: ﴿ ... يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فقد أوجب الله على المكلف خمس صلوات، وكانت قد فرضت في أول الأمر خمسين صلاة فخففت لخمس، ويجب أداءها قائمًا فرخص له أن يصليها قاعدًا فإن لم يستطع فعلى جنب، كما رخص للمسافر قصر الصلاة وجمعها. وأوجب الله صوم شهر في السنة ورخص لمن يشق عليه الفطر كالمسافر والمريض والحامل والمرضع. وأوجب الحج على المستطيع. وحرم الميتة وأباحها للمضطر. وأوجب الوضوء والغسل ورخص بالتيمم. ونهى عن المعاصي وشرع التوبة والاستغفار، ... وهكذا فإن مظاهر التيسير واضحة في جميع الأحكام.

إن المتأمل في القرآن الكريم يجد أن التشريع القرآني قد حافظ على ضرورات الحياة وشرع الأحكام لحماية هذه الضرورات، والتي صارت تسمى بالضرورات الخمس، والتي مفادها حفظ مصلحة الإنسان في دينه ودنياه، والتي تتلخص في: حفظ الدين، والنفس، والعرض أو النسل، والمال، والعقل. فأوجب الجهاد لحفظ الدين، وحكم بالقصاص وحرم قتل النفس لحفظ النفوس، وأوجب الحد على القذف والزنا لحفظ النسل، وجعل حد السرقة لحفظ الأموال ... والفقهاء فهموا من النصوص قاعدة الضرورات تبيح المحظورات، حيث تباح المحرمات للحفاظ على هذه الضرورات، لكن بضوابط معينة، مثل: الضرر لا يزال بالضرر، ويتحمل الضرر الأدنى لدفع الأعلى والضرر الخاص لدفع العام، والضرورات تقدر بقدرها ونحوها.

لكننا نجد بعض التكاليف فيها مشقة كبيرة لما فيها من القتل والتعرض

لأنواع الأذى كالقتال، لكن الشارع أوجبه رغم هذه المشقة الكبيرة لما فيه من مصلحة عظمى، قال سبحانه: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾

[البقرة: ٢١٦].

ثانياً: قلة التكاليف:

امتازت الشريعة القرآنية عما تقدمها بقلة التكاليف، حيث لم تثقل المكلفين بالأوامر والنواهي، بل سلكت بهم طريقًا وسطًا لا عنت فيه ولا إرهاق.

يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ** ﴾ [المائدة: ١٠١-١٠٢]، (فأنت ترى أن الله تعالي ينهانا عن التعمق في المسألة والتشدد فيها لئلا يكون ذلك سبباً في فرض أحكام لم تكن مفروضة؛ فنعجز عن الامتثال لكثرة الفرائض فنهلك مع الهالكين. فهذه الآية تنادي بأن الله قد راعى قلة التكاليف حتى يسهل علينا الامتثال، وحتى لا نقع في العنت والمشقة)[١].

وتؤكد السنة هذا المفهوم حيث يقول النبي ﷺ: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها**»[٢] وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجّوا**» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: «**لو قلتُ نعم لو جبت ولما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم**

(١) تاريخ الفقه الإسلامي، محمد علي السايس، ص ٢٦، بدون تاريخ للطبع.

(٢) رواه الدارقطني في سننه (٤/ ٨٤) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ١٧) وحسنه النووي في الأذكار (حديث رقم ١٠٨٢). باب الأحاديث التي عليها مدار الإسلام، ووافقه على تحسينه ابن حجر والعراقي وصححه ابن الصلاح كما في الفتوحات الربانية، (٧ / ٥٣٦).

واختلفهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[١].

وليست العبرة الأساسية بكثرة العمل، وذلك أن المرء قد يعمل عملاً يدخله النار، فالعبرة بالخاتمة، ففي الأحاديث أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وامرأة كانت صوامة قوامة ولكنها كانت تؤذي جيرانها فدخلت بعملها النار، بينما كانت امرأة بغي في بني إسرائيل سقت كلبًا فغفر الله لها وأدخلها الجنة، والرجل الذي كان من أهل الجنة بسبب أنه كان يبيت وليس في قلبه حقد على أحد من المسلمين، لذلك يقول النبي ﷺ: **«لا يدخل أحدكم الجنة بعمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل»**[٢].

ثالثًا: التدرج في التشريع:

جاء الإسلام والعرب في إباحة واسعة يكرهون كل ما يقيد حريتهم ويحدّ من شهواتهم، وقد تمكنت من نفوسهم عادات كثيرة وغرائز متنوعة لا يستطيعون التحول عنها دفعة، فاقتضت الحكمة الإلهية ألا يفاجأوا بالأحكام جملة فتثقل بها كواهلهم وتنفر منها نفوسهم، فلذلك نزل القرآن نجومًا ووردت الأحكام التكليفية شيئًا فشيئًا ليكون السابق من الأحكام معدًا للنفوس ومهيأ لقبول اللاحق، فيكون ذلك أوقع في النفوس وأقرب إلى الانقياد[٣].

فالقرآن الكريم قبل أن يفرض أحكامًا كان قد هيأ النفوس لذلك، فانتزع الشرك من النفوس وأثبت عقيدة التوحيد، فأصبحت النفوس مهيأة لترك الخبائث وعمل الصالحات.

---

(١) رواه مسلم في الحج باب (٧٣) والنسائي في مناسك الحج باب وجوب الحج.
(٢) رواه أحمد (٢/٢٥٦) ومسلم في صفات المنافقين باب (١٧).
(٣) تاريخ الفقه الإسلامي للسايس، ص ٢٧.

وأسلوب القرآن في التدرج لم يكن في جميع العادات المتأصلة في نفوسهم، فإن كان الأمر أو النهي يتعلق بمسألة الإيمان فإنه يقضي عليها قضاء مبرمًا منذ اللحظة الأولى ولم يتدرج فيها كعبادة الأصنام والذبح على النُّصب ونحوها. أما إن تعلق الأمر أو النهي بعادة أو تقليد أو وضع اجتماعي فإن القرآن يتريث به ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج ويهيِّئ الظروف التي تيسر التنفيذ والطاعة، وذلك كالخمر والربا والزنى (فقد نُفِّذ قانون الوراثة في سنة ثلاث من الهجرة، وتمت قوانين النكاح والطلاق شيئًا فشيئًا إلى سنة سبع، وما زالت القوانين الجنائية تنفَّذُ مادة مادة إلى أن تكملت في سنة ثمان، ومازال يُعمل بصفة غير منقطعة إلى عدة سنوات لتمهيد الأرض وتوطيد الجو لتحريم الخمر؛ إلى أن أُعلن تحريمها النهائي بصفة قطعية في سنة ثمان، والربا وإن كان قد نُعي على المتعاملين به بكل صراحة؛ لم يُلْغَ على الفور مع قيام الدولة الإسلامية في المدينة؛ ولكن لما تم العمل لإفراغ نظام الاقتصاد كله في القوالب الجديدة؛ أعلن تحريمه وإلغاؤه بصفة نهائية قطعية في سنة تسع)[1].

لقد كان تحريم الخمر على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بيان أن في الخمر إثمًا كبيرًا، وفي هذا تمهيد للتحريم، قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** .. ﴾ [البقرة: ٢١٩].

والمرحلة الثانية: النهي عن الصلاة حال السكْر من الخمر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ... ﴾ [النساء: ٤٣].

والمرحلة الثالثة: وفيها النهي التام عن الخمر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة: ٩٠].

---

(١) القانون الإسلامي وطرق تنفيذه، ص ٥٢، الطبعة الأولى ١٩٧٥م، مؤسسة الرسالة.

وكانت عقوبة الزاني في صدر الإسلام لا تعدو الحبس في البيوت والإيذاء بالقول، ثم صارت العقوبة الجلد للبكر والرجم للمحصن.

وأول ما فرضت الصلاة ركعتين، فأقرت في السفر وزيدت في الحضر. وكان صوم يوم عاشوراء واجبًا ثم فرض صيام رمضان. وكانت الوصية للوالدين والأقربين ثابتًا وغير محدد ثم نزلت آيات المواريث. وكان التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس لئلاً يفاجأ أهل الكتاب بخلاف ما عهدوه عن أنبياء بني إسرائيل ثم تم تحويل القبلة إلى المسجد الحرام.

الفصل الثامن

أنظمة الحياة في القرآن الكريم

المبحث الأول: نظام العبادة

المبحث الثاني: النظام الاجتماعي

المبحث الثالث: النظام الاقتصادي

المبحث الرابع: النظام الأخلاقي

المبحث الخامس: نظام الحكم



المبحث الأول
نظــام العبــادة

أولاً: الصـــــلاة

الصلاة ركن من أهم أركان الإسلام، فهي عمود الدين وأساسه، من أقامها فقد أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين، فهي شعار مهمّ للمسلم، وصلة للإنسان بربه، يذكر فيها الأركان الأساسية التي تمثل الدين وتختصره في تلك القواعد، فإذا تأمل تلك الأذكار وتعمق فيها اتصل بالله سبحانه وتعالى حق الاتصال، وتحقق بمقام العبودية الحقة لله سبحانه وتعالى. وقد اعتبرها النبي ﷺ أنها تمثل الحد الفاصل بين الإسلام والكفر، فقال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[1] أي من أقامها فأعماله تكون أقرب للمسلمين، ومن تركها كانت أعماله أقرب لأعمال الكافرين.

وقد اختلف الفقهاء في تارك الصلاة تكاسلاً، فذهب جمهور العلماء إلى أنه فاسق فسقًا شديداً، لأنه ترك أعظم أركان الإسلام، وذهب الإمام أحمد إلى أن تاركها تكاسلاً يكون كافرًا يخرج من الملة ويعامل معاملة الكافر فيقتل كفرًا وتكون زوجته قد طلقت منه ولا يقبر في مقابر المسلمين، ويرى مالك والشافعي أنه يقتل حداً، ويرى أبو حنيفة أنه يحبس حتى يصلي. ويرجح جمهور العلماء القول بأنه فاسق، لأن النصوص التي أشارت لكفرة تحتمل تفسيرات متعددة، مثلها مثل الكثير مس النصوص النتي ظاهرها يطلق الكفر وهو ليس على ظاهره مطلقًا.

وقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بشأن الصلاة، فأمر بإقامتها، ومعنى

( ) رواه مسلم(٣٤ ،

إقامتها هو المداومة على فعلها والمحافظة عليها بإتمام ركوعها وسجودها وجميع أركانها، كذلك الإتيان بأفعالها الباطنة من الخشوع والإقبال عليها.

ورغم الحديث المطول عن الصلاة، فإن القرآن الكريم لم يفصل القول في أحكامها، بل أشار إشارات لبعض أحكامها.

وأهم ما في الصلاة قراءة سورة الفاتحة التي تضمنت اختصاراً للمعنى الشامل للقرآن الكريم، حيث حوت في طياتها أساس المنهج الذي يميز المؤمن في حياته، لذلك وردت الأحاديث في بيان فضل هذه السورة وأنها أعظم سورة في القرآن، فقد قال النبي ﷺ لأبيّ بن كعب: «**أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟**»[١] ثم أخبره أنها سورة الفاتحة.

وأهم أثر للصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [العنكبوت:٤٥]، وفي الحديث: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر**»[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٧٥) وقال: حسن صحيح.

(٢) مسلم (١٦).

ثانياً: الصوم

والصوم مدرسة إيمانية يتربى فيها المرء على مراقبة الله تعالى، يربي فيها روحه على مراقبة الله تعالى، ويربي فيها شهوته على ترك المباحات ليكون ذلك معيناً له على ترك المعاصي، فإن الصوم كما قيل يعقم الشهوة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [البقرة:١٨٣]، يقول السيد محمد رشيد رضا: (هذا تعليل لكتابه الصيام ببيان فائدته الكبرى وحكمته العليا، وهو أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده، فترى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون عليه، ولذلك قال ﷺ: «**الصيام نصف الصبر**»[١]. وقال البغوي في معالم التنزيل: (﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ يعني بالصوم، لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات)[٢]. وقال ابن الجوزي: (﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ لأن الصيام وصلة إلى التقوى، إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه من المعاصي، وقيل: لعلكم تتقون محظورات الصوم)[٣]. وقال الألوسي: (﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ أي كي تحذروا المعاصي فإن الصوم يعقم الشهوة التي هي أمها أو يكسرها ... ويجوز أن يكون الفعل منزلاً منزلة اللازم، أي لكي تصلوا بذلك إلى رتبة التقوى)[٤].

فالصوم يورث في نفوس الصائمين التقوى، يقول أبو الأعلى المودودي (الصوم يدرب المسلمين أفراداً، والمجتمع الإسلامي جماعة على تقوى الله وخشيته تعالى شهراً كاملاً في كل عام)[٥].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ١٤٥)

(٢) معالم التنزيل (١/ ١٤٩) الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار المعرفة، بيروت

(٣) زاد المسير (١/ ١٨٥) الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ، المكتبة الإسلامية، بيروت

(٤) روح المعاني (٢/ ٥٧)

(٥) نظام الحياة في الإسلام ص ٩٠، طبع دار الدعوة

ويظهر إعدادُ الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى من وجوه كثيرة، أعظمها شأنًا: أن أمر الصيام موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب عليه إلا الله، فإذا ترك الصائمُ شهواته التي تعرض له أثناء الصوم امتثالاً لأمر الله تعالى، وراض نفسه على الصبر كلما أغرتها الطيبات والشهوات شعوراً منه بأن الله تعالى يراقبه، وأنه مطلع على سر نفسه، وتكرر منه ذلك شهرًا كاملاً، فلا جرم أن يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة مراقبة الله تعالى وخشيته، والحياء من الله أن يراه حيث نهاه، والقدرة على ترك ملذات يجمل به أن يتخلى عنها، كما أن مراقبة الله تؤهله لكل أعمال الخير وتبعده عن الشر، فلا يخدع ولا يغش ولا يظلم ولا يهضم حقًا ولا يسعى في الفساد بين الناس.

أما مجرد الإمساك عن الطعام والشراب مع عدم مراقبة الله تعالى مما يسهل عليه ارتكاب الآثام فليس هو الصيام الذي فرضه الله على المؤمنين، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**[١].

كذلك يعد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله من جهة أن الصوم يخفف الشهوة التي هي أم المعاصي، ولهذا يقول الرسول ﷺ: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغضّ للبصر وأحصن للفرج. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[٢][٣].

والقرآن الكريم خفف على من يشق عليه الصوم لعارض، فأباح للمسافر والمريض أن يقضي في أيام غيرها، وإن كان القرآن لم يحدد مسافة السفر الذي يباح به الفطر، ولا المرض، فجعل البعض مطلق السفر والمرض، واعتبر البعض أن السفر المبيح للفطر هو الذي تقصر فيه الصلاة، وقد اختلفوا فيه أيضاً فجعلهم بعضهم مسافة أربعة برد، وهو ما يساوي حوالي ثمانين كيلو متراً، واعتبره بعضهم مسافة ثلاثة فراسخ، أي حوالي سبعة عشر كيلو متراً.. والتنصيص على

(١) رواه البخاري (٤/ ٩٩). (٢) رواه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).
(٣) روح الدين الإسلامي، ص ٢٥٥.

السفر والمرض لكونهما مظنة وجود المشقة. والأولى في الاعتبار هو وجود العلة وهي السفر أو المرض، مع وجود الحكمة وهي المشقة، أي السفر والمرض الذي فيهما المشقة يكون فيه الفطر.

كما خفف القرآن الكريم على من يشق عليه الصوم مطلقًا كالشيخ المسنّ والمرضع والحامل والمريض الذي لا يرجى برؤه، وهؤلاء يطعمون عن كل يوم مسكينًا، قال تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ [البقرة: ١٨٤].

ثالثاً: الزكـــــاة

الزكاة هي الصدقة المفروضة على الأموال، وتعتبر الركن الثالث في الإسلام بعد الشهادة والصلاة، وقد حث عليها القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعاً، وقرنت في كثير من الأحيان بالصلاة، وهي عبادة دينية وواجب اجتماعي، وهي ليست حلاً للمشاكل الاقتصادية فحسب، بل هي نظام اجتماعي هدفه تحقيق التكافل بين أفراد المجتمع، بشكل يزيد اللحمة الاجتماعية ويزيل الفوارق بين الأفراد، فيحل مشكلة الفقير مع ضمان كرامته الشخصية له ولأفراد أسرته، فهي فريضة (تستهدف سلامة البنية الاجتماعية، إذ تعمل على تربية الشعور بالمسؤولية لدى الأغنياء، وإحساس الفقراء بالاطمئنان والرضا، وتقوي الأواصر بين الأفراد، وتزكي روح الانتماء للوطن، وتسد ذريعة المفاسد التي تنجم عن تضخم الأموال لدى الرأسماليين، وانحصار الثروات في أشخاص معدودين)[١].

وهي تجب في الأموال الزائدة عن الحاجات الأساسية الفردية والجماعية، حتى لو كانت للرفاهية المباحة، وهي تجب فيما يلي:

١- الذهب والفضة:

ونصابه عشرون مثقالاً، وهو ما يزيد عن ثمانين غراماً تقريباً، أما الفضة فمائتا درهم ويجب فيهما ربع العشر أي اثنان ونصف بالمائة.

أما النقود فحكمها حكم الذهب عند أكثر الفقهاء المعاصرين، وإن كان البعض يقيمها بأقل النقدين الذهب والفضة مراعاة لحق الفقير، ولكن الأولى هو اعتبار الذهب باعتباره أكثر ثباتاً. وتحسب قيمة الذهب من دون صياغة أي ذهباً خالصاً أو ما في حكم الخالص. أما الأسهم التجارية فتقيم بقيمتها وتعتبر مالاً فتدفع زكاتها رأس كل حول، وإن كان البعض يعتبر زكاتها حين حصول الغلة

(١) الزكاة الضمان الاجتماعي الإسلامي لعثمان حسين ص١٧، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، دار الوفاء، مصر.

فيزكى مرة واحدة ولو كان أكثر من سنة، ولعل الأولى اعتبارها مالاً بحسب كل سنة خروجًا من الخلافات.

٢- الأصناف المعدة للتجارة:

حيث تعتبر مالاً، وينظر لأول الحول وآخره، وتحتسب قيمة هذه الأصناف حين حلول رأس الحول بسعرها دون الذي يمكن أن يربح فيها. واعتبر البعض في رأي لهم يعتبر شاذاً أنه لا زكاة في عروض التجارة.

٣- المحصولات الزراعية:

وهو ما تنص عليه الآية الكريمة ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الانعام:١٤١]، وقد اختلف العلماء اختلافًا كبيرًا في الأصناف التي تجب فيها الزكاة، فيرى الحنفية أنها تجب في كل ما أنتجته الأرض بما فيها الخضروات، ويرى آخرون أنه يجب في الأقوات المدخرة، ويخصصها آخرون في أصناف معينة.

ويجب العشر فيما يسقى بماء المطر أو النهر أو العين، ونصف العشر فيما سقي بآلة، وإن اختلف كان الحكم للأغلب.

٤- الإبل والبقر والغنم:

وذلك إذا كانت سائمة، أي ترعى من الكلأ المباح أكثر السنة، وللفقهاء تفصيلات مطولة في أنصبتها والواجب فيها.

ويشترط في الزكاة أن يحول عليه الحول وهو سنة قمرية كاملة، إلا في الزروع فتجب حين حصاده.

مصارف الزكاة

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠].

١- الفقراء والمساكين:

تشير كلمة الفقير إلى من هو قليل أو معدوم المال، وفقر في اللغة تعطي معنى الانفراج في الشيء من عضو أو غيره، ومنه فقار الظهر، ومنه اشتق اسم الفقير، وهو المكسور فقار الظهر من ذلته ومسكنته. أما المسكين فهو من السّكَن، وهو خلاف الاضطراب والحركة، وهو الذي أسكنه الفقر، وهو من لا شيء له أو له ما لا يكفيه، أو هو الذي سكن في بيته ولم يتعرض لسؤال الناس.

وقد اختلفوا في الفرق بين الفقير والمسكين، فقيل: المسكين الذي لاشيء له، والفقير الذي له بلغة من العيش، وقيل: المسكين أحسن حالاً من الفقير.

ولعل الأولى بالاعتبار هو أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد:١٦] ومن اعتبر أن المسكين أحسن حالاً من الفقير استدل بالآية ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف:٧٩] لكن المقصود بالسكون هنا السكون عن الحركة أي لا قدرة لهم عن الدفع عن أنفسهم، لا من المساكين الذين لا مال لهم.

ويؤيده أن أكثر حديث القرآن عن المساكين بشأن إطعامهم.

وعليه، فالفقير هو الذي لا يملك مالاً تجب فيه الزكاة، ومن ملك ما تجب فيه الزكاة فهو غني، ودونه الفقير. أما المسكين الذي ليس له ما يكفيه لسد حاجته من طعام ولباس وما يحتاجه الإنسان من ضرورات.

والجمع بين الفقراء والمساكين من عطف الخاص على العام، أي الفقراء بشكل عام والمساكين بشكل خاص. وهو ما يشير لقضية، وهي أن الهدف من الزكاة ليس هو فقط تأمين الحاجيات الضرورية، بل هو إخراج الناس من حالتهم ليصبحوا أغنياء، إلا أنه يراعى الأكثر حاجة، فإذا تم إطعام الناس فلا يعني توقف دفع الزكاة بل ليكون جميع الناس أغنياء، وقد مر مثل هذه الحالة زمن عمر بن عبد العزيز حيث أصبح ينادي المنادي في الطرقات فلا يجد أحداً يستحق الزكاة.

٢- العاملون عليها:

وهم الذين يعملون في جمع الزكاة وتوزيعها، فيعطون على قدر أعمالهم.

٣- المؤلفة قلوبهم:

وهم أربعة أصناف: إما لتأليف قلوبهم لمعونة المسلمين، أو لكف أذاهم عن المسلمين، أو لترغيبهم في الإسلام، أو ترغيباً لقومهم وعشائرهم على الإسلام، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

٤- في الرقـــاب:

أي في فك الرقاب وهم الأرقاء ليتم إعتاقهم ليكونوا أحراراً.

٥- الغارمـــون:

وهم الذين ركبتهم الديون، وهم ثلاثة أقسام:

أ- من استدان في سفاهة وإسراف لينفقه في الحلال والحرام، فيرى الأكثرون أنه لا يعطى إلا إذا تاب.

ب- من استدان في تجارة يحسن تدبيرها أو لحاجة ولم يستطع وفاءها فيعطى من الزكاة.

جـ- من استدان لمصلحة عامة كالإصلاح بين الناس، فيسدد عنه ولو كان غنياً.

٦- ابن السبيل:

وهو المسافر المنقطع الذي لا يجد مالاً يوصله إلى وطنه، فإن كان غنياً فقيل يطعى ولا يُرجع ما أخذه، وقيل: يعطى ديناً فيسترد حين عودته لأهله.

٧- في سبيل الله:

وهم الغزاة والمرابطون والدعاة إلى الله تعالى ومن في حكمهم كالمؤسسات التعليمية الدينية في التعليم ونشر العلم، وكل ما يؤدي لخدمة هذا الدين وإعلاء شأنه.

رابعًا: الحج

الحج رحلة إيمانية عظيمة تتربى فيها روح المؤمن على الزهد والتقشف والتجرد عن كل زينة. ويحيي في نفس الإنسان شعور الاتصال بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وهو ما يفيد أن دين الإسلام ما هو إلا امتداد حقيقي لدين إبراهيم وجميع الأنبياء.

وكان العرب قبل الإسلام يحجون إلى البيت الحرام الذي بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لكنه كان يشوبه الكثير من الخرافات الشركية المنحرفة عن تعاليم الأديان، فكانوا يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون، فأشار القرآن لذلك بقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** ﴾ [الأنفال:٣٥]، أي صفيرًا وتصفيقًا.

والكعبة المشرفة هي أول بيت وضع للناس للعبادة، فقد أمر الله سبحانه إبراهيم برفع القواعد من البيت ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ [البقرة:١٢٧]، وقد كلف الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من دنس الكفر والمعاصي لتكون العبادة فيها خالصة لله تعالى، قال سبحانه: ﴿ **وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [البقرة:١٣٥].

والحج يحقق للمسلمين منافع عظيمة، قال تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ﴾ [الحج:٢٧-٢٩].

أي اعلمهم بوجوب الحج يأتوك ما بين راجل أي ماشي، وراكب على كل ضامر، وهو البعير المهزول الذي أتعبه السفر، يأتوك من كل فج عميق أي طريق واسع بعيد.

ليشهدوا منافع لهم، وهذه المنافع أولها ديني ليعبدوا الله وحده على الطريقة الصحيحة السليمة. ومنافع اجتماعية حيث يلتقي الناس جميعًا على صعيد واحد، لا فرق كبير وصغير ولا أسود وأبيض، ولا أمير وغير أمير، فالكل سواء حيث تزول الفوارق الاجتماعية، كما تبدو للمسلمين قوتهم من خلال هذا التجمع الحاشد. ولهم فيها منافع اقتصادية من خلال التبادلات التجارية، وهو نشاط اقتصادي مهم لو استغله المسلمون.

وكذلك يذكرون الله تعالى شاكرين إياه على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فيذبحون الأنعام شكرًا لله على أن بلغهم الوصول إلى تلك الأماكن الطاهرة، وشكرًا لله على أداء هذه العبادة العظيمة التي يخرج فيها المرء مغفور الذنب كيوم ولدته أمه.

ومن صور شكر الله سبحانه وتعالى أن يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير.

ثم ليقضوا تفثهم، أي ليزيلوا الوسخ الذي أصابهم من غبار وطول شعر وظفر، فيحلق الحاج شعره ويلبس ثيابه. وفيه إشارة للتعود على تحمل المصاعب والخشونة، وهي مسألة مهمة في بناء شخصية الفرد، إن كثيرًا من الأغنياء والمتنعمين قد لا يتعرضون للتعب والخشونة التي تصيب الإنسان في سفره للحج، وهو ما يراد تعويده عليه. وفي الحج أيضًا تعويد على السفر، مما يسهل عليه للسفر للدعوة والجهاد وطلب العلم وغير ذلك من فضائل.

وفي كل ركن من أركان الحج أو شروطه درس تربوي يتعلمه الإنسان منه، ويمكن إيجازها على النحو التالي:

١- الإحـــرام:

يراد بالإحرام نية الدخول في أحد النسكين، الحج والعمرة. حيث يحرم عليه أن يتخذ وسائل الزينة، فلا يلبس المخيط من الثياب، ولا يتطيب بأي طيب، ولا ينتعل حذاء ساترًا للرجل، ولا يحلق، ولا يقصر أظافره، ولا يقرب النساء.

٢- الالتزام بآداب الحج:

وهو ما أشارت إليه الآية: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ .. ﴾ [البقرة:١٩٧].

والرفث هو الإفحاش بأمر الجماع، وعن ابن عباس: إنما الرفث ما كان عند النساء، ففيه النهي عن الجماع ودواعيه. والفسوق قيل هو السباب، وقيل هو التنابز بالألقاب، وقيل هو المعاصي. والجدال هو إظهار الأدلة بقصد مغالبة الخصم بالحجة، وقد ورد النهي عنه لأنه يؤدي إلى مغاضبة الآخرين، كأن يكون الجدل في إثبات الحج في أي يوم أو في أحكامه أو غير ذلك.

وفي الالتزام بهذه الآداب تدريب لنفس الإنسان على ترك ما يؤدي للخصام والالتزام بالآداب والأخلاق الإسلامية.

٣- صيد البر:

وحرم القرآن الكريم صيد البر على المحرم، فإن من دخل الحرم كان آمنًا من البشر ومن الحيوانات، إلا الفواسق فإنها تقتل في الحال والحرم، قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [المائدة:٩٦].

٤- الطوف حول الكعبة:

يطوف الحاج سبعة أشواط حول الكعبة، جاعلاً الحجر الأسود عن شماله، والطواف يكون للحاج ولغير الحاج إذ هو بمثابة تحية المسجد.

والحجر الأسود نزل من الجنة وليس من أحجار الدنيا، وقد ورد في الحديث أنه كان أبيض من اللبن فوسدته خطايا بني آدم، وقد قبّله النبي ﷺ، ويقبّله المسلمون اقتداء بالنبي ﷺ، وقد قال عمر بن الخطاب: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبّلك ما قبلتك .. ثم بعد

سبعة أشواط يصلي الحاج ركعتين سنة الطواف بعد مقام إبراهيم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩].

٥- السعي بين الصفا والمروة:

وبعد الطواف يكون السعي، وهو ركن من أركان الحج عند أكثر الفقهاء، وفيه إحياء ذكرى قصة أم إسماعيل زوجة إبراهيم التي جاء بها إبراهيم عليه السلام من أرض فلسطين إلى هذه الأرض الصحراء القاحلة لا نبات فيها ولا شجر ولا ماء ولا بشر، وتركها إبراهيم مع ولده إسماعيل، فلما أراد إبراهيم أن يغادرها وابنها قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لن يضيعنا الله. ونفذ الزاد والماء فأكرمها الله وابنها وأكرم جميع الناس لأن تقوم الساعة بماء زمزم الذي هو معجزة كونية خالدة، الذي هو طعام طعم وشفاء سقم. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

٦- الوقوف بعرفة:

والوقوف بجبل عرفات من أهم أركان الحج، حيث يلتقي فيه جميع من حج على صعيد واحد، يدعون الله ويسألونه الرحمة والمغفرة، ثم يفيض الناس إلى المشعر الحرام بالمزدلفة يذكرون الله تعالى. وكانت قريش في الجاهلية تفيض من المزدلفة فأمرهم الله أن يقفوا مع جميع الناس على عرفات ويفيضون معهم، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٨-١٩٩].

٧- المبيت والرمي بمنى:

وهو من شعائر الحج الأساسية، فيها إحياء لذكرى إبراهيم عليه السلام، حين أمر بذبح ابنه إسماعيل، فاستجاب هو وابنه لذلك، فعرض له الشيطان موسوساً له في ذلك، فرماه إبراهيم، ثم فداه الله بذبح عظيم، وأثنى الله على إبراهيم في إيمانه وامتثال أمر ربه. وقد ذكر القرآن الكريم قصته في سورة الصافات(١).

ففي المبيت بمنى ورمي الحجرات إحياء لهذه الحادثة العظيمة التي تذكر بإيمان إبراهيم عليه السلام وأثر الشيطان على الإنسان واتخاذه عدواً. قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [البقرة:٢٠٢].

---

(١) الصافات: ٩٩-١١٢.

المبحث الثاني
النظام الاجتماعي

أولاً: المـــــــرأة

نظرة الأمم القديمة للمرأة

ورد في شرائع الهند أن الوباء والموت والجحيم والسمّ والأفاعي والنار خير من المرأة.

وورد في التوراة في سفر الجامعة ما يلي: درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً، ولأعرف الشر أنه جهالة والحماقة أنه جنون، فوجدت أمرّ من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود.

وفي رومية اجتمع مجمع كبير لبحث شؤون المرأة فقرر أنها كائن لا نفس له، وأنها لن ترث الحياة الأخروية لهذه الصلة، وأنها رجس يجب أن لا تأكل اللحم ولا تضحك ولا تتكلم، وعليها أن تمضي أوقاتها في الصلاة والعبادة والخدمة، ولأجل منعها من الكلام وضعوا على فمها قفلاً من حديد.

وفي فرنسا عقد اجتماع عام ١٥٨٦م في بعض ولاياتها وقرر أن المرأة إنسان مخلوقة لخدمة الرجل.

وفي انكلترا أصدر الملك هنري الثامن أمرًا بتحريم مطالعة الكتاب المقدس على النساء، وفي القانون الانكليزي عام ١٨٥٠م كانت النساء غير معدودات من المواطنين، وليس لهن حقوق شخصية، ولا حق لهن في تملك ملابسهن ولا الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين[١].

---

(١) روح الدين الإسلامي، عفيف الطبارة، ص ٣٥٧.

المرأة عند العرب قبل الإسلام

كان بعض العرب يئد البنات ويستاء كثيراً إذا ولدت له بنت، وهو ما أشار إليه القرآن وذم هذا التصرف، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وكان البعض يقتل أولاده خشية الفقر، فنهاهم الله عن ذلك: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٣١].

وكانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت، إنما يورثون من يقاتل في الحرب، فشرع الإسلام التوريث العادل، ومنها توريث المرأة، قال تعالى: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء:٧].

وكانت العرب ترث النساء كرهًا، فيأتي الوارث ويلقي ثوبه على زوج مورثه ويقول: ورثتها كما ورثت ماله، فيكون أحق بها من نفسها، وذلك لتفتدي نفسها بالمال أو تموت فيرثها، وقد حرم القرآن ذلك، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ [النساء:١٩].

وكان بعض العرب يُكره الإماء على البغاء ليكسبن لهم المال، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ [النور:٣٣].

تكريم القرآن الكريم للمرأة:

وقد كرم القرآن الكريم المرأة فمنع عنها كل أنواع الظلم وبين أنها كالرجل في التكريم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا .. ﴾ [النساء:١].

وبين أنها مساوية للرجل في عمل الصالحات ولها أجرها كالرجل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤].

وضرب المثل بها في استقلالها عن الرجل وعدم تأثرها به: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [التحريم: ١٠-١١].

الحجـــاب:

تحدث القرآن الكريم عن حجاب المرأة وزينتها فأوجب عليها الستر بصورة تحفظ لها كرامتها. قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ... ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

يأمر الله سبحانه المؤمنين بالغض من أبصارهم، أي عما لا يحل لهم النظر إليه من العورات وأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل أو عن أن تُرى.

ويأمر الله سبحانه المؤمنات بالغض من أبصارهن عما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الآخرين أو مافيه فتنة.

كما نهى المرأة عن إبداء زينتها أمام من لا يحل لها إظهار زينتها أمامهم.

وقد اختلف العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ على سبعة أقوال، وهي:

١- الثياب أو الرداء.
٢- الكف والخاتم والوجه.
٣- الكحل والخاتم.
٤- السواران والخاتم والكحل.
٥- الكحل والخاتم والخضاب.
٦- الخاتم والسوار.
٧- الوجه والكفان.

هذا ما أورده ابن الجوزي في تفسيره من أقوال[1] ويمكن اختصاره بثلاثة أقوال، وهي: ما ظهر من ملابسها الخارجية، أو ما ظهر من زينتها، أو الوجه الكفان.

لذا رجح بعضهم القول الأول وذهب إلى أن الوجه والكفان عورة، ورجح آخرون أن المراد به الوجه والكفان، وعليه فيجوز للمرأة إظهارهما ويجوز للرجل النظر إليه، وكل ذلك عند أمن الفتنة. ولكل فريق دليله من السنة الثابتة التي تؤيد رأيه.

وقد أصدرت لجنة الفتوى التابعة لمشيخة الأزهر ما يلي: ترى لجنة الفتوى ترجيح الرأي القائل بأن وجه المرأة وكفيها ليست من العورة، فلا جناح عليها أن تكشف شيئًا منها أمام الرجال الأجانب، دفعًا للحرج والمشقة في معاملاتها العامة والخاصة، وأنه إذا خيفت الفتنة يجب عليها ستر جميع بدنها سداً لذريعة الفساد.

واللجنة تقرر في الوقت نفسه أن كشف الوجه واليدين مزينة بالأصباغ المعرفة نوع من التبرج الذي يمقته الشرع ويشدد النكير عليه، وأن الكشف المباح إنما هو للوجه واليدين على طبيعتها التي خلقها الله عليها، خالية من أصباغ وألوان[2].

وزاد الحنفية جواز كشف القدمين إضافة للوجه والكفين باعتبار أن الفتنة فيهما أقل من الوجه والكفين، وإن كان ظاهر النصوص المنع، فسئل النبي ﷺ عن حجاب المرأة فقال: «**ترخيه شبراً**»، قالوا: إذاً ينكشف، قال: «**ترخيه ذراعًا**».

■ واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ على أقوال:

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي، ص ٩٩٤.

(٢) مجلة الأزهر، المجلد الثاني عشر، ص ١٢٠.

١- نسائهن المسلمات، فلا يجوز إظهار الزينة أمام غير المسلمات كتابيات أو غيرهن.
٢- وقيل: الحرائر بدليل: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ أي جميع النساء.
٣- وقيل: المختصات بهن بالصحبة، فلا يجوز إظهار الزينة أمام الفواسق أو من لا يعرفن. فإظهار الزينة أما النساء المؤتمنات على الأسرار ولو كنّ كتابيات أمر جائز عند البعض.

ثانيًا: الـــــزواج

ينظر القرآن الكريم للزواج على أنه فطرة إنسانية ووظيفة اجتماعية، يقوم فيها الإنسان بتشكيل أسرة تقوم على المحبة والمودة وحسن العلاقة بين الطرفين. لذا كان مبدأ التخلي عن الزواج مبدأ مذمومًا في نظر القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ **وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور:٣٢] فالأيامى مفرد أيم وهو من لا زوج له، ذكرًا كان أم أنثى، ومعنى الآية هو طلب بتزويج العزاب غير المتزوجين، فإن كانوا فقراء فقد تكفل الله سبحانه بعونه، في الحديث: «**ثلاثة حق على الله عونهم**».. وذكر منهم: «**الناكح يريد العفاف**»[1].

أما الفقير العاجز عن الزواج فقد أمره الله سبحانه بالعفاف إلى أن يرزقه الله المال الذي يمكنه من الزواج: ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور: ٣٣].

وقد اعتبر القرآن الكريم عقد الزواج ميثاقًا غليظاً للإشارة إلى خطورة الوفاء به والالتزام بمقتضاه، قال تعالى: ﴿ **وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا** ﴾ [النساء:٢١]، فهو ليس عقد تمليك وبيع إنما هو ميثاق وعهد بين الرجل والمرأة.

والعلاقة بين الرجل والمرأة علاقة سكن ومودة ورحمة، قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم:٢١].

ومن عظم تشبيه القرآن الكريم أن شبه كل زوج بأنه لباس للآخر، فاللباس

(١) رواه الترمذي (١٦٥٥) وقال: حسن صحيح.

يستر عورة الإنسان ويحمله، وكذلك كل زوج للآخر، قال تعالى: ﴿**هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ**﴾ [البقرة: ١٨٧] فكل زوج يحفظ على الآخر معايبه وشرفه ويصون عرضه ويوفر له راحته.

وقد بين القرآن الكريم أن التناسب في الصفات من أهم القضايا التي يجب مراعاتها في إستقرار البيت وقيامه على المودة والمحبة، فأول هذه العفاف هي الدين لأنه الذي يضبط علاقة كل منهما بالآخر، ويمنع القوي منهما من التجاوز على الضعيف فلا يستغل الرجل المرأة ولا المرأة الرجل، فهو الكفيل بضبط العلاقات الداخلية التي لا يطلع عليها الآخرون، فيحفظ للأسرة كرامتها وأسرارها الداخلية، وهو من أهم أسباب استقرارها، قال ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[1] ومعنى تربت يداك: أي التصقت بالتراب، وهو كناية عن الفقر، أي إن لم تظفر بذات الدين تربت يداك.

أصول الزواج:

يقوم الزواج في الإسلام على أركان مهمة حفظت لكل زوج حقوقه ومكانته واحترامه كإنسان. ليكون الهدف من الزواج هو التعارف والتناسل على أسس سليمة تحقق الاستقرار والمودة في الأسرة.

وقد فصلت السنة هذه الأحكام وأشار القرآن إلى بعض منها أو بعض أحكامها.

الخطبة

وهي مقدمة للزواج مهمة تمهد للتعرف الحقيقي على صفات الرجل والمرأة، وقد يتم الزواج من دون خطبة، إلا أن الأفضل أن يتم التمهيد لهذا الزواج بالخطبة، والتي من أحكامها أن يرى كل منهما الآخر.

وقد نص القرآن الكريم على جواز خطبة المرأة المتوفى عنها زوجها تعريضاً لا تصريحاً، فقال سبحانه: ﴿**وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ..**﴾ [البقرة: ٢٣٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٩٠) ومسلم (١٤٦٦).

صيغة التعاقد

يقوم عقد الزواج على عقد بين الطرفين يشمل الإيجاب وهو ما يصدر عادة من لفظ من قبل الزوج أو من يقوم مقامه، ويقابله القبول وهو ما يصدر من الطرف الآخر. مع حضور شاهدين وولي. وللفقهاء تفصيلات في ذلك.

المهـــر

المهر حق مالي من الحقوق الواجبة للمرأة، قليلاً كان أو كثيراً، قال تعالى: ﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾ [النساء: ٤]، فقد كان العرب لا يحترمون الحقوق المالية للمرأة ومنها المهر، وكان وليها إذا قبض مهرها أخذه ولم يعطها شيئًا أو يتصرف فيه تصرفًا لا يستأذنها فيه، فنزلت الآية تبين الحق الكامل للمرأة في أخذها المهر ولا يحق لأحد التصرف فيه، حتى ولي أمرها سواء كان أباها أو غيره، لا يحق له أخذ شيء من مهرها إلا برضاها ﴿ **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾ [النساء:٤]، أي لابد من التأكد من طيب نفسها بشيء من المهر حتى يجوز أخذه. وكذلك الزوج الذي دفع إليها المهر لا يجوز أن يأخذ منه شيئًا: ﴿ **وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** ﴾ [النساء:٢٠] فلو أعطاها مالاً كثيراً لا يجوز أن يأخذ منه شيئًا إلا برضاها.

وهكذا يؤكد القرآن الكريم الحق الكامل للمرأة في التصرف بالمهر حيث أكده بقوله: ﴿ **نِحْلَةً** ﴾ أي فريضة أو تدينًا.

وإذا كانت المرأة تستحق المهر بهذه الصورة، فلا يعني ذلك أن يتحول الزواج إلى صورة البيع والشراء، بحيث تستغل المرأة ذلك فتطلب مهراً عاليًا، أي ينبغي أن يكون النظر إلى المهر على أنه حق من الحقوق، وليس هدفًا للمرأة، لذا كان من أسباب تيسير النكاح تخفيف المهر، ففي الحديث: «**أعظم النساء بركة**

أيسرهن مؤنة»[١] (مؤنة تعني مهراً)، فالأفضل تيسير أمر المهر، وهو ما تشير إليه النصوص الشرعية من القرآن والسنة.

معاملة الزوجة

ومما أكد عليه القرآن الكريم مسألة إحسان المعاملة للزوجة، فإنه الكفيل باستقرار الأسرة، وهو ما يحقق الهدف من قيام الأسرة على المودة والمحبة، قال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء: ١٩].

وحتى إذا وقع الخلاف بين الرجل والمرأة وأراد الرجل طلاق زوجته، فإما إمساكها بمعروف أو مفارقتها بمعروف، قال تعالى: ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ﴾ [البقرة: ٢٣١] لذلك حرم أشكال المضارة بالمرأة ﴿ **وَلَا تُضَارُّوهُنَّ** ﴾ [الطلاق: ٦].

وفي حال تمرد الزوجة على زوجها فإنها يشرع للزوج تأديب امرأته الناشز، قال تعالى: ﴿ **وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا** ﴾ [النساء: ٣٤]، وهذا في المرأة الناشز، والناشز هي المرأة التي تمتنع عن أداء حقوقها الواجبة عليها، فيؤدبها الزوج بالوعظ، ثم الهجر في المضاجع، ثم الضرب غير المبرح، والمبرح هو الذي لا يترك أثراً على الجسم، وقد ورد عن ابن عباس أن الضرب بالسواك ونحوه، والمقصود هو إعادة المرأة الناشز للالتزام بحقوقها الواجبة وليس الاستعلاء عليها ولا إذلالها وإهانتها، وهي مثل زجر التأديب الذي يكون من الأب لولده .. علماً أن وسيلة الضرب رغم جوازها إلا أنها مذمومة والأفضل عدم اللجوء إليها، فقد ورد الحديث: «**ولن يضرب خياركم**»، وفي الحديث أيضاً: «**أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يُضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره**»[٢].

---

(١) ابن ابي شيبة (١٦٣٧٨) – البيهقي الكبرى، النسائي في الكبرى، وحفظه الألباني، وأحمد في مسنده (٢٣٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٠٥) بلفظ آخر، مسلم (٣٢٦٦)، عبد الرازق في مصنفه (١٧٩٤٣) من حديث عروة، عائشة رضي الله عنها واللفظ للعبد الرزاق.

القوامة

وحق القوامة، وهو القيام بشؤون الأسرة، فتكون للزوج، فعلى المرأة والأسرة طاعة الزوج فيما يطلب وحدوده فيما لا معصية فيه، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أعطاها الله سبحانه للزوج لما ركب فيه من قدرة على التصرف السليم في الأمور المعاشية والمالية أكثر من المرأة، قال تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ [البقرة:٢٢٨].

وهذه الدرجة بسبب ما فضل الله به الرجل من صفات، قال تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ [النساء: ٣٤].

فالمرأة تقضي أسبوعًا من كل شهر تقريبًا حالة اختلال المزاج بسبب العادة الشهرية، كما أن كل مؤسسة لابد لها من رئيس يحمل صفات معينة تؤهله غالبًا لإدارة هذه المؤسسة، والمرأة معرضة للحمل والإرضاع، وكذا ما تملكه من حنان وتأنٍّ في التربية والرعاية، كما أن الرجل يتصف بصفات القوة التي تؤهله لحماية المرأة والكسب المادي، لذا استحق هذه القوامة.

تعدد الزوجات

شرع القرآن الكريم مبدأ تعدد الزوجات وحدده بعدد معين بعد أن كان عند العرب مباحًا بشكل مطلق كمًّا وكيفًا، فحدده القرآن الكريم بأربع زوجات وبشروط معينة تضمن تحقيق كرامة المرأة واستقرار الأسرة، قال تعالى: ﴿.... **فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا**﴾ [النساء: ٣٤]، أي يباح لكم أن تتزوجوا باثنتين أو ثلاثة أو أربعة بشرط العدل بين النساء، فإذا خفتم من عدم العدل فلا يباح لكم ذلك.

والعدل المطلوب هو في الأمور الظاهرة من الحقوق في النفقة والمبيت والمسكن والملبس، ولا يشمل ذلك المحبة القلبية، فإنه أمر لا يملكه الإنسان، لذا تم الاكتفاء بعدم الميل الكامل لاحداهما، قال تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ**

حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ [النساء: ١٢٩] أي لا تتركوا المرأة الأخرى كأنها معلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة. وكان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويقول: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**»(١).

وحفاظًا على كرامة المرأة وعلى صلتها بأقاربها المقربين «المحارم» – وهم إذا كان أحدهم ذكرًا والآخر أنثى حرم التزوج به – فقد حرم الإسلام الجمع بين المحارم، فقد نص القرآن الكريم على تحريم الجمع بين الأختين، فقال سبحانه: ﴿ **وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ** ﴾ [النساء: ٢٣]، وحرم رسول الله ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها، وقال: «**إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم**»(٢)، وفهم الفقهاء عموم الجمع بين المحارم جميعًا.

وقد صدرت كتابات كثيرة من غير المسلمين تنتقد الإسلام في تشريع هذا الحكم، حتى إن منهم من علق ارتقاء المسلمين من الناحية الاجتماعية على إلغاء هذا الحكم. وقد تعدى هذا الأمر إلى كثير من المسلمين، فأصبح ينظر لهذه الظاهرة نظرة استهجان، بل نجد البعض من يكاد يبرر أو يعذر ارتكاب فاحشة الزنا ويستنكر ظاهرة التعدد .. ومرد استهجان هذه الظاهرة لاتباع وتقليد غير المسلمين الذين لا يبيحون التعدد .. فالغربيون مثلاً يمنعون تعدد الزوجات ويبيحون اتخاذ الصاحبات والخليلات.

لقد أباح القرآن الكريم تعدد الزوجات لحماية المرأة والمجتمع، وهناك الكثير من المبررات لذلك، فعدد النساء في أكثر المجتمعات أكثر من عدد الرجال، وتزداد النسبة كثيرًا في الحروب، فكيف تحل مثل هذه الإشكالات، فلو قلنا بعدم التعدد لبقيت الكثير من النساء من دون زواج مما يؤدي لانتشار الفاحشة. ولو أن رجلاً في حالة معتادة أحب امرأة أخرى على امرأته، أيطلق امرأته الأولى ليتزوج

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما رواه الطبراني مع المعجم الكبير (١١٩٣١) والحديث في التحريم، رواه البخاري (٤٧١٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه النسائي (٣٢٤٥)، أحمد (١٤١٠٦).

الأخرى؟ فضلاً عن الاحتمالات الأخرى من مرض الزوجة أو عدم إنجابها أو غير ذلك من أمور .. إن حل المشكلة هو في إباحة التعدد..

والخطورة في مسألة تعدد الزوجات واستهجانها، إنما هو استهجان لأمر قرره القرآن الكريم ليحل مشاكل الناس.

والبعض نجده يناقش الأمر مناقشة أخرى حيث يقول بأن القرآن الكريم اشترط العدل والعدل غير ممكن لأن الله يقول: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ [النساء: ١٢٩] وهي مغالطة كبيرة إذ الذي لا يستطيعه الإنسان هو العدل القلبي الذي لا يملكه إنسان مهما كان. أما العدل الظاهري فيملكه أي إنسان معتدل.

ثالثًا: الطـــــلاق

عرف الفقهاء الطلاق بأنه رفع قيد النكاح في الحال أو المآل بعبارة تفيد ذلك، وهو صريح وكناية.

والقرآن الكريم أقر بمشروعية الطلاق وهو أمر غير مرغوب فيه شرعًا، إنما هو حل في نهاية المطاف لأسرة ينبغي أن تقوم على المودة والمحبة، فإذا وجد الخلاف بين الرجل والمرأة ولا يمكن حله بأي صورة من الصور التي تحفظ للرجل والمرأة كرامتها فيكون الحل النهائي بالطلاق. وهو أمر يشبه العملية الجراحية بالنسبة لجسم الإنسان، فأعضاء الإنسان جزء من حياته، فقد يبذل إنسان كل ما يملك لعلاج أحد أعضائه، لكنه في مرحلة من المراحل يكون نزع ذلك العضو من جسمه لمصلحته. وفي المثل يقال: آخر العلاج الكيّ.

وكذلك الطلاق فإنه شرع كعلاج أخير بعد استنفاذ جميع الطرق والوسائل، وهذا هو المنهج الذي شرعه القرآن الكريم، وفي الحديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(١).

وقد اختلف الفقهاء في الطلاق بدون سبب هل هو جائز أم لا، فقد فهم البعض من الحديث أنه جائز، باعتبار أن الإنسان من حقه إنشاء عقد الزواج وكذلك من حقه فسخه، ثم إن الحديث سماه حلالاً. بينما يرى آخرون أنه غير جائز لما يتبعه من ضرر على الزوجة وقد حرم القرآن الكريم صور الإضرار بالمرأة بلا سبب، كما أن الحديث وصفه بالبغض.

مراحل إيقاع الطلاق:

وقد شرع القرآن الكريم إيقاع الطلاق على مراحل وبصورة معينة بحيث يكون فيها الطلاق من مصلحة الطرفين.

(١) رواه أبو داود وابن ماجه.

(أ) ما قبل الطلاق:

شرع القرآن الكريم معاملة المرأة بالمعروف، حتى لو وقعت الكراهية من الرجل للمرأة فإنه أرشد للصبر على ذلك فقد يجعل الله له مخرجًا ويتغير الحال وتتحول الكراهية إلى محبة ويجعل: له بسببها خيرًا كثيرًا، قال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ١٩]، وفي الحديث: «**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقًا رضي منها آخر**»(١).

فإذا اشتد الخلاف بين الرجل والمرأة وظهرت عليها علامات النشوز، والمرأة الناشز هي التي تمتنع عن القيام بالحقوق الواجبة عليها، وهي: عدم الخروج من المنزل إلا بإذنه أو لضرورة شرعية، ولا تدخل أحدًا بيته إلا بإذنه، والمحافظة على مال زوجها، وطاعة الزوج في غير معصية وفي إطار المعروف بحيث تجتهد في إرضائه ... فإذا كانت المرأة ناشزًا جاز للزوج أن يؤدبها بالصورة التي تعيدها إلى صوابها، فيبدأ بوعظها ثم هجرها في المضاجع ثم الضرب غير المبرح كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ**﴾ [النساء: ٣٤]، فإذا قامت المرأة بالحقوق الواجبة عليها لا يجوز التعرض لها بالأذى بأي صورة من الصور ﴿**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا**﴾ [النساء: ٣٤].

وإذا اشتد الخلاف بين الزوج والزوجة فإنه يشرع تحكيم حكمين، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا**﴾ [النساء: ٣٥]، أي إذا ظهرت علامات الشقاق بين الزوجين، والشقاق أبعد من الاختلاف وهو ما يجعل كلاً من الطرفين في شق غير شق الآخر، عندها يشرع بعث حكمين لحل هذا الخلاف، واشترط القرآن أن يكون من أهلهما لئلا يطلع الآخرون على عورات البيوت، ثم إنهما يكونان أكثر رغبة في حل الخلافات بينهما. وقد تكفل الله سبحانه بتيسير الأسباب للتوفيق بين الزوجين.

---

(١) صحيح مسلم، مسند الإمام أحمد.

(ب) مرحلة إيقاع الطلاق

وتأتي مرحلة إيقاع الطلاق بصورة لاضرر فيها على المرأة وبالشكل الذي يترك مجالاً للرجعة، وهي مرحلة اختبار لمعرفة الرغبة الأكيدة في الانفصال بين الزوجين، وهي على النحو التالي:

[١] **أن يكون الطلاق في طهر لم يمسها فيه**: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾ [الطلاق:١]، وفي الحديث أن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال: «**ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء**»[١].

وحكمة ذلك أن الطلاق في حال الطهر يكون في وقت تكون النفس راغبة تائقة إذا كان أصل المحبة موجوداً. وفي حالة الحيض تكون المرأة مختلة المزاج مما يزيد أمر الخلاف بين الزوجين.

[٢] ويندب عن أكثر الفقهاء وجود شاهدين عدلين لإيقاع الطلاق لئلا تضيع الحقوق، وقد يكون وجود الشاهدين مرغبًا في عدم إيقاعه، والبعض أوجب وجود الشاهدين، وهو ما تشير إليه الآية: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ**﴾ [الطلاق:٢].

[٣] إذا تم إيقاع الطلاق فإنه ينبغي على المرأة المطلقة طلاقًا رجعيًا أن تلتزم بيت زوجها لا تخرج منه ولا يجوز له إخراجها، إلا في حال إتيانها بفاحشة مبينة، والفاحشة هي الزنا فيتم إخراجها لإقامة الحد عليها، أو فحش القول منها بحيث لا يستطيع الزوج تحملها فيجوز له إخراجها. وحكمة بقائها في البيت، أن يراجع كل منهما نفسه، لمعرفة الرغبة في الانفصال أو المراجعة.

---

(١) رواه البخاري (٤٩٠٨)، ومسلم (١٤٧١).

[٤] يشير قوله تعالى: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١] إلى احتمال أن يحدث شيء في القلب من الرغبة في الرجعة، والمعنى: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث، فإنه إذا طلق ثلاثًا أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع حيث لا يجد إلى المراجعة سبيلاً[١].

وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى النهي عن إيقاع أكثر من طلقة واحدة في كل طهر، وهو الطلاق السني، وهو أن يطلقها في كل طهر مرة، فإن أوقع أكثر من طلقة واحدة كان بدعيًا منهيًا عنه عند أكثر الفقهاء وإن ذهب البعض إلى جواز ذلك معتبراً أن من حق المطلق أن يطلق واحدة أو أكثر.

العدة

والعدة فترة تتربص فيها المرأة، أي تنتظر ممتنعة عن الزواج، أهم أسبابها هو براءة رحم المرأة ومراعاة الزواج وبيان خطورته واحترام أهله وأقاربه في ذلك. وتختلف بحسب حال الزوجة وهي نوعان:

(أ) عدة الطلاق

[١] فإن كانت المرأة من ذوات القروء أي الحيض، فعدتها ثلاثة قروء، أي ثلاث حيضات، فإن طلقت في طهر فيمر عليها ثلاثة حيضات وتنتهي عدتها بطهرها من الحيضة الثالثة. ويرى البعض أنها ثلاثة أطهار، فتنتهي عدتها بدخولها في الحيضة الثالثة، وهو خلاف مشهور بين المذاهب الفقهية في المراد بالقروء، قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

[٢] وإن لم تكن المرأة من ذوات القروء أي الحيض، كأن تكون صغيرة دون سن الحيض، أو تكون يائسة فوق سنّ الحيض فعدتها ثلاثة أشهر، قال تعالى: ﴿وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

---
(١) فتح القدير (٥ / ٢٣٩).

[٣] فإن كانت المرأة حاملاً فعدتها بوضع حملها، قال تعالى: ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾ [الطلاق: ٤].

[٤] فإن كانت المرأة غير مدخول بها فلا عدة عليها، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ... ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

(ب) عدة الوفاة

وهي تجب بمجرد العقد على المرأة، بخلاف عدة الطلاق فإنها تجب بالدخول، كما أن فترة العدة للوفاة تختلف عنها بالطلاق، فعدة الوفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، لا فرق بين المعقود عليها والمدخول بها، ولا التي من ذوات القروء وغيرها.

إلا المرأة الحامل فعدتها بوضع حملها، كما هو حال المرأة المطلقة إذا كانت حاملاً، وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾ [الطلاق: ٤] والآية وإن كانت الطلقة الرجعية، إلا أن السنة قد أكدت بأن الحامل أجلها بوضع حملها سواء كانت مطلقة أو متوفى عنها زوجها، وذلك أن سبيعة الأسلمية توفي عنها زوجها وهي حبلى، فخطبها أبو السنابل، فأبت أن تنكحه، فقال: والله ما يصلح أن تنكحي حتى تعتدّي آخر الأجلين، فمكثتْ قريبًا من عشر ليال، ثم نفست، ثم جاءت إلى النبي ﷺ فقال: «انكحي»[1].

وذهب بعض الصحابة إلى أن المرأة الحامل تعتد بأبعد الأجلين: أجل وضع الحمل، وأجل عدة الوفاة وذلك لتعارض الآيتين في الظاهر، وهما: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴾ [الطلاق: ٤]، لكن حديث سبيعة الأسلمية المشار إليه نص في ذلك، فالمتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً فعدتها بوضع حملها، وهو رأى جمهور الصحابة والفقهاء من بعدهم.

والمعقود عليها إذا توفي عنها زوجها تعتد عدة الوفاة كالمدخول بها.

---

(١) رواه البخاري، (٤٩٠٩).

المبحث الثالث
النظـــام الاقتصادي

تعتبر المشكلة الاقتصادية من أهم المشاكل المعاصرة لعجزها عن إيجاد الحل المناسب الذي يحفظ للفرد والمجتمع مبادئه وكرامته، وقبل الحديث عن النظام القرآني نستعرض أهم نظامين في العالم، وهما: الاقتصاد الرأسمالي، والاقتصاد الاشتراكي.

الاقتصاد الرأسمالي

يقوم الاقتصاد الرأسمالي علي مبدأ الحرية التامة للفرد في التصرف بأمواله والقيام بالأعمال التجارية والصناعية، مراعيًا مصلحته في الربح، سواء كان نافعًا أم غير نافع للفرد والمجتمع. ويقول علماء الاقتصاد الرأسمالي: إنه لكي تكون الحياة الاقتصادية صحيحة لابد أن تستند إلى ثلاثة أسس، وهي:

١- المصلحة الشخصية كهدف. ٢- المنافسة كوسيلة.

٣- الحرية كشرط.

وقد تولد عن هذا النشاط ضمن هذه الأسس أن تضخم الإنتاج وتكدس في الأسواق، مما أدى لانخفاض الأسعار. وذلك لاستغلال أصحاب العمل للعمال، وكانت قد حلت الآلة والمصنع محل العمال، فقد يستغني صاحب العمل عن كثير من العمال .. وهو ما أدى إلى ثورة هولاء العمال فحطموا المعامل وأتلفوا رؤوس الأموال، فنتج ما يسمى الثورة الشيوعية التي نادت بحقوق العمال.

الاقتصاد الاشتراكي

في هذه الأجواء قام أنصار العمال بمهاجمة النظام الرأسمالي ورموزه، فأظهروا مساوئه، مبينين أن المصلحة الفردية أدت إلى تكديس الثروة في يد فئة

قليلة تحكمت بالأكثرية من الفقراء .. كما إن الحرية الاقتصادية معناها الفوضى لحساب الأقوى.

ولهذا تبلورت آليات الاقتصاد الاشتراكي بما يلي:

[١] إلغاء الملكية الفردية للأرض ولرأس المال، لتكون للدولة. أما الأفراد فيؤدون أعمالاً للدولة نظير أجر يساوي جهدهم في العمل.

[٢] توزيع السلع الاستهلاكية على الأفراد كل حسب حاجته.

[٣] وضع منهاج للإنتاج في حدود حاجة المجموع.

والغاية هي إزالة التفاوت بين الأفراد، وتنمحي الطبقات الاجتماعية ويتساوى الأفراد. ومع ذلك فإن هذا النظام اتجه إلى زيادة رأسمالية المجتمع على حساب ملكية وحرية الفرد في التصرف. إلا لهذين النظامين عيوبهما، فالرأسمالي أدى لاستغلال أصحاب رؤوس الأموال لعموم الناس الفقراء. أما النظام الاشتراكي فكان أكثر اضطراباً وإشكالاً، فقد وضعوا قاعدة أولاً: كلٌّ يعمل حسب قدرته ولكل حسب حاجته. وقد أدى ذلك لأن يترك الناس العمل إلا بالظاهر فانعدم النشاط والإبداع. ثم عدلوا القاعدة: كل يعمل حسب قدرته، ولكل حسب ما يؤديه من عمل، ومن لا عمل له ليس له الحق في أن يأكل[١].

ورغم ذلك فشل النظام الاشتراكي فشلاً ذريعًا، أدى لقتل الإبداع ورداءة الإنتاج وتضخم اليد العاملة في المؤسسات التي صارت تستهلك أكثر مما تنتج.

---

(١) روح الدين الإسلامي، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

أولاً: الأسس المالية للاقتصاد القرآني

إن أهم الأسس الاقتصادية في القرآن الكريم أنه يقوم على احترام الملكية الفردية مع الموازنة بين مصالح الفرد والمجتمع، فيبيح للفرد التمتع الكامل المباح في أمواله، بل يحثه على التمتع بالطيبات، كما يراعي مصالح المجتمع فلا يحرمه من مال الفرد حينما يكون الآخرون في حاجة له، فيوجب عليه التكافل الاجتماعي بصورة متوازنة يلزمه بسد حاجات الأقرب فالأقرب. ويحل مشاكل الأفراد مراعيًا حاجاتهم ويحفظ لهم كرامتهم فيأخذون حقهم الواجب لهم دون أي منة لمن أعطاهم.

إضافة إلى أن القرآن الكريم يشرع الأنظمة لدوران المال بين أفراد المجتمع فيُحرّم أنواع الكنز التي تجعل المال في أيدي فئة قليلة فيستغلون الآخرين، وهكذا يضمن النظام الاقتصادي القرآني الموازنة بين الفرد والمجتمع وبشكل يتسع فيه النشاط الاقتصادي بما ينفع المجتمع.

وإليك بيان ذلك:

(أ) المال مال الله

ينظر القرآن الكريم إلى المال على أنه مال الله تعالى، وليس هو للفرد يملكه ملكًا تاماً يتصرف فيه، كأن الآخرين لا حق لهم بهذا المال أبداً. فالمال مال الله هو الذي خلقه، هو الذي منحه للعباد، وهو الذي أغنى وأفقر، وأعطى ومنع، والإنسان ما هو إلا نائب عن الله في الإشراف عليه، فلا يجمُل به أن يعصي ربه فيما استودعه إياه، لذا كان على البشر أن لا يتأخروا عن تنفيذ أمر الله في ماله الذي استودعهم إياه[١]، والملكية الحقيقة لله وحده، وقد قدَّم لنا القرآن الكريم بذلك «تفسيراً صادقًا لطبيعة الملكية وحدودها وضوابطها بشكل معجز – لأنها صادرة عن الخالق سبحانه – يحقق التكامل والتوازن بين مصالح الفرد ومصالح

(١) روح الدين الإسلامي، ص ٣٤٠ .

الجماعة، وهو الأمر الذي عجزت المذاهب غير الإسلامية عن تحقيقه، والملكية حسب التصور القرآني هي أساسًا لله، فالله هو الخالق وهو المالك الحقيقي للكون، والإنسان نفسه وما في الأرض من ثروات مختلفٌ أنواعها»[1]. قال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣]، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، وقال ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [المنافقون:١٠].

(ب) دوران المال بما فيه مصلحة المجتمع

إذا كان الفرد مُستخلَفًا في ما منحه الله من مال، فعليه أن يتصرف في هذا المال بما يكون فيه مصلحة الجماعة، فمن جانب عليه أن يؤدي ما عليه من واجبات كحق الفقراء، والمساكين في الزكاة، والنفقة على الزوجة والأولاد والأقارب إن احتاجوا، ومن جانب آخر ينبغي عليه أن يتصرف فيه بما يعود على الآخرين من نفع، فإن عاد عليهم شيء من الضرر أو تم صرفه بطريقة فيها سفاهة وتبذير فإنه يُمنع من ذلك ويُحجر عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥]، «فالفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة وحيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكًا، والمال في عمومه إنما هو أصلاً حق للجماعة، والجماعة مُستخلَفة فيه عن الله الذي لا مالك لشيء سواه، والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهدًا خاصًا لحيازة شيء معيَّن من هذه الملكية العامة التي استخلف الله فيها جنس الإنسان»[2].

(حـ) الإنفاق والبخل يعود على الإنسان نفسه:

إذا أنفق المرء نفقة أو بخل بالنفقة فإن أثر ذلك يعود عليه وأنه سبحانه يعوض عليه ما أنفقه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

---

(١) بناء المجتمع الإسلامي ونظمه، نبيل السمالوطي ص ٢٠٠، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩١م.

(٢) العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب ص ٩١، الطبعة التاسعة ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م، دار الشروق، القاهرة.

وإذا بخل الإنسان في الإنفاق على المحتاجين فإنما بخله يكون على نفسه ولو أراد نفع نفسه لانفق ماله في ما يرضي الله تعالى، لأنه سبحانه ابتلاه بهذا المال فناظر ماذا يفعل فيه، قال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨]، والإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق المُرضي لله تعالى، فيشمل النفقة على العيال والأقارب والغزو وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك، ومعنى يبخل عن نفسه أي: يعود عليها ضرر بخله ولا يتعداها إلى غيرها[١]، لذلك يقول سبحانه: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

(د) تداول المال بين الأغنياء والفقراء

قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر:٧] وهذه الآية وإن كانت قد وردت في سياق الحديث عن الفيء، إلا أن تعليل التقسيم بهذه الكيفية يُعتبر قاعدة أساسية مهمة في التشريع المالي في القرآن الكريم.

وقوله: ﴿دُولَةً﴾ أي: تداولاً «أي جعلناه مقسومًا على هؤلاء لأجل أن لا يكون الفيء دولة بين الأغنياء من المسلمين، أي لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهل الحاجة نصيب منه ... وقد بدا من هذا التعليل أن من مقاصد الشريعة أن يكون المال دولة بين الأمة الإسلامية»[٢].

يقول سيد قطب – رحمه الله –: «فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية، ولكنها محددة بهذه القاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء». وهو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية، كما يخالف هدفًا من أهداف

---

(١) روح المعاني للالوسي (٢٦ / ٨٢).

(٢) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (٢٨ / ٧٦)، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

التنظيم الاجتماعي كله، وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقي عليه إن وجد.

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة، ففرض الزكاة وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصف في المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية، وعشرة أو خمسة في المئة من جميع الحاصلات، وما يعادل ذلك في الأنعام، وجعل حصيلة الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي، وهي نسب كبيرة، ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء، بينما جعل الفيء كله للفقراء ... وحرم الاحتكار وحظر الربا، وهما الوسيلتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء.

وعلى الجملة، أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تُعدُّ قيدًا أصيلاً على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى»[1].

وإذا كان المال مُتداولاً بين الأغنياء فحسب فإنه سبب أكثر المشاكل والجرائم في المجتمعات، فهو فضلاً عما يثيره من أحقاد وضغائن بين الفقراء والأغنياء، فإنه مثار كثير من المفاسد كالدعارة والفساد الخُلقي والاجتماعي، والنفاق واستعباد الآخرين.

يقول سيد قطب – رحمه الله –: ﴿**كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾ ذلك أن تضخُّم المال في جانب وانحساره في الجانب الآخر، يُمثِّل مفسدة عظيمة، فوق ما يُثيره من أحقاد وضغائن .. فحيثما وجدت ثروة فائضة كانت كالطاقة الحيوية الفائضة في الجسد، لابد من تصريفها، وليس من المضمون دائمًا أن يكون هذا التصريف نظيفًا ومأمونًا، فلابد أن تأخذ طريقها أحيانًا في صورة ترف مُفسد للنفس مُهلك للجسد، وفي صورة شهوات تُقضى، تجد مُتنفَّسَها في الجانب الآخر المحتاج إلى المال، يصل إليه عن طريق بيع العرض والاتجار فيه، ومن طريق الملق والكذب وفناء الشخصية، لإرضاء شهوات الذين يملكون المال، وتمليق غرورهم وخيلائهم، والمضطر يركب الصعب وصاحب المال المتضخِّم لا

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٥٢٥).

يعنيه إلا أن يجد متصرفًا للفائض من حيويته، والفائض من ثروته، وليست الدعارة وسائر ما يتصل بها من خمر وميسر وتجارة رقيق وقوادة، وسقوط مروءة، وضياع شرف سوى أعراض لتضخُّم الثروة في جانب وانحسارها عن الجانب الآخر، وعدم التوازن في المجتمع نتيجة هذا التفاوت.

ذلك عدا أحقاد النفوس وتغيُّر القلوب على ذوي الثراء الفاحش من المحرومين الذين لا يجدون ما ينفقون، فهم إما أن يحقدوا، وإما أن تتهاوى نفوسهم وتتهافت، وتتضاءل قيمهم الذاتية في نظر أنفسهم، فتهون عليهم كرامتهم أمام سطوة المال ومظاهر الثراء، ويصبحوا قطعًا آدمية حقيرة صغيرة، لا هم لهم إلا إرضاء أصحاب الثراء والجاه .. وهذا ما وقع في النظام الرأسمالي»[١].

(هـ) تحريم كنز الأموال

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ [التوبة: ٣٤ -٣٥].

والكنز: جعل المال بعضه على بعض، وحفظه، وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ**﴾ أي: يدخرونها[٢]. وأصل الكنز في اللغة: الضم والجمع، ولا يختص بالذهب والفضة[٣].

والمراد بالذين يكنزون الذهب والفضة: قيل بأنهم الأكثر من الأحبار والرهبان الوارد ذكرهم في أول الآية لكونهم يأكلون أموال الناس بالباطل، وقيل: المراد بهم المسلمون، وهو الأنسب لقوله: ﴿**وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، واختار بعض المحققين حمله على العموم[٤].

واختلفوا في المال الذي أُديت زكاته هل يسمى كنزًا أم لا؟، فذهب جمهور الصحابة إلى أنه لا يُسمى كنزًا، ويؤيده ما رواه عن ابن عباس ﷺ أنه قال: لما

---

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ٩٣.
(٢) المفردات، ص ٤٤٢.
(٣) فتح القدير (٢ / ٣٧٥).
(٤) روح المعاني (١٠ / ٨٧) وفتح القدير (٢ / ٣٧٥).

نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ كبر ذلك على المسلمين، وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يتركَ لولده مالاً يبقى بعده، فقال عمر: أنا أفرِّج عنكم، فانطلق عمر واتبعه ثوبان، فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله، إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال: «**إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض المواريث من أموالٍ تبقى بعدكم**» فكبَّر عمر[١]. وهناك أدلة أخرى في أن ما أُدي زكاته ليس بكنز.

إلا أن هناك حقوقًا أخرى غير الزكاة، فيكون من أدَّى الزكاة إضافة لما يجب عليه من حقوق كالنفقة وإطعام الجائع ونحوها يكون قد أدَّى ما عليه من حقوق ولا يُعتبر كانزًا للمال.

---

(١) رواه أبو داود (١٦٦٤) والحاكم (١ / ٤٠٩) وصححه ووافقه الذهبي.

ثانياً: التشريعات الاقتصادية في القرآن الكريم

(أ) الزكـاة

وقد سبق الحديث عنها في المبحث الأول «نظام العبادة».

(ب) الميـراث

وهو نظام مالي يقوم علي تفتيت الثروة وتوزيعها بين الأقارب، الأقرب فالأقرب، مراعياً قواعد تتحقق فيها العدالة والإنصاف بالنظر إلى مجموع التشريعات المالية التي أقرها القرآن الكريم وفصلتها السنة النبوية. وذكر الفقهاء أن أسباب الميراث هي القرابة والنكاح والولاء. لذا نشير إلى القرابة والنكاح، دون الولاء لانتهاء وجوده في العصر الحديث.

والأقارب بسبب القرابة والنكاح يقسمون لثلاثة أقسام: أصحاب الفرائض والعصبات والأرحام، وأصحاب الفرائض والعصبات يرثون بأنفسهم، أما الأرحام فيرثون بغيرهم حيث يأخذون ميراث أقاربهم في حال عدم وجودهم.

وأصحاب الفرائض هم:

١- الأب ويرث السدس مع الباقي بعد أصحاب الفروض إذا لم يوجد ولد ذكر، فإن وجود ولد ذكر فيأخذ الأب السدس فقط.

٢- الجد الصحيح، وهو الذي لم يكن في نسبه أنثى (أب الأب أو أب أب الأب، وهكذا) فيكون مثل الأب، ويختلف عنه في وجوده مع الإخوة، حيث يمنعهم الأب بينما يرث الجد معهم.

٣- الأم، وترث الثلث إن لم يوجد فرع وارث للميت ولا جمع من الإخوة، وإلا ورثت السدس.

٤- الجدة الصحيحة، وهي التي ليس في نسبها ذكر (أم الأم، أو أم أم الأم) فتأخذ السدس.

٥- البنت، فتأخذ النصف إن كانت واحدة، والثلثان لأكثر من واحدة. وتحل محلها بنت الابن واحدة فأكثر.

٦- الأخت الشقيقة، فلها النصف إن كانت واحدة، والثلثان لاثنتين فأكثر، وكذا الأخت لأب إذا لم توجد الشقيقة.

٧- الأخ أو الأخت لأم، فيأخذ الواحد منهم السدس، ذكرًا كان أو أنثى، والثلث لأكثر من واحد.

٨- الزوج، ويأخذ النصف إن لم يوجد للميت فرع وارث، والربع إن وجد للميت فرع وارث.

٩- الزوجة، وتأخذ الربع إن لم يوجد للميت فرع وارث، والثمن إن وجد للميت فرع وارث. وقد نصت آيات القرآن على هذه الأحكام، وأشارت السنة لميراث الجد والجدة.

العصبات

وهم قرابة الرجل لأبيه، سموا بذلك لشد بعضهم أزر بعض، ولا يرث إلا صنف واحد فيأخذ الأقرب منهم ما بقي من الميراث، وهم في أربع جهات: البنوة ثم الأبوة ثم الأخوة ثم العمومة، فتقدم الجهة، فإذا اتحدت الجهة قدم الأقرب للميت.

والعصبات ثابتة بالحديث: «**ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر**»[1].

---

(١) البخاري (٦٧٣٠)، مسلم (١٦١٥).

ثم يأتي الأرحام فيرثون بغيرهم ويأخذون ميراث السبب الذي ورثوا به.

والملاحظ في نظام الميراث أنه أعطى في كثير من الأحيان للذكر مثل حظ الأنثيين، فجعل للبنات للذكر مثل حظ الأنثيين، وكذلك الأخوات إذا ورثن بالتعصيب، وكذلك الأم مع الأب.

لكنه يُنْظَر للمسألة على عمومها، حيث أوجب على الذكر الإنفاق في كثير من المواطن، كالمهر والنفقة، بل إن المرأة تعيش كل حياتها ونفقتها واجبة على غيرها، فإن كانت قبل الزواج فعلى ولي أمرها، حتى لو كانت هي فوق سن البلوغ، وبعد زواجها نفقتها على زوجها، فإن فقدت زوجها فعلى أولادها أو يرجع أمرها لولي أمرها، فهي مكفولة بإنفاق الذكر فناسب أن يأخذ الذكر ضعف نصيب الأنثى. كما أن المرأة عادة لا تعمل في السوق فلو تكدس المال في يدها لأدى إلى جمود المال وعدم دورانه وهو ما يخالف أهم قواعد الاقتصاد القرآني.

(جـ) النفقة على الأقارب

يجب على الفرد أن ينفق على زوجته وأولاده وأقاربه

١- الإنفاق على الزوجة والأولاد والأب والأم:

يجب على الزوج أن ينفق على زوجته بالمعروف، مع مراعاة حال الزوج في يسره وعسره، قال تعالى: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ [الطلاق:٧]، ومعنى قدر عليه أي ضيق عليه، وفي الحديث أنه ﷺ قال لهند بنت عتبة: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[١].

واتفق الفقهاء على وجوب الإنفاق على الولد والبنت الذين هم دون سن البلوغ. وكذلك الأب والأم، للحديث: «**أنت ومالك لأبيك**»[٢].

---

(١) رواه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤).

(٢) رواه أحمد (٢ / ٢١٤)، وأبو داود (٣٥٣٠)، وهو صحيح (إرواء الغليل رقم ٨٣٨).

٢- الإنفاق على الأقارب:

إذا احتاج الأقارب إلى النفقة، فأوجبها البعض على الأقارب، وللفقهاء تفصيل في ذلك:

(أ) لا تجب إلا لأولاد الصلب (ابن، بنت) والوالدين المباشرين (الأب، الأم) وهو مذهب المالكية.

(ب) تجب للأصول والفروع، وهو مذهب الشافعية.

(حـ) تجب لكل ذي رحم محرم، وهو مذهب الحنفية.

(د) تجب لكل قريب وارث، وهو مذهب الحنابلة(١).

وهذا الرأي الأخير مأخوذ من الآية ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ [البقرة:٢٣٣] حيث جعلت النفقة للوارث مثل ما ينفق على زوجته وأولاده، وهو ما يتفق مع القواعد العامة، فكما أن الإنسان إذا مات ولديه مال فيرثه أقاربه المقربون، فكذلك إذا احتاج فتجب نفقته على أقاربه إذا احتاج، ضمن قاعدة: الغنم بالغرم، أي مثل احتمال غنمك من غيرك فيجب عليك أن تغرم إذا احتاج غيرك. وعليه فتكون نفقته على ورثته كل حسب ميراثه إن ورث مالاً.

(د) الوصيـة

شرعت الوصية للإنسان ليستدرك ما فاته من خير، أو للإحسن إلى من أحسن إليه، من باب الإشعار بالمعروف وحثاً على التكافل الاجتماعي، وليستدرك بها الإحسان إلى من لا يستحق ميراثًا.

قال تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء:١١]، وقال: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء:١٢]، وقال: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء:١٢].

وقد جاءت هذه الآيات في معرض الحديث عن الميراث، حيث بين سبحانه

---

(١) أحكام الأسرة في الشريعة الإسلامية، د. علي القليعي (٢ / ٢٢٧)، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء.

أن الميراث يقسم بعد الوصية والدين. ولا شك أن الدين أحق لصاحبه وأكثر ثبوتًا ويقدم على الوصية، إلا أنه قدم الوصية في الذِّكْر على الدَّيْن للإشارة إلى أهميتها، حيث قد يحصل أن يتساهل الورثة في شأنها ظنًا منهم عدم ثبوتها، فقدمها بالذكر للاهتمام بشأنها.

وفي الحديث: «**لا وصية لوارث**»[1] فهي إذن لمن يستحق المقابلة بالإحسان وهو غير وارث.

(هـ) الغنائم والفيء

الغنيمة ما أخذ من الكفار عنوة بسبب القتال، أما الفيء فما أخذ من الكفار بسبب الصلح من دون قتال، ويشير لهذا التعريف الفرق بين التقسيمين، حيث تقسم خمس الغنائم لستة أصناف، بينما يقسم جميع الفيء إلى ستة أصناف، وإليك بيانها.

قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الأنفال:٤١] هذه الآية في الغنيمة، وللفقهاء تفصيلات في تقسيم هذا الخمس، هل هو ستة بحسب الظاهر، أم خمسة باستثناء سهم الله تعالى باعتبار أن المال كله لله، وكذلك سهم الرسول وذوي القربى بعد وفاة النبي ﷺ. وكذلك التقسيم للأربعة أخماس المتبقية، للمقاتل سهم وللفارس ثلاثة أسهم أو سهمان، وكذا تقسيمها في الوقت الحاضر هل يبقى على حاله أم يرد على الجيش بشكل عام.

أما آية الفيء فقال سبحانه: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾ [الحشر:٧] والخلاف في تقسيمها مثل قسمة خمس الغنائم.

---

(١) الترمذي (٢٠٤٦)، أبو داود (٣٠٩٤)، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

والعلة في عدم تقسيم الفيء على المقاتلين أشارت إليه الآية: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر:٦]، أي لم تقاتلوا عدوكم فتستحقون قسمة ماله.

والتعليل الآخر: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ أي لأجل أن يكون المال لجميع أفراد المسلمين ولا يبقى في يد الأغنياء.

ثالثًا: المحرمـــات الماليـــة

(أ) الربـــا

حرم القرآن الكريم الربا تحريمًا مشددًا، لكونه يدمر المجتمع تدميرًا شديدًا حيث يبقي أصحاب رؤوس الأموال يسيطرون على جميع مفاصل الحياة فيستغلون الناس أبشع استغلال، والمال سبب لانتشار أنواع الرذائل إذا كان في أيدي أناس لا أخلاق لهم ولا مبادىء، وخاصة أن طبيعة الإنسان أنه يزداد بطرًا وتجبرًا إذا صار غنيًا. والمرابي هو أشبه بمصاص الدماء الذي يستلذ في سلب الآخرين ما يملكون.

فليس الربا هو مجرد قرض مالي يستفيد المرابي منه بعض المال، بل لما يجره من ويلات على المجتمع، ولهذا وجدنا النكير الشديد عليه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [البقرة:٢٧٦] وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٨٠] وفي الحديث: «**درهم ربا أشد من ست وثلاثين زنية**»(١).

وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، أي أن الربا يؤدي إلى تراكم القروض وفوائدها لتصبح أضعافاً مضاعفة. والربا محرم سواء كان قليلاً أو كثيراً. فهو كثيراً ما يجر الناس إلى مغامرات تجارية لا يغامر بها الإنسان لو كان المال ماله، وقد يستقرض بفوائد عالية جداً إذا ساد سوق المرابي. وقد كان الربا سبباً للاستعمار ولتدمير الكثير من المؤسسات الفردية والجماعية.

---

(١) ولعن رسول الله آكل الربا وكاتبه وشاهديه، وقال هم سواء» رواه مسلم.

وقد عالج القرآن الكريم مسألة الربا، فأوجد البديل الاقتصادي، والذي يمكن إجماله بما يلي:

[١] شرع مسألة القرض الحسن، وهو الذي يبتغي فيه الإنسان الأجر من الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] وإذا كانت الآية تحتمل أن المراد به الصدقة أو القرض للعباد، لكن الأحاديث أشارت إلى أجر إقراض الأموال، ففي الحديث: «**ما من مسلم يقرض مسلمًا قرضًا مرتين إلا كان كصدقة مرة**»[١] وفي الحديث أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**من نَفَّسَ عن مسلم كربة من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»[٢].

[٢] أوجب القرآن الكريم على صاحب المال أن يأخذ رأس ماله فقط.

[٣] أوجب عليه أن ينتظر المعسر إلى ميسرة.

[٤] شرع شركة المضاربة، فإن كان صاحب صفة وعمل وجهد فتكون شركة بين العامل وصاحب العمل بالصورة التي تناسبهما، فيعمل العامل ويجد جزاء جهده محافظًا على أموال الآخرين، بخلاف المرابي الذي يهمه النتيجة وهو الربح المضمون.

[٥] شرع القرآن الكريم الكثير من الأحكام لرعاية الفقير وسد حاجاته بصورة تضمن له حاجاته وكرامته ومكانته بين الناس.

(ب) السرقة:

السرقة جريمة دينية ودنيوية، فقد حرمها القرآن الكريم، ورتب عليها عقوبة قطع اليد في حال ثبوتها، واشترطت لها شروط منها ألا تكون السرقة عن حاجة ملحة كالجوع الشديد، فإن الإنسان إذا لم يجد ما يأكله يجوز يأخذ من مال

---

(١) رواه ابن ماجه.

(٢) رواه مسلم.

الآخرين، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

(جـ) القمار

وقد سماه القرآن «الميسر»، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

فقد وصف الله سبحانه هذه المحرمات التي منها الميسر بأنها:

[١] رجس، وهو أمر تعافه الفطرة السليمة، فمن فعل هذه الأمور واستحسنها كمن ألف واستحسن العذرة والنجاسة، وهو أمر يخالف الفطرة البشرية السليمة.

[٢] أنه من عمل الشيطان، وأي شيء يرجى منه من خير، فهو عدو الإنسان الأول الذي يريد إغواءه وإيقاعه في الشر، فمن مارس هذه القضايا كان من حزب الشيطان وأعوانه.

[٣] أمر الله سبحانه باجتنابه، وهي صيغة مبالغة في النهي، أشد مما لو قال لا تفعلوه.

[٤] وأهم ما فيه أن الشيطان يريد أن يوقع بين الناس العداوة والبغضاء، فإنه يريد استخدام جميع الوسائل لذلك، فقد يتعذر على الشيطان تزيين العداوة والبغضاء للناس لأنه أمر تعافه النفوس البشرية، إلا أنه يزين لهم أسباب الشر والفساد.

[٥] إضافة إلى أنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

فأي عاقل يرضى بممارسة هذه الفواحش؟

(د) الإسراف والتبذير

السرف هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وهو في الإنفاق أشهر،

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] وقد ذم الله المسرفين وبين أنهم أصحاب النار وأنه سبب في الضلالة ويجعل صاحبه ملوماً ومتحسراً على ما فاته.

أما التبذير فهو تضييع المال، وهو أشد من الإسراف، قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

رابعاً: مشكلة الفقر وعلاج القرآن الكريم لها[١]

تعتبر مشكلة الفقر من أهم المشاكل التي لها أثر خطير على الفرد والمجتمع، وهي المشكلة التي واجهت البشرية منذ فجر التاريخ، وقد عجزت الأنظمة والمجتمعات عن إيجاد حل مناسب لهذه المشكلة، وهو سبب الكثير من الجرائم والفتن، فقد «ثبت أن الفقراء في الطبقة السفلى من المجتمعات هم شر أدواء المجتمع، فالفقر يحمل الواقعين تحت سلطانه على إتيان جميع ضروب الشرور للحصول على أخص حاجات الحياة وهو القوت، فالبطون إذا جاعت دفعت أصحابها لاستساغة جميع صنوف الجرائم، وعدّت ذلك عملاً مشروعًا، وفي البيئات التي يشيع فيها الفقر تروج جميع المذاهب المتطرفة، وتستحل جميع الأعمال الوحشية للوصول إلى أغراضها»[٢]، وقد وصل الأمر في الجاهلية إلى أن قتلوا أولادهم - فلذات أكبادهم - خشية أن يلم بهم الفقر لما يرون من أثره الخطير على الحياة.

والفقير يعيش حياته في همّ وغمّ وكدّ وشقاء، ويستغرق وقته وحياته في الحصول على المال، قال الغزالي في الإحياء: (فالفقير في طلب العلم والكمال وليس له كفاية كساع إلى الهيجا بغير سلاح وكيف لا؟، ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأقوات، وفي تهيئة اللباس والمسكن وضرورات المعيشة، ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر، ولا تندفع إلا بسلاح المال، قال بعض الحكماء - وقد قيل له - ما النعيم؟ فقال: الغنى، فإني رأيت الفقير لا عيش له...»[٣].

---

(١) انظر كتاب حكمة الابتلاء بالفقر وكيف عالج القرآن الكريم هذه المشكلة للمؤلف، طبع دار الإيمان، اسكندرية.

(٢) روح الدين الإسلامي، ص ٣٤٣ . (٣) إحياء علوم الدين (٤ / ١٣٤).

وقد حاولت الأديان والمذاهب والفلسفات أن تحل مشكلة الفقر، ووجدت نظريات وفلسفات لعلاج هذه المشكلة، إلا أن هذه المشكلة لم تحل بشكل منطقي ومعقول حتى جاء الإسلام وعالجها علاجًا جذريًا، حتي مر المجتمع الإسلامي بمرحلة ينادى فيها على من يستحق الزكاة حتى يُعطى منها فلا يجدون أحداً.

أما الحركات والمذاهب التي نادت بحل مشكلة الفقر فقد كانت متطرفة، إما إلى جهة الغنيٍّ بحيث تحثه على الإحسان الفردي فقط، وإما إلى جهة الفقير وعلى حساب الغنيٍّ، فقد «حاولت الأديان والفلسفات منذ القدم أن تحل مشكلة الفقر، وتخفف من عذاب الفقراء، حينًا عن طريق الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب، وتارة عن طريق التحليق النظري في عالم مثالي لا تفاضل فيه ولا طبقات، ولا فقر ولا حرمان، وهو عالم يُرسم على صفحات الكتب لا في واقع الناس، وأبرز مثل لذلك جمهورية أفلاطون، قبل بضعة قرون من ميلاد المسيح عليه السلام، وطوراً عن طريق حركات متطرفة تريد معالجة الانحراف الواقع بانحراف أشد منه، كحركة مزدك في فارس بعد خمسة قرون من الميلاد، وقد دعا إلى شيوعية الأموال والنساء[١].

ولا تزال هذه المشكلة في عصرنا الراهن من أهم المشكلات التي تعانيها المجتمعات الحديثة وتحاول القضاء عليها «ولعل الصراع الذي يدور في العالم اليوم يعود إلى وجود هذه المشكلة، وإلى الطريق التي يمكن بها معالجتها، وتذهب النظم الرأسمالية إلى الاعتماد على فكرة الإحسان الفردي الذي يقدم إلى الفقراء مساعدة لهم، ويدفعه الغنيّ عن رضاه واختياره، في حين تذهب النظم الاشتراكية إلى مصادرة أموال الأغنياء لحساب الدولة، ثم تتولى الدولة بعد ذلك معالجة هذه المشكلة»[٢].

أما القرآن الكريم فقد عالج هذه المشكلة علاجًا جذريًا وبالشكل الذي

---

(١) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام للقرضاوي ص٣، مكتبة وهبة، مصر، بلا تاريخ.
(٢) التنمية الاقتصادية في الإسلام لعبد الحق الشكيري، ص ١٠٩، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، كتاب الأمة.

يتناسب مع توازن المجتمع وتكافله، ومع احترام الفقير واعتباره إنسانًا في هذا المجتمع له كامل الشخصية الحرة والكريمة.

ولم تقتصر معالجة القرآن الكريم على معالجة مشكلة الفقير المسلم، بل تعدى ذلك إلى أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾ [الإنسان:٨]، والأسير هو المشرك كما ورد عن ابن عباس وغيره[١]، وقال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ [الممتحنة:٨]، والبر هو التوسع في فعل الخير.

حقوق الفقراء

ويمكن تقسيمها لثلاثة أقسام، وهي: الموارد المالية، الطعام، الإحسان.

(أ) الموارد المالية

١- الزكـــاة

الزكاة وسيلة مهمة للقضاء على الفقر وحل مشكلة الفقراء والمحتاجين، وهي قبل كل ذلك طُهْرَةٌ لمال الغنيِّ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]، وقد بينت الآية مصارفها: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٦٠]، والذي عليه جمهور العلماء أنه لا يجب الإعطاء لجميع الأصناف، بل التوزيع موكول لاجتهاد أولياء الأمور يضعونها على حساب الأصناف وسعة الأموال[١].

فالزكاة من أهم الأنظمة التي تحل مشكلة الفقر، وهي ليست مجرد حل مادي لهذه المشكلة، إنما هي حل مادي ومعنوي، فهي تحل مشكلة الفقراء والمحتاجين بشكل يحفظ للفقير كرامته، وعفته ويزيل الهوَّة بين الغنيِّ والفقير من الحقد والحسد، فالفقير يأخذ حقه الذي فرضه الله له بلا منَّة لأحد عليه، فحقُّهُ محفوظ وكرامته مأمونة ولا داعي لأن يمد يده لمن يعطيه أو يمنعه، وإن امتنع أحد عن إعطاء الحق الذي عليه فإنه يُقاتل حتى يؤدي هذا الحق.

٢- الصدقـة:

والصدقة باب واسع لحل مشكلة الفقراء والمساكين، وهي تجارة رابحة مُجزية مخلوفة بأفضل منها وبشكل لا حد له، إنها جزاء من عليم قدير رحمته واسعة

(١) التحرير والتنوير (١٠ / ١٣٠).

وخزائنه لا تنفد ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١]، وقال سبحانه: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد:١١]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩]، وقال: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٢].

والأقربون أولى بالمعروف، والصدقة عليهم صدقتان: صدقة وصلة: ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة:١٧٧].

والصدقة لها هذا الأجر العظيم بشرط عدم المنِّ والأذى، لأن ذلك يبُطلها، فالقرآن «يجعل للصدقة آدابًا ترفعها عن أن تكون تفضلاً واستعلاء من الواجد على المحروم، أو أن تكون رياءاً صادراً عن شعور غير كريم، لأن الصدقة إن هبطت دوافعها، أو تبعها المنُّ على آخذها استحالت عملاً خسيسًا يؤذي النفس والخلق والضمير، ويؤذي المجتمع كذلك في أفراده وفي روابطه، وليس كالمنِّ بالإحسان شيءُ يمضُّ النفس ويذلها أو يصرفها عن قبول الإحسان، وليس كالرياء بالصدقة مفسد للضمير حقير في عرف الأخلاق، والإسلام يعمل على رفع نفوس المُعطين والآخذين جميعًا»(١).

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٢٦٢-٤٦٢]، والمنّ هو ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها،

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب، ص ٧٣.

وقيل: التحدُّث بما أعطي حتى يبلغ ذلك المعطي فيؤذيه ... والأذى: السب والتطاول والتشكّي[١]، وفي الحديث: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم**»، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟، قال: «**المسبل، والمنَّان، والمنفق سلعته بالحلف الكذب**»[٢].

وأفضل الصدقات أجرًا ما كان أفضلها نوعًا، وعليه أن لا يقصد إلى الخبيث من المال فيخرج منه بل من أفضله وأحبه إليه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾ [البقرة:٢٦٧]، وقال سبحانه: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ [آل عمران:٩٢].

فأي تكريم لهذا الفقير الذي يبلغ بسببه المرء أعلى درجات الإيمان والمحبة عند الله إذا أكرم هذا الفقير فتصدق عليه بلا منّ ولا أذى وأعطاه من أفضل ما يُحب، وأسمى درجة ذلك الذي يُؤثر غيره فيجوع ليأكل الفقير: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر:٩].

٣- الغنيمة والفيء

والغنيمة ما أخذه المسلمون من أموال الكفار بالقتال، وهذه جعل خمسها لأصناف منهم المساكين الذين لا يستطيعون ضربًا في الأرض، قال تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ [الأنفال:٤١].

أما الفيء وهو الذي حصل عليه المسلمون بلا قتال فهذا كله يوزع على الأصناف المذكورة في الآية: ﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾ [الحشر:٧].

---

(١) فتح القدير (١ / ٣٥٩).
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٧١) وأبو داود (٤٠٨٧) والترمذي (١٢١١).

٤- حضورهم قسمة الميراث

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

والمراد بالقرابة هنا غير الوارثين، وكذا اليتامى والمساكين، فإذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق، وقد ذهب إلى أن الآية محكمة غير منسوخة والأمر فيه للندب، وذهب آخرون إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١]، والأول أرجح لأن المذكورين هم القرابة غير الوارثين.

وقال طائفة إن إعطاءهم واجب بقدر ما تطيب به أنفس الورثة.

والقول المعروف: هو القول الجميل الذي ليس فيه مَنّ ولا أذى[١].

(ب) الطعـــام

موارد إطعام الفقير كثيرة جداً، باعتبار أن قضية الطعام من أهم مشاكل الفقير، وقد يسبب الجوع إذا وجد لدى الإنسان الكثير من الرذائل والجرائم.

والقرآن الكريم اعتبر عدم إطعام المسكين جريمة كبرى يستحق فاعلها العقاب بالنار يوم القيامة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر:٣٨-٤٤].

وليس مجرد ترك الإطعام، بل الحض عليه، واعتبر من يفعل ذلك مكذبًا بالدين، كما قال سبحانه: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣]، وقال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٠-٣٤].

لقد اعتبر القرآن الكريم أن أمام الإنسان عقبة كؤوداً لا يتجاوزها إلا بأمور

(١) فتح القدير (١ / ٥١٣).

منها: إطعام مسكين في يوم ذي مسغبة: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١١-١٦]

ومصادر إطعام الفقراء والمساكين على النحو التالي:

١- كفَّارة اليمين:

قال تعالى: ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

واللغو هو: ما يبدو من المرء بلا قصد، كقول الرجل: لا والله، وبلى والله، و﴿ عَقَّدتُّمُ ﴾ وثَّقْتُمْ بالقصد والنية[١].

وظاهره أنه يُجزئ إطعام عشرة مساكين حتى يشبعوا، قيل: يُطعمهم غداء وعشاء، وقيل: يُطعمهم أكلة واحدة مُشبعة[٢].

٢- كفارة الظِّهار

والظِّهار هو: أن يقول الرجل لامرأته: «أنتِ عليَّ كظهر أمي، أي: أنتِ مُحرَّمة عليَّ كما حرَّم الله عليَّ ظهر أمي»، وكفَّارته تحرير رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

والقرآن أجمل مقدار الطعام في الآية اكتفاء بتسميته إطعامًا، فيحمل على

---

(١) تفسير البيضاوي (١ / ٤٥٩).
(٢) فتح القدير (٢ / ٧٥).

ما يقصده الناس من الطعام وهو الشبع الواحد كما هو المتعارف في فعل طعم، فحمله العلماء على ما به شبع الجائع(١).

قال الشوكاني: «والظاهر من الآية أن يُطعمهم حتى يشبعوا مرة واحدة، أو يدفع إليهم ما يُشبعهم، ولا يلزمه أن يجمعهم مرة واحدة بل يجوز أن يطعم بعض الستين في يوم وبعضهم في يوم آخر»(٢).

٣- كفَّارة إفطار رمضان

وهي أن الذي لا يستطيع صيام رمضان كالشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام عليه أن يدفع كفَّارة، وهي إطعام مسكين عن كل يوم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وكان في أول فرض الصيام أن الذي يُطيق الصيام إن شاء صام وإن شاء أفطر وكفَّر بإطعام مسكين عن كل يوم، فنسخت الآية بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥](٣).

وعن ابن عباس أن الآية باقية في حق من لا يُطيق الصيام كالشيخ الكبير والمرأة الكبيرة والحبلى والمرضع، قال القرطبي: «ثبت بالأسانيد الصحيحة عن ابن عباس أن الآية ليست بمنسوخة، وأنها محكمة في حق من ذُكر»(٤).

٤- الأكل من مال اليتيم

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

واختلفوا في الأكل بالمعروف، فقال قوم: هو القرض، ويقضي متى أيسر الله عليه، وقال آخرون: لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف، وهو قول الجمهور، قال الشوكاني: «وهذا بالنظم القرآني ألصق، فإن إباحة الأكل للفقير مُشْعِرَةٌ

(١) التحرير والتنوير (٢٨ / ١٩).
(٢) فتح القدير (٥ / ١٨١).
(٣) البخاري (٤٥٠٧) ومسلم في الصيام (١٤٩).
(٤) القرطبي (٢ / ٢٨٨).

بجواز ذلك له من غير قرض»(١)، ويأكل من ماله بقدر حاجته الضرورية وأجرة سعيه وخدمته(٢)، وفي الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم، فقال: «**كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مُبذّر ولا مُتأثل مالاً ومن غير أن تقي مالك بماله**»(٣)، وقوله: «ولا متأثل، أي ولا متخذ من أصل ماله مالاً للتجارة ونحوها، وقوله: ولا تقي مالك بماله أي: لا تحفظ مالك بصرف ماله في حاجتك.

٥- نحر الهدي في الحج

قال تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** ﴾ [الحج: ٢٨].

﴿ **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ** ﴾ أي: ليحضروا ويحصلوا منافع لهم دينية ودنيوية، وأعظمه اجتماع أهل التوحيد في صعيد واحد ليتلقى بعضهم عن بعض ما به كمال إيمانه ﴿ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** ﴾ أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا والضحايا، وأدمج في هذا الحكم الامتنان بأن الله رزقهم تلك الأنعام، وهذا تعريض بطلب الشكر على هذا الرزق بالإخلاص لله في العبادة وإطعام المحاويج، وفي ذلك سد لحاجة الفقراء بتزويدهم ما يكفيهم لعامهم، ولذلك فَرَّعَ عليه: ﴿ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** ﴾(٤).

والبؤس شدة الفقر، والبائس هو الفقير، وذكر الفقير بعد البائس لترقيق أفئدة الناس على الفقير بتذكيرهم أنه في بؤس، لأن وصف فقير لشيوع تداوله على الألسن صار كاللقب غير مُشْعِرٍ بمعنى الحاجة، وقد حصل من ذكر الوصفين التأكيد(٥).

والأمر بالإطعام هنا للوجوب، وقيل للندب(٦).

---

(١) فتح القدير (١ / ٥١١).

(٢) تفسير أبي السعود (٢ / ١٤٦).

(٣) رواه أحمد (٢ / ١٨٦) وأبو داود (٢٨٧٢).

(٤) فتح القدير (٣ / ٤٤٧).

(٥) التحرير والتنوير (١٧ / ١٧٩).

(٦) فتح القدير (٣ / ٤٤٧).

وفي آية أخرى ذكر القانع والمعتر، فقال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] والقانع هو الذي يرضى بما عنده ولا يسأل، والمعتر الذي يتعرض لك ولا يسألك، روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما(١).

٦- الصيد في الحرم

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة:٩٥]، ومقدار الإطعام وعدد المساكين موكول تقديره إلى الحكمَيْن(٢).

٧- الجـــار

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦]، ومن صور الإحسان للجار أن لا يبيت شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم، كما في الحديث: «**ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم**»(٣).

٨- صدقة الفطر والوليمة

وقد فرض رسول الله ﷺ موردًا لإطعام الفقراء في يوم العيد خاصة وهو صدقة الفطر كما في الحديث عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعًا من شعير، على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين(٤).

كما بيَّن النبي ﷺ أن شر الطعام ما يُدعى إليه الأغنياء ويُمنع منه الفقراء، فقال: «**شر الطعام طعام الوليمة، يمنعها من يأتيها ويُدعى إليها من يأباها ..**»(٥)،

---

(١) فتح القدير (٣ / ٤٥٣). (٢) التحرير والتنوير (٥ / ٢١٦).
(٣) رواه الطبراني والبزار، وإسناده حسن (مجمع الزوائد ٨ / ١٦٨).
(٤) رواه البخاري (١٥٠٤) ومسلم في الزكاة (١٢). (٥) رواه مسلم في النكاح (١١٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**بئس الطعام طعام الوليمة، يُدعى إليها الأغنياء، ويُترك الفقراء**»(١).

(جـ) الإحسان

الإحسان مأخوذ من فعل الحسن، وهو بمعنى أن يقدم الإنسان أحسن ما عنده، سواء كان في الاعتقاد أو في العبادة أو في المعاملة، قال الراغب: «الإحسانُ يقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير، يقال: أحسن فلان، والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا أو عمل عملاً حسنًا ... والإحسان أعم من الإنعام»(٢).

والإحسان يُعتبر لب الإيمان وكماله، قال ابن القيم: «منزلة الإحسان: وهي لب الإيمان وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل، فجميعها منطوية فيها»(٣).

والإحسان للفقير هو أن يُقدِّم المحسن أفضل ما عنده في التعامل معه، فإن تصدق عليه صدقة واجبة أو مندوبة فيظهر فيه الإحسان، كأن تكون الصدقة مما يحب ولا يتبعها مَنٌّ ولا أذى، وإن كان سائلاً فلا ينهره، وإن كان مسكينًا فيحبه، وباختصار: أن يعامل الفقير بأحسن ما تكون المعاملة.

صور الإحسان للفقير كثيرة ويمكن إجمالها بما يأتي:

أ- الإنفاق عليه مما يُحبُّ

قال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ [الإنسان: ٨]، وقال سبحانه: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ**﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يشمل الزكاة وغيرها، وقوله: ﴿**عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾ أي: أعطى المال وهو مُحب

---

(١) رواه مسلم في النكاح (١٠٧). (٢) المفردات، ص ١١٩.
(٣) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٥٩) دار الرشاد، الدار البيضاء، المغرب.

له، وليس المال الذي يرغب عنه، قال ابن كثير: «أي أخرجه وهو مُحب له راغب فيه»[(١)].

وقال سبحانه: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ [البقرة:٢٦٧]، أي: أن تكون الصدقة من أفضل المال وأن تكون حلالاً.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، وكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلّق في المسجد، وكان أهل الصُّفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه، فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحشف[(٢)] بالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا على إغماض وحياء. قال: فكان بعد ذلك يأتي بصالح ما عنده[(٣)].

وأن لا يكون في الصدقة مَنٌّ ولا أذى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة:٢٦٤]، والمنُّ هو: ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها، وقيل: التحدث بما أعطى .. والأذى: السب والتطاول[(٤)].

ولا مانع من إظهار الصدقة بشرط أن لا يكون فيها إيذاءٌ للفقير، ولكنّ إخفاءها أفضل: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١].

---

(١) تفسير ابن كثير (١ / ١٩٧).

(٢) القنو: هو العذق من النخل، والبسر: المرحلة الأولى النضج التمر فيكون بسرًا ثم رطبًا ثم تمرًا، والشيص والحشف أردأ أنواع التمر.

(٣) رواه الحاكم (٢ / ٢٨٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) فتح القدير (١ / ٣٥٩).

٢- عدم نهر السائل

السائل الذي يسأل شيئًا له حقٌّ، فلا يجوز أن يُنهر، أي: أن يُستقبل بكلام يزجره، ويغلظ له القول، فإن رده فيرد بالجميل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٥-١٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، وقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١٠].

فحق السائل أن يُعطى أو يُرد بلا زجر، والسؤال في الأصل ممنوع إلا لحاجة، والتي بيَّنها الحديث: «**إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمَّل حَمَالةً، فحلَّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت لا مسألة حتى يصيب قوامًا من عيش - قوامًا من عيش - أو قال: سدادًا من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فلاقةٌ، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش - أو قال: سدادًا من عيش، فما سواهن من المسألة - يا قبيصة - سحتٌ، يأكلها صاحبها سحتًا**»[١]، والحمالة: أن يقع قتال ونحوه بين فريقين فيصلح إنسانٌ بينهم على ماله يتحمله. والجائحة: الآفة تصيب مال الإنسان، والفاقة: الفقر. والحجى: العقل، وفي الحديث أيضًا: «**من سأل الناس تكثُّرًا فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر**»[٢].

٣- تزويجـه

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٢-٣٣].

الأيامى جمع أيِّم، وهو من لا زوج له رجلاً أو امرأة، بكرًا أو ثيبًا[٣] والمعنى:

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٤). (٢) رواه مسلم (١٠٤١).
(٣) تفسير النسفي (٢ / ١٦٠) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية، بيروت.

«لا يمنعنّ فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة، فإن في فضل الله عز وجل غنية عن المال، فإنه غادٍ ورائح يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب، أو وعد منه سبحانه بالإغناء لقوله ﷺ: «**اطلبوا الغنى في هذه الآية**» لكنه مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [التوبة: ٢٨](١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**انكحوا النساء، فإنهن يأتينكم بالمال**»(٢)، وقال ﷺ: «**ثلاثة حق على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء، والغازي في سبيل الله**»(٣)، وعن جابر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو إليه الفاقة، «فأمره أن يتزوج»(٤).

فالله سبحانه تكفَّل بإغناء الفقير الذي يريد النكاح بالعفاف، فيهيء له العون للنكاح، ويغنيه من فضله، يقول سيد قطب: (والعقبة المالية هي العقبة الأولى في طريق بناء البيوت وتحصين النفوس، والإسلام نظام متكامل، فهو لا يفرض العفة، إلا وقد هيَّأ لها أسبابها، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء، فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ إلا الذي يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر، لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة أن تعين من يقف المال في طريقهم إلى النكاح الحلال»(٥).

فإن لم يُزَوَّجْ الفقراء المرضيون في خلقهم ودينهم، فسوف تقع فتنة وفساد كبير: «**إذا أتاكم من ترضون خُلقه ودينه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»(٦).

٤- العدل في شأنه

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ**

---

(١) تفسير أبي السعود (٦ / ١٧١).
(٢) رواه الحاكم (٢ / ١٦١) وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) رواه أحمد (٢ / ٢٥١) والحاكم (٢ / ١٦٠) وغيرهما وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٤) رواه الخطيب في تاريخه (الدر المنثور ٥ / ٨١).
(٥) في ظلال القرآن (٤ / ٢٥١٥).
(٦) رواه الترمذي وحسنه (١٠٨٥).

الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء:١٣٥].

فالله سبحانه يمنع المؤمنين من عدم العدل في شأن الفقير، فيحكم بالعدل له أو عليه وهو غاية العدل، قال أبو السعود: «أي فلا تمتنعوا عنها طلبًا لرضا الغني أو ترحمًا على الفقير، فإن الله أولى بجنسي الغنيِّ والفقير»[١]، وقال ابن عاشور: «أي إن يكن المقسط في حقه أوالمشهود له غنيًا أو فقيرًا، فلا يكن غناه ولا فقره سببًا للقضاء له أو عليه، والشهادة له أو عليه.

والمقصود من ذلك التحذير من التأثير بأحوال يلتبس فيها الباطل بالحق لما يحف بها من عوارض يَتُوَهم أن الغنَى يربأ بصاحبه عن أخذ حق غيره، يقول في نفسه: هذا في غنية من أكل حق غيره وقد أنعم الله عليه بعدم الحاجة، فنهاهم عن هذه التأثيرات بكلمة جامعة، وهي قوله: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾[٢].

٥- إنظاره في الدين إن كان معسراً

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨٠]، فإذا كان الإنسان معسرًا فيجب إنظاره حتى يصبح في ميسرة، وفي ذلك صيانة لحق الإنسان ولكرامته إن كان في عسرة، ومعلوم أن الإعسار سبب لتراكم الديون فيصبح الربا أضعافًا مضاعفة، أو يبيع ما يملكه من أموال أساسية بثمن بخس، وفي ذلك إضرار شديد بالإنسان.

قال ابن عاشور – رحمه الله –: «والصيغة طلب، وهي مُحتملة للوجوب والندب، فإن أريد بالعسرة العدم أي نفاد ماله كله فالطلب للوجوب، والمقصود به إبطال حكم بيع المعسر واسترقاقه في الدين إذا لم يكن له وفاء، وقيل: إن ذلك كان حكماً في الجاهلية، وكان في شريعة الرومان استرقاق المدين، ومورد الآية على ديون معاملات الربا، لكن الجمهور عَمَّمَهَا في جميع المعاملات»[٣].

(١) تفسير أبي السعود (٢ / ٢٤٢).
(٢) التحرير والتنوير (٤ / ٢٧٧).
(٣) التحرير والتنوير (٢ / ٥٦٢) بتصرف.

ويقول سيد قطب – رحمه الله –: «إن المعسر في الإسلام لا يطارد من صاحب الدين أو من القانون أو الحاكم، إنما ينظر حتى يوسر، ثم إن تطوع بهذا الخير، فهو خير لنفسه كما هو خير للمدين، وهو خير للجماعة كلها ولحياتها المتكافلة»(١).

٦- نفي الحرج عنه في الجهاد:

قال تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ [التوبة:٩١-٩٢]، فلا حرج عليهم في تخلّفهم عن الجهاد لوجود العذر في ذلك، وهؤلاء لهم أجر الجهاد وكأنهم يجاهدون، كما في الحديث: «**لقد تركتم بعدكم قومًا ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا إلا وهم معكم فيه**»، قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟، فقال: «**حبسهم العذر**»(٢).

وهذا فضلاً عن نصيبهم في الغنائم والفيء حيث لهم فيه نصيب وافر.

٧- القيام على المساكين وحبُّهم

ومن صور الإحسان للمساكين ما أشارت إليه السُّنَّة، وهوالقائم على المسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الصائم، فعن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**» وأحسبه قال: «**وكالقائم الذي لايفتر، وكالصائم الذي لا يفطر**»(٣).

---

(١) في ظلال القرآن (١ / ٣٣٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٢٣).

(٣) رواه البخاري (٥٣٥٣) ومسلم في الزهد (٤١).

كما رغب النبي ﷺ في حب المساكين، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير «**أوصاني أن لا أنظر إلى من هو فوقي، وانظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدنو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت**»[١].

كما بين النبي ﷺ أن هذه الأمَّة إنما تُنصر بضعائفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم، قال ﷺ: «**ابغوني في ضعائفكم، فإنما تنصرون وتُرزقون بضعفائكم**»[٢].

ومعنى الحديث: تقرَّبوا إليَّ بالتقرُّب إليهم وتفقُّد حالهم وحفظ حقوقهم والإحسان إليهم، قولاً وعملاً وفعلاً واستنصارًا بهم[٣].

---

(١) رراه أحمد (٥ / ١٥٩) وابن حبان (٤٤٩) وهو حديث صحيح.
(٢) رواه أبو داود (٢٥٩٤) والترمذي (١٧٠٢) والنسائي (٦ / ٤٥) وهو حديث صحيح كما في هامش الترغيب والترهيب المنذري (٤ / ٥٠).
(٣) فيض القديرللمنادي (١ / ١٠٩) الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.

المبحث الرابع
النظـــام الأخلاقـــي

يبحث علم الأخلاق في الفضائل، وهو ما يقتضي الحث على الفضيلة والنهي عما يضادها من الرذائل، أي يبحث عن معنى الخير والشر، ويبين ما ينبغي على الناس سلوكه والغاية التي ينبغي عليهم أن يقصدوها في أعمالهم.

والأخلاق أساس المجتمعات، وهي تمثل الدعامة الأساسية لحفظ كيان الأمم، كما قال الشاعر:

إنما الأمم الأخــلاق مــا بقــيت ... فـإن هم ذهبت أخـلاقـهم ذهبـوا

فتظهر قيمة المجتمع بقدر قيمة أخلاقه، فإن كانت أخلاقه سامية نبيلة فهو مجتمع نبيل، وإن كانت أخلاقه منحطة فهو مجتمع فاسد، ولو كان متمدنًا.

ولو نظرنا إلى المجتمعات الغربية اليوم لوجدنا، مجتمعات منحطة في أسوأ أحوالها، تسودها القيم المادية على حساب القيم الإنسانية النبيلة. ونسفت القيم من جذورها في سبيل ذلك. ففي نطاق الحرب طبقوا المبدأ الميكافيلي الذي يبيح لهم استخدام كل الوسائل الهمجية لتحقيق النصر وما بعد النصر من استقلال الآخرين واستعمارهم واستغلال تلك المجتمعات، حتى صاروا ينظرون إلى الآخرين ما هم إلا عبيد لهم لتحقيق مصالحهم، بل إن الحيوانات عندهم لها من الحقوق ما ليس للبشر الآخرين. لقد انحدرت تلك المجتمعات انحدارًا كبيرًا، فهل كانت مدنيتهم هذه حضارة؟!

أما القرآن الكريم فدعا إلى الفضائل التي تلتقي عليها البشرية، فدعا إلى الصدق والإحسان والصبر والعفو والتعاون والإيثار وكل ما يؤدي إلى لحمة المجتمع وتآلفه، ونهى عما يضادها من رذائل كالكذب والظن السيء والحسد والغيبة والتجسس وغيرها.

والله سبحانه وتعالى جعل الشر في الحياة ابتلاء للناس، فخلق الشيطان وأعطاه القدرة على الوسوسة للإنسان بكل دواعي الشر وتزيينه له ابتلاء للإنسان، حيث جعل سبحانه في الإنسان نوازع الخير وأيدها بمؤيدات كثيرة، فخلق الإنسان وأعطاه العقل ليفكر به ويميز الخير عن الشر، وبين له كل طرق الخير من خلال إرسال الرسل وإنزال الكتب، إضافة لما بثه الله سبحانه في هذا الكون من مؤيدات الفطرة للتوصل إلى التوحيد. وبين طرق الشر وجعل له مغريات كثيرة في اقتراف الشر، فخلق الله الشيطان وأعطاه قدرة كبيرة على إغواء بني آدم بتزيين المعاصي والمفاسد، وجعل للمعاصي شيئًا من اللذة الدنيوية، وبين له أضرار هذه المعاصي. وجعل سبحانه لكل إنسان قرينًا يوسوس له. ولم تقتصر الشياطين على إبليس وقرين الجن بل كانت هناك شياطين الإنس من البشر وهم دعاة السوء.

والله سبحانه جعل للنفس البشرية خاصية معينة، وهي قبولها للخير والشر، فالخير وما يؤيده من تعاليم الرسل والكتب وعلماء الأمة الراعين للخير وكذا أصحاب الخير وعقل الإنسان الذي يدعوه إلى كل فضيلة يجر الإنسان لسلوك طريق الخير، والشر وما يؤيده من إغواء إبليس وأعوانه من الجن والبشر، وكذا شهوات الإنسان التي تشده لعمل الشر.

فالنفس البشرية تحمل نوازع الخير والشر، والحياة بالنسبة إليه ابتلاء للصراع بين الخير والشر، أو بين العقل والشهوات، قال سبحانه: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا**﴾ [الشمس:٧-١١]، وقال سبحانه: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ [البلد:١٠]، أي طريقي الخير والشر، وقال سبحانه: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الإنسان:٣]، فقد أودع الله سبحانه في نفس الإنسان القدرة على إدراك وسلوك الخير والشر، والهدى والضلال، والحق والباطل ليختار أيهما يشاء، وزوده باستعدادات متساوية للخير والشر.

وبين سبحانه أن الأثر الإيجابي للتزكية يرجع عليه بالخير، فقال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن**

تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤] وقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

ومن رحمة الله سبحانه بعبده فتح باب التوبة، فالإنسان مهما فعل من معاصي فإنه إذا تاب تاب الله عليه وغفر له ذنبه وكفر عنه سيئاته، وبالتالي فمهما ارتكب الإنسان من معاصي فإن التوبة تحول حياة الإنسان وتجعل منه إنساناً إيجابياً، فيكون قد تخلص من إثم الجرائم والمعاصي، وتحولت نفسيته إلى عامل خير في بناء المجتمع.

ومن أهم العوامل في بناء نفسية الفرد وتحويل نفسية المجرم من نفسية سلبية إلى نفسية إيجابية هو ذلك العامل الأساسي في حياة الفرد والمجتمع، وهو الإيمان. فشعور الفرد بأن هناك إله عالم حي مريد سميع بصير قادر على كل شيء وأنه سيحاسب الناس في الآخرة، هو من أهم العوامل في إصلاح النفوس، فالمجرم إذا ارتكب معصية قد ينجو من عذاب الدنيا، لكنه لا يمكنه أن يشعر يوماً بنجاته من عذاب الآخرة، إلا باللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والتوبة من ذنبه. لذا كان الإيمان من أهم العوامل في إصلاح النفوس وتزكيتها، وهو شعور يلاحق الفرد في كل وقت وحين.

فالنظام الأخلاقي في القرآن الكريم يقوم على الدعوة إلى الخير والفضائل وترك الشر والرذائل.

أولاً: الفضائل

دعا القرآن الكريم إلى التحلي بالفضائل الإنسانية، وهي: الإحسان، الصبر، العفو، الصدق، الإصلاح بين الناس، التعاون، الإيثار، الكلام الحسن ومعاشرة الأخيار، الاستئذان والتحية.

وهي فضائل تلتقي عليها الإنسانية جميعًا. ويمكن بيانها على النحو التالي:

(أ) الإحسان

الإحسان مأخوذ من فعل الحسن، فإن كان إحسانًا إلى الغير سمي إنعامًا، وإن كان إحسانًا في العمل سمي إتقانًا وإجادة.

وقد أمر الله سبحانه بالإحسان فقال: ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:١٩٥] وقال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل:٩٠] فالعدل أن يعطي ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له. والمحسنون من أحسنوا مع الله في العبادة ومع خلق الله في المعاملة.

١- الإحسان في العبادة

والعبادة هي كل عمل مباح يبتغي به الإنسان وجه الله تعالى. والإحسان فيها هو أن تؤدي بصورة فيها شعور قوي بمراقبة الله تعالى، وقد عبر عنها الحديث: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» أي أن يشعر المرء في حال عبادته كأنه يرى الله أمامه، فإن لم يتمكن من هذا الشعور فليعبده بأنه سبحانه يرى عبده في حالة عبادته.

٢- الإحسان في المعاملات

هو أن [illegible] تعامله مع الناس، ويعتبر تعامله عبادة، فإن أحسن للناس

فلوجه الله تعالى، وإن عفا عن ظالم فكذلك، وهو ما يقتضي أن يتصرف بمنطق الرحمة للآخرين، لأنه يبتغي رضوان أرحم الراحمين وهو الله سبحانه وتعالى، ففي الحديث: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته وليُرح ذبيحته**»[1] فإذا كان هذا في الذبح والقتل، فكيف بغيره؟!

وقد أمر الله سبحانه بالإحسان لجميع الناس، وخص الوالدين والأقربين والمحتاجين والأصحاب ومن يختلط بهم، قال سبحانه: ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ [النساء: ٣٦].

فهو للوالدين ببرهما، وهو طاعتهما، وإيصال الخير إليهما، وكف الأذى عنهما، والدعاء والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما. وهو للأقارب، ببرهم ورحمتهم والعطف عليهم، وترك ما يسيء إليهم. وهو لليتامى، بالمحافظة على أموالهم وصيانة حقوقهم، وتربيتهم، وترك أذاهم. وهو للمساكين، بسد جوعتهم وستر عوراتهم، والحث على إطعامهم، والوفاء بحاجاتهم. وهو للجار القريب والبعيد، وكذا الصاحب في تعلم وصناعة وسفر ونحوه، وللمسافر بقضاء حوائجه، وللعبيد والإماء.

وكذلك الإحسان في الصناعة والعمل، وذلك بإتقانه والنصح للآخرين وعدم غشهم. والإحسان من أفضل وسائل التربية للفرد والجماعة، حيث يعودهم على الإخلاص والإتقان والإجادة وتقديم الخير والنفع للآخرين.

(ب) الصبر

تدل كلمة الصبر على حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع. والصبر

---

(١) مسلم، (١٩٥٥).

إما بدني، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه، أو نفسي كالصبر عن مشتهيات الطبع ومقتضى الهوى.

والصبر له أنواع وتسميات كثيرة، فإن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه، فإن كان في مصيبة سمي صبراً ويضاده الجزع والهلع، وإن كان في احتمال الغني سمي ضبط النفس ويضاده البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان في كظم غيظ وغضب سمي حلماً ويضاده التذمر، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان سمي سعة صدر ويضاده الضجر والتبرّم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر، وإن كان عن فضول عيش سمي زهداً ويضاده الحرص، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره.

فأكثر أخلاق الإيمان داخلة في الصبر، لذلك ورد في حديث وإن كان ضعيفاً: «**الإيمان نصفان: فنصف في الصبر، ونصف في الشكر**»(١).

وللصبر أهميته البالغة في حياة المسلم، فبه يتبين المؤمن الحقيقي من المنافق. والصابر يتلقى المكاره بالقبول ويراها من عند الله تعالى، والجاهل يحزن ويكتئب. ولولا الصبر لانهارت نفس الإنسان من البلايا، ولأصبح عاجزاً عن السير في ركب الحياة، وقد يصبح عامل شر وسوء في المجتمع.

وإذا كان الإنسان يحمل في نفسيته القابلية للخير والشر، وما الحياة إلا صراع بين الحق والباطل، أو الخير والشر، لذا لا يستطيع اختيار الخير والتغلب على الشر ومغرياته إلا بالصبر، قال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ**﴾ [الإنسان: ٢]، وقال: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ [البلد: ٤] أي في شدة ومشقة لما يعانيه منذ مولده من شدائد الحياة الممزوجة اللذات بالآلام، وما يعانيه من الابتلاء بالمسؤولية وأمانة التكليف التي تنوء بحملها السماوات والأرض والجبال.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس من رواية الرقاشي وهو ضعيف. (قاله العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤ / ٦٠).

(جـ) الصـــدق

الصدق فضيلة من أهم الفضائل التي يتميز بهاالفرد المؤمن، فهو طريق موصل إلى البر والبر يهدي إلى الجنة، ففي الحديث: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقًا. وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، إن الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»(١).

والصدق يستخدم أصلاً في القول، وهو مطابقة القول للحقيقة ولما أخفي في الضمير، وقد يستخدم في فعل الجوارح، فيقال: صدق في القتال، ومنه قوله تعالى: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، أي حققوا العهد بما أظهروه من أفعالهم. وقوله سبحانه: ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** ﴾ [الأحزاب: ٨]، أي يسأل من صدق بلسانه عن صدق فعله، تنبيهًا على أنه لا يكفي الاعتراف بالحق دون تحريه بالفعل.

وقد يستعمل الصدق في وصف فعل أو مكان فاضل أو نحوه، وقد أضاف القرآن الصدق إليها، فورد: مدخَل صدق، مخرج صدق، لسان صدق، قدم صدق، مقعد صدق. ويراد به الحق الثابت المتصل بالله والموصل إليه.

أنــواع الصــدق

١- صدق اللســان

وهو خاص بالأخبار، ومعناه: الإخبار عن الأشياء على حقيقتها.

٢- صدق النية والإرادة

بحيث لايكون باعث على العمل إلا الله، وهو يرجع بهذا المعنى إلى الإخلاص، ومنه الحديث: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٠٧).

(٢) مسلم (١٩٠٩).

٣- صدق العزم

وهو أن تكون عزيمة المرء فيما يعزم عليه عن العمل جازمة صادقة لا تردد فيها ولا ضعف.

٤- صدق الوفاء بالعزم

وهو أشد من السابق، فإن المرء قد يعزم على أمر، لكن حينما تحق الحقيقة ويحصل الجدّ قد يتفلت من عزمه.

٥- الصدق في العمل

وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، فهو يعني استواء السرّ والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً منه.

٦- الصدق في مقامات الدين

كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب[١].

فالصادق الحقيقي هو من تمثل في هذه الأنواع وجمعها، ومن تحقق بها كان من الصديقين الذي ينال مرتبة الصدّيقية، وقال الله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ [النساء:٦٩]

(د) العفو

معنى العفو هو: ترك عقوبة المذنب أو المخطئ، قال الراغب: عفوت عنه: قصدت إزالة ذنبه[٢] وقد وصف الله سبحانه نفسه بالعفوّ فقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ [الحج:٦٠]

وصفة العفو صفة حميدة لا تصدر إلا من نفس كبيرة راجحة العقل صبرت على اعتداء الغير وأذاه، وذلك أن مقابلة المسيء بالعفو تجعله يرجع عن غيه، وقد

(١) انظر إحياء علوم الدين (٥ / ٤٣).

(٢) المفردات مادة عفا.

تنقلب عداوته إلى مودة، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

والعفو صفة أبلغ من المغفرة، فإن المغفرة معناها ستر الذنب، أما العفو فهو إزالة الذنب كلياً.

وقد يذكر القرآن الكريم العفو ويقرنه بالصفح، وهو أبلغ من العفو لأن معناه ترك التأنيب على الذنب، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ [النور: ٢٢]، قال الألوسي: العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك التثريب والتأنيب، وهو أبلغ من العفو[١].

وكان رسول الله ﷺ أفضل مثل للتمثل بصفة العفو، فعن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فادموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[٢] وعندما فتح رسول الله ﷺ مكة جمع أهلها ثم قال: «**يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

(هـ) الوفاء بالعهد

معنى الوفاء بالعهد: إتمامه وافيًا بكامل حقوقه وشروطه وعدم نقضه. وقد وصف الله المؤمنين المتقين بذلك فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ١٧٧]، أي ما عاهدوا الله عليه من التزام التكاليف، وما عاهدوا العباد عليه، ويدخل في ذلك العقود.

وقد أكد القرآن الكريم كثيراً على الوفاء بالعهد، باعتباره يوحي بالثقة بالمسلمين، يقول سيد قطب: وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد، لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة في ضمير الفرد وفي حياة الجماعة ..

---

(١) روح المعاني (١ / ٣٥٧).

(٢) مسلم (١٧٩٢).

وقد بلغ الإسلام في واقعه التاريخي شأواً بعيداً في الوفاء بالعهود لم تبلغه البشرية إلا في ظل الإسلام[1].

١- العهود مع الله تعالى

ويراد به ما عهد عليه المسلم ربه سبحانه من الوفاء بالتكاليف التي شرعها، فتارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا الله به ورسوله، وتارة بما تلتزمه وليس بلازم كالنذر. وأول عهد هو الإقرار لله سبحانه بالبربوية وعلى نفسه بالعبودية، وهو مايقتضي بالتسليم لله سبحانه بذلك، ومنه إعطاء حق الحاكمية لله سبحانه وتعالى.

٢- العهد مع الناس

وهو واجب سواء كانوا مسلمين وغير مسلمين.

فالتعامل مع المسلمين يجب الوفاء به، ويدخل فيه كل عقد وعهد يجريه الإنسان في أمور الدنيا، كالبيع والشراء والمعاملات المالية والزواج وغيره من معاملات. ويدخل فيه أيضاً الوفاء ببيعة الخليفة أو الأمير الذي نصبه الخليفة، وذلك في غير معصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أما التعامل مع غير المسلمين فيجب الوفاء بها أيضاً مادام أنها جائزة شرعاً، ومنه العهد مع أهل الكتاب وهم الذميون فلا يجوز نقضه إلا إذا نقضوه هم.

وقد ذم الله سبحانه الناقضين للعهد، فوصف بني إسرائيل بذلك، فقال: ﴿**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم**﴾ [البقرة: ١٠٠] ووصف به الكافرين والمنافقين: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ**﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٦]، وفي الحديث أن من صفات المنافق أنه: «**إذا عاهد غدر**».

(١) في ظلال القرآن (٢ / ٢٢٢٦).

(و) الإصلاح بين الناس

حث القرآن الكريم على الإصلاح بين الناس، وهي صفة إنسانية نبيلة، حيث يعتبر المجتمع المسلم أشبه بمن يركب سفينة في بحر، وهومجتمع متعاون مترابط، إن احتاج فرد فلم يجد ما يفي بحاجته فيجب على جميع المجتمع القيام بالحاجات الأساسية لكل فرد، ومن هذه الأمور: الإصلاح بين الناس وقد يكون التدخل للإصلاح حتى في شؤون الأسرة الداخلية بين الرجل وامرأته.

١- الإصلاح بين الزوجين

العلاقة بين الرجل والمرأة ينبغي أن تقوم على المودة والرحمة المتبادلة، فإذا حصل خلاف بين الرجل والمرأة فيشرع للرجل إذا نشزت امرأته أن يقوم اعوجاجها ليعيدها إلى صوابها، والمرأة الناشز هي التي تمتنع عن الالتزام بحقوقها الواجبة عليها، فإن اشتدت الخلافات بين الرجل والمرأة، فيشرع عندها تحكيم حكمين من أهله وأهلها لحل الإشكال بينهما وتحديد من هو سبب المشكلة، قال سبحانه: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا** ﴾ [النساء:٣٥]، فاشترط القرآن أن يكون الحكمان من أهله وأهلها حفاظًا على أسرار البيوت، كما أنهما يكون أكثر رغبة في السعي للإصلاح بين الزوجين. وقد تم تأييدهما بتوفيق الله لهما للإصلاح، فتكفل سبحانه بتهيئة الأسباب للإصلاح إن صدقت النية، وقوله: ﴿ **إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا** ﴾ يرجع الضمير إلى الزوجين ويحتمل على الحكمين، ولا يمنع من إرادة الجميع، أي إن يريد الفريقان.

٢- الإصلاح بين المؤمنين

وكذلك الإصلاح بين كل فردين مؤمنين أو بين جماعتين مؤمنتين سواء اقتتلا أو لم يقتتلا، ففي كل خلاف ينبغي الإصلاح، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾ [الحجرات:١٠] وقد ذكر العلة الجامعة بين الفريقين، وهي

الإيمان، فمن نظر لأخيه على أنه مؤمن ينسى كل الاختلافات التي تفرق بين الناس، وأن يكون الاتفاق على قاعدة الإيمان والاحتكام للشريعة التي تحل كل مشكلة، وقبول الحل على أساس الإيمان جزء أساس من إيمان الفرد والمجتمع: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

وإذا حصل قتال بين فريقين فليلجؤوا للاحتكام للشريعة، ليكون الإصلاح بين الفريقين على أساس شرعي ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: ٩].

(ز) الإيثـــار

الإيثار يعني تفضيل الغير على النفس في الخير، وهو شعار النفوس الكبيرة التي تسعى لخدمة الإنسانية. وله أكبر الأثر في توثيق الصلات بين أفراد المجتمع. والإنسان الذي يؤثر غيره يشعر بسعادة عميقة.

لذا امتدح القرآن الكريم مبدأ الإيثار في آيات كان سبب نزولها قصة من أعجب صور الإيثار، قال تعالى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ [الحشر: ٩]، وقد ورد في سبب نزولها أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: أصابني الجهد، فأرسل الرسول ﷺ إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئًا، فقال: «**ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله؟**» فقال أبو طلحة: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: إذا أراد الصبية العَشاء فنوميهم وتعالي فأطفئي السراج وأريه أنّا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف، وباتا طاويين - أي جائعين - فلما أصبح غداً على النبي ﷺ، فقال: «**لقد عجب الله من صنيعكما الليلة**»[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٠٥٤).

وقال رسول الله ﷺ: «**إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قلّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم**»(١). ومعنى أرملوا: فرغ زادهم أو قارب الفراغ.

هذا بالإضافة إلى الكثير من الفضائل التي دعا إليها القرآن الكريم، مثل: الحياء والنصيحة، والتعاون على البر والتقوى، وأداء الأمانة، والكرم، والتواضع وخفض الجناح للمؤمنين، وغيرها من فضائل.

---

(١) مسلم (٢٥٠٠).

ثانيًا: الرذائــــل

دعا القرآن الكريم إلى ترك الرذائل كما دعا للتحلي بالفضائل، وهي ما يجمع العقلاء على ضرورة تركها، وهي: الكذب، والظلم، والخيانة، والتكبر، والفساد، والظن السيء، والغيبة، والغضب، والحسد، والمنّ، والهجران، والتناجي بالإثم والعدوان، وغيرها. وإليك أهمها:

(أ) الكــذب

الكذب مفتاح الشر وهو من أسوأ الصفات الخلقية في الإنسان أيًا كان، وهي صفة لا تليق بالبشر، لذا كانت من أهم صفات المنافقين، ومن اتصف بالكذب سقط في عيون الناس فلا يوثق فيه بشيء.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**﴾ [غافر:٢٨]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**﴾ [الزمر:٣]، وقد كثرت الآيات في ذم صفة الكذب التي وصف بها الكفار والمنافقون. وقد اعتبر النبي ﷺ الكذب مفتاح الشر والطريق الموصل إلى الفجور والنار، فقال: «... **وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا**»(١).

ووصف النبي ﷺ المنافقين بالكذب، فقال: «**أربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»(٢).

والكذب في الأصل محرم لكنه يجوز في حالات معينة لتحقيق فضيلة لا تتحقق بالصدق، لذا لا مانع منه أحيانًا، وفي الحديث: «**ليس الكذاب الذي**

(١) رواه مسلم (٢٦٠٧). (٢) مسلم (٥٨).

يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»(١). والحالات التي رخص فيها هي: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.

لذا على المرء أن يثبت فيما يحدث به خشية الوقوع في الكذب، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦]. وفي الحديث: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**»(٢).

ومن صور الكذب المذمومة أن يدعي الإنسان حصول فضيلة له وهو ليس أهلاً لذلك، كأن يدعي العلم ليفتخر به، وفي الحديث: «**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»(٣).

(ب) الظلم

الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بالعدول عن وقته أو مكانه. ويعتبر كل تجاوز للحد ظلماً، ولذلك قيل لآدم ﷺ في تعديه ظالم، ولإبليس – لعنه الله – ظالم، وإن كان بين الظلمين بَوْن بعيد.

والظلم صفة ذمها القرآن كثيراً وبين سبحانه أنه لا يحب أهلها فقال: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران:٥٧].

والظلم ثلاثة أنواع: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالي، وأعظمه الكفر والشرك، والنفاق، وظلم بين الإنسان والإنسان، وظلم بين الإنسان ونفسه.

وفي الواقع أن كل ذلك ظلم للنفس، فحينما يشرك بالله فيكون قد ظلم نفسه، وحينما يظلم الناس فيكون قد ظلم نفسه، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة:٥٧]، والله سبحانه لا يظلم العباد في شيء لا في الدنيا ولا في الآخرة، وإن أعطى البعض ومنع آخرين في الدنيا فلحكمة معينة، ليختبرهم أو يكافئهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١١٧]، وقال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥). (٢) مسلم (٥). (٣) مسلم (٢١٣٠).

وقد وردت الكثير من الأحاديث في تحريم الظلم وذمه وأنه سبب فساد كبير يرجع على الظالمين، في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»(١)، وفي الحديث: «**الظلم ظلمات يوم القيامة**»(٢)، وفي الحديث: «**صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي، إمام ظلوم غشوم، وكل غالٍ مارق**»(٣) وفي الحديث أيضاً: «**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(٤).

(جـ) الخيانة

الخيانة صفة ذميمة لا تصدر إلا من نفس خبيثة، ولا تليق بمؤمن موحد لله تعالى، وهي عكس الأمانة التي هي صفة للمؤمنين، سواء كان التعامل مع الله أو مع الناس مسلمين أو غير مسلمين.

وقد ورد في ذم الخيانة نصوص من القرآن، منها: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال: ٥٨]، ومنها: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ**﴾ [يوسف: ٥٢]، ومنها: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧].

والخيانة هي نقض العهد في السرّ، ومن صورها:

أ- خيانة أمانة الله، وهي الالتزام بالتكاليف، بإتيان فرائضه التي فرضها على عباده، والانتهاء عما نهى عنه، قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ب- خيانة أمانة الناس مسلمين أو غيرهم، مثل نقض العهد، والعهود كل عقد يبرمه الإنسان مع غيره من أمور الدنيا كالالتزامات في البيع والشراء والشركة والزواج، وكذلك بيعة الخليفة في غير معصية.

---

(١) رواه مسلم (٤٦٧٤).
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٧)، ومسلم (٢٥٧٩).
(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجال ثقات (مجمع الزوائد، ٥ / ٢٣٥).
(٤) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

ومن صور الخيانة وصف محاسن امرأة لرجل أجنبي، والغدر، وشهادة الزور، وعدم العدل في الرعية، وإفشاء الأسرار كالأسرار العسكرية والاجتماعات والمجالس، ومنها أسرار الرجل مع زوجته في إتيان ما أحل الله له، في الحديث: «**إن من أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها**»[١].

(د) التكبر والخيلاء

من الصفات المذمومة بين البشر التكبر والخيلاء والفخر وما في معناها، يستعلي فيه الإنسان على غيره من البشر، بسبب لون أو مال أو جاه أو عرض من أعراض الدنيا، ولو تأمل عاقل في حقيقة هذه الأمور لاستحى من نفسه أن يستعلي على غيره، وخاصة إذا علم أن الله سبحانه يبتلي عباده بما أعطاهم، فقد يعطي أناسًا مالاً ابتلاء لا حبًا، يعرف ذلك من خلال أعماله، فلو كان عاقلاً لم يزده ماله إلا تواضعًا. وانظر لقصة قارون الذي كان من قوم موسى فأعطاه الله مالاً كثيرًا بحيث صار الناس يتمنون مثل ما عند قارون، لكنه لما خسفت به، صار الذين تمنوا بالأمس يحمدون ربهم على أنه لم يكن حالهم مثل حال قارون.

فالإنسان قد يعطى شيئًا مما يتفاخر به الناس استدراجًا لفاسق ليأخذه في غيه، وعطاء للمؤمن ليزداد خيره وفضله ودرجته. لذلك قد تكون هذه العطاءات سبباً في هلاكه وخسرانه. وإذا كان كذلك علام يستكبر على الناس ويفخر عليهم؟!

قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾ [النحل: ٢٣]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [لقمان:١٨].

والتكبر: حالة يعجب فيها الإنسان بنفسه فيرى نفسه أكبر من غيره، **والكبرياء**: هو الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه إلا الله تعالى، قال سبحانه: ﴿**وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الجاثية: ٣٧].

---

(١) مسلم (١٤٣٧).

والخيلاء هو التكبر، بحيث يتصور المرء فضيلة ظهرت من نفسه، فيظهر التكبر إعجابًا بها. **والفخر**: هو أن يعد مناقبه على الآخرين تطاولاً وتعاظمًا. قال الراغب: **الفخر**: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان، كالمال والجاه(١).

فمن كانت فيه هذه الصفة فالله سبحانه لايحبه، ومن تكبر على الناس يكون قد نازع الله في صفة من صفاته سبحانه، وفي الحديث القدسي: «**العزّ إزازي والكبرياء ردائي، فمن ينازعني عذبته**»(٢).

والمستكبر عذابه عظيم في الآخرة فيحرم من الجنة ومن نظر الله إليه يوم القيامة، قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبْر**»(٣) وقال: «**لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً**»(٤).

والكبر هو أم أسباب إعراض الجاحدين عن قبول الهدي الإلهي، فإبليس استكبر وأبى الانصياع لأمر الله تعالى في السجود لآدم عليه السلام قال تعالى: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٣٤]، وقوم نوح أعرضوا بسبب الاستكبار: ﴿**وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**﴾ [نوح:٧]، وكذلك بنو إسرائيل وفرعون وغيرهم من المعرضين.

ومن صور الاستكبار الاختيال في المشي ﴿**وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا**﴾ [لقمان:١٨].

(هـ) الجهر بالقول السيء

يراد بالجهر الإظهار، ويراد به إظهار ما يقتضي إخفاؤه، من إظهار عورات الآخرين والتشهير بهم وإشاعة الفاحشة والترويج للإشاعات السيئة، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿**لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾ [النساء: ١٤٨].

والجهر بالقول السيء أمر خطير يدمر المجتمع المسلم، فيوحي للناس أن الشر

(١) المفردات مادة (فخر).
(٢) مسلم (٢٠٨٧).
(٣) مسلم (١٣١).
(٤) البخاري (٥٣٤٢)، مسلم (٣٨٩٣).

قد صار غالبًا، مما يزين لضعاف النفوس ارتكاب المعاصي بعدما خيّل إليهم أن الشر قد استشرى وظهر، فيرى البعض مثلاً أن أكثر الناس يأخذون الرشوة أو يسرقون أو يزنون أو يحتالون سرًا .. لكن كثيرًا مايكون هذا القول اتهامًا سيئًا لا أساس له من الصحة، وطبيعة كثير من الناس الزيادة في الأخبار وتهويلها، وقد تكون بعض المعاصي مما يمكن أن يفعله الإنسان ويتوب منها، وهو ما يريده الله سبحانه من عباده، أن يتوب العبد بينه وبين الله تعالى، لذا فالتشهير بالعبد قد يسيء له في ذنب يمكن أن يكون تاب منه، وإذا تم التشهير به حمل حقداً على الآخرين وانتظر الفرصة لينتقم، وقد يكون الانتقام بافتراء الكذب عليه.

فمن وجد مثلاً مع امرأة في بيت واحد يتم التشهير به وفضحه بين الناس، بينما شرع الإسلام لمثل ذلك إيصال أمر للقضاء ليقوم القاضي بتعزيزه بما يراه مناسبًا، فقد يكون ذلك منه إلمامة وليس سلوكًا له فيفيد فيه أمر النصح، وإذا تم ستره فيكون أكثر ردعًا له من التشهير به، وقد يكون ذلك زلة من امرأة فيكون الأصوب سترها ووعظها.

فليست العبرة هي أن ينتظر الناس ليقعوا في خطأ حتى يتناولهم الناس بالتشهير والتجريح، لذلك ورد الحديث فيمن رأى رجلاً وامرأة في حالة زنا قال له: **«هلا سترته بثوبك»**[1].

أما المظلوم فقد رخص له بالجهر بالقول السيء فيمن ظلمه وفي إطار ظلمه، وفي الحديث: **«ليّ الواجد يحل عرضه وعقوبته»**[2]، ولابد أن يكون الظلم حقيقيًا لا وهميًا لئلا يكون الناس عرضة للقيل والقال.

ومن أسوأ الأمثلة التي هزت كيان ذلك المجتمع المسلم وكيان البيت النبوي الشريف ما حصل في حادثة الإفك من اتهام طال كيان البيت النبوي، وهو معلوم بظاهره أنه زور وبهتان لا يمكن أن يصدر من هذه السيدة المطهرة زوج النبي ﷺ

(١) مسند الإمام أحمد.

(٢) مسند الإمام أحمد، سنن أبي داود، سنن ابن ماجه.

وكذا من صفوان بن المعطل الصحابي الجليل، وحصل ما حصل حتى ولغ في هذه المقالة جماعة من خيار الصحابة: مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ﷺ، ونجا من العقاب الدنيوي الذي تولى كبرها ابن سلول.

وعليه فالجهر بالقول السيء قد يدمر كيان المجتمع المسلم فينبغي من الحذر منه أشد الحذر، فيتحلى الإنسان بالحكمة في نقل الأخبار، قال تعالى: **﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾** [الإسراء:٣٦]، وفي الحديث: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدث بكل ما سمع**»[١].

ومن صور الجهر بالقول السيء أن يبيت الإنسان وقد عمل معصية ثم يجهر هو بارتكابه للمعصية، قال ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإنّ من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه**»[٢].

(و) الظن السيء

الظن هو اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدت إلى العلم، ومتى ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم[٣] هذا ما أفاده الراغب في المفردات، أي أن مراتب العلم هي الوهم ثم الشك ثم الظن ثم اليقين أو العلم، فالشك يعبرون عنه بأنه استواء طرفي التجويز، أي الإثبات والنفي، فإذا غلب سمي ظنًا. وإذا اقترب من اليقين سمي ظنًا راجحًا.

والظن أم يعمل به في الأحكام والقضاء ونحوه.

إلا أن اتهام الآخرين بالسوء أمر خطير لا يكفي الاعتماد فيه على الظن، فيحمل أمر المؤمن على خير، إلا إذا ظهر خلافه فيعامل بحسب الظاهر».

فإحسان الظن بالمؤمن أمر مطلوب شرعًا، وليس صدقة أو تفضلاً يتفضل به الفرد على الآخرين فيحسن أو يسيء الظن بهم، وفي الحديث: «**ظهر المؤمن حمىً إلا بحقه**»[٤].

---

(١) مسلم (٣). (٢) مسلم (٢٩٩٠). (٣) المفردات، ص ٣١٧.

(٤) رواه الطبراني وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٦ / ٢٥٣) لكنه حسن بشواهده.

لذا على المرء أن يتحرى كثيراً في الظن، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات:١٢]، أي على المرء أن يجتنب الكثير من الظن لأن بعضه إثم، أي لا يظن بالآخرين إلا ما ظهرت علاماته. وكثير من الناس يعملون من الأعمال ما يظن الإنسان فيها السوء، فإذا بينت له الحقيقة علم أن فيها خيراً.

(ز) الحسد

الحسد رذيلة خلقية اجتماعية من أسوأ الآفات التي تدمر حياة الفرد والمجتمع، يعيش صاحبه في شقاء دائم لايشعر فيه بطعم الحياة، لأن الحاسد الذي اعتاد الحسد ينظر للناس ولمن هو أعلى منه في شؤون الدنيا ويسعى للحاق بهم، ومهما بذل من جهد قد لا يستطيع اللحاق بهم في تحصيل ما حصله الآخرون، ولو حصل مثلهم فيسعى للتفضيل عليهم، لذا تبقى حياته في صراع دائم.

أما المؤمن فمن أخلاقه الرضا بكل ما يسر الله له فيطمئن ويرضى، ولايعني ذلك أن لا يسعى في تحسين أوضاع الدنيوية، وفي الأثر: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وفي الحديث: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له**»[1].

أما الحسد فهو يناقض الإيمان، لذا أمر القرآن الكريم بالاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق:١-٥]، والفلق الصبح، والغاسق الليل، إذا وقب أي أظلم.

فالحسد خطير جداً له ضرره على حياة الناس، وقد ورد الكثير من الأحاديث في بيان خطره وضرره، ففي الحديث: «**لا يجتمع في جوف عبد مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد**»[2]، وفي

(١) مسلم (٢٩٩٩).
(٢) رواه أحمد (٢ / ٣٤٠) وابن حبان (٤٥٨٧)، والنسائي (٦ / ١٢) وهو حسن.

الحديث: «**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[١] أو قال: «**العشب**»، وفي الحديث أيضاً: «**لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا**»[٢].

التنافس والتمني

والتنافس قريب من الحسد، إلا أن الحسد معناه زوال النعمة فهي مزاحمة الناس في أمر خصهم الله به، فإن كان في الخير فهو فضيلة، ومنه الآية: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦] قال الراغب: والمنافسة مجاهدة النفس للتشبه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره[٣]. أما إن كان التنافس في أمور الدنيا فهو مذموم لأنه باعث على الحسد، وفي الحديث: «**ولا تنافسوا**»[٤].

ومثله التمني بحيث ينظر للآخرين يعدّ ويحسب ما أعطاهم الله من خير كالمال والجاه والنسب وغيرها من أمور الدنيا، أي ينشغل بما عند الآخرين، قال تعالى: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٣٢]، والآية وإن كانت في سياق أن بعض النساء تمنين أن يكنّ رجالاً ليفعلوا الخير فيجاهدوا كما جاهد الرجال، فلكل أجره عند الله بقدر ما أعطاه ومنعه.

لكن إذا تمنى الإنسان أن يفعل من الخير مثل ما فعل فلان، كأن يكون الآخر تصدق بمال فيتمنى أن يكون له مال لينفقه مثل ما أنفق صاحبه، أو كان له علم فيفعل بتعليمه مثل فعل غيره لكتب له أجر ذلك وإن لم يفعله، قال ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها**»[٥]، وهو ما يسمى بالغبطة، أي أنه لا يُغْبَطُ أحد إلا على إحدى هاتين الخصلتين.

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٣) والبيهقي في الشعب (٦٦٠٨) وهو حسن بشواهده.
(٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨ / ٧٨).
(٣) المفردات، ٥٠١.
(٤) جزء من حديث رواه البخاري (٦٠٦٤) ومسلم (٢٥٦٣).
(٥) مسلم (٨١٦).

المبحث الخامس
نظـام الحكـم

لم يقرر القرآن الكريم شكلاً معينًا مفصلاً لنظام الحكم، ولا على كيفية تنظيم السلطات، إنما قرر الأسس الثابتة التي يجب أن يقوم عليها نظام الحكم لتحقيق مصالح العباد وسياستهم.

والسبب في ذلك هو أن مصالح الناس تختلف باختلاف البيئات والأزمان والأحوال، فلو شرعت أحكام محددة ثابتة لوقع المسلمون في حرج وضيق، لذا شرعت الأحكام والمبادئ الأساسية التي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتركت الفروع والتفاصيل للأمة تتصرف فيها وفق ما تراه يحقق مصالحها على أساس العدل بين الناس.

ومن الملاحظ أن أهم الأسس التي يقوم عليها نظام الحكم في القرآن الكريم هو مبدأ الحاكمية لله تعالى، وهو يعني أن حق التشريع من تحليل وتحريم يرجع إلى الله وحده، لأنه لو أعطي للبشر لأدى الأمر إلى تأليههم واتخاذهم أربابًا من دون الله تعالى، كما حصل لليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، كما نص عليه القرآن وبينته السنة بأنهم قد أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعهم قومهم فكان ذلك عبادة لهم.

ولا يعني مبدأ الحاكمية إلغاء دور الناس كليًا في إيجاد الأنظمة المناسبة لما يصلحهم، بل أعطى البشر حيزاً كبيراً من ذلك، من خلال تشريع نظام الشورى، والذي يعني أن على الحاكم ومن باب الوجوب إشراك الناس في تحقيق مصالحهم، ويلتزم الحاكم الأعلى مع الناس ضمن الأسس العامة التي يخضع فيها الجميع

لحكم واحد، فإن عدل الحاكم عن الحق قوموه، وإن هم عدلوا عن الحق قومهم ضمن السلطة المتاحة له.

فمبدأ الحكم في القرآن الكريم يجمع بين خاصية وجود مجتمع يخضع لله الواحد الأحد فيعظمه وحده دون أحد سواه، تعظيمًا يخضع له جميع البشر، وبين المجتمع الذي يحقق مصالح العباد، وإذا وجد هذا المجتمع كان سيره مستقيمًا مع الكون كله الذي يسير وفق نظام واحد، هو نظام العبودية لله وحده، فالأرض كلها ما هي إلا نقطة ضمن نظام هائل جدًا يسير خاضعًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

أولاً: الحاكمية

وصف الله سبحانه نفسه بصفات الكمال وتنزه عن صفات النقص، فهو سبحانه سميع بصير حتى مريد قادر عليم، وكل صفة من هذه الصفات مطلقة لايحدها زمان ولا مكان، لا تصل إلى مداها المخلوقات، ولا تصل إلى إدراك كنهها العقول.

فهو سبحانه موجود ووجوده مطلق لم يسبقه عدم، فهو الأول ليس قبله شيء والآخر ليس بعده شيء، وهو الظاهر والباطن، وجميع المخلوقات تستمد وجودها منه، فهو يحيي ويميت، والكائنات تستمد حياتها منه. وهو سبحانه سميع يسمع كل مخلوق، وسع سمعه كل شيء فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو سبحانه بصير يبصر كل مخلوق أيًا كان حجمه. وهو سبحانه عليم يعلم كبائر المخلوقات وصغائرها مهما صغر حجمها، وعلمه مطلق لا يشبهه علم، فهو يعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها. وهو سبحانه مريد لأي شيء وقادر على كل شيء. فهو واحد أحد فرد صمد لا يشبه أي مخلوق ولا يشبهه مخلوق، ليس كمثله شيء، وصفاته سبحانه مطلقة لا يحدها حد ولا تحيط بإدراكها عقول البشر ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ [الانعام:١٠٣].

والله سبحانه هو الذي يعطي العباد ويمنعهم، فهو المعطي والمانع، الخافض الرافع، المعزّ المذل، الجامع المانع، الضار النافع. وهو سبحانه الرحيم الغفور الشكور التواب العفو الحليم ...

المخلوقات

والله سبحانه وتعالى خلق مخلوقات أخبرنا عنها، فخلق الكون من سماوات

وأرض، وقد اختبرها اختباراً عاماً بالخضوع لأمره فخضعت طائعة له: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ٩ -١١]

لذا بين القرآن الكريم أن الكون مؤمن موحد طائع لله سبحانه، وكل ما في الكون يسبح بحمد الله تعالى، فالرعد والجبال والشجر والنبات والحيوان يسبح ويسجد لله تعالى.

والملائكة خلقت من نور، مهمتها تسبيح الله تعالى، وأنها لا تعصي الله ما أمرها وتفعل ما تؤمر به.

والجن مخلوقات من نار خلقت للعبادة، وهم لا يعلمون الغيب، ومنهم الصالحون وغير الصالحين، ومنهم الدعاة إلى الله تعالى والدعاة إلى السوء، وهي مخلوقات قابلة للعلم والمعرفة وذات إرادة واختيار فهم مكلفون بالإيمان والطاعة، ولهم قدرات كبيرة ومهارات صناعية، ويتشكلون بأشكال جسمانية مختلفة وطبيعتهم أنهم يرونا ولا نراهم، ولهم قدرات في الوسوسة للإنسان. وإبليس هو ونسله عدوهم الأول هو الإنسان لذا أمر القرآن باتخاذهم عدواً أي بالحذر من كيده واتقاء شره.

أما الإنسان فقد خلقه الله سبحانه من تراب وكرمه بخلقه على هيئة متوازنة وأعطاه العقل ليختار طريق الخير مبتعداً عن طريق الشر، وهيأ له جميع الأسباب في اختيار ذلك، فأرسل له رسلاً وأيدهم بكتب ترشدهم لطريق الخير، وحذرهم من إبليس وأعوانه من الإنس والجن. لذا كانت عنده أهم قضية في تحقيق معنى العبودية لله تعالى حيث خلقهم للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

والدنيا بالنسبة للإنسان هي دار ابتلاء وامتحان، ابتلاء في الدنيا لاختيار طريق الخير والابتعاد عن طريق الشر، وابتلاء عام في حياته ليختار طريق الوصول

إلى الآخرة ليعيش حياته الأبدية الدائمة. وقد بين القرآن الكريم أن الإنسان يعيش في أمن وأمان إذا اختار طريقه مهتديًا بهدي الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه:١٢٤].

ثم إن هذا الإنسان فطرته فطرة التوحيد والإيمان، فيخلق مؤمناً موحداً إلا أن العوامل الأخرى هي التي تصرفه عن ذلك.

لذلك فمن المهم جداً اختيار المنهج الذي يصلح حياة الإنسان في ضوء المكانة العامة للإنسان في هذا الكون والهدف الذي خلق لأجله وهو تحقيق معنى العبودية، لأن الإنسان لابد له من منهج العبودية، فإن لم يكن عبداً لله فيكون عبداً لغير الله، والعبادة معناها الخضوع والطاعة لهدف معين».

أثر الإيمان وعدمه على التشريع

للإيمان الصحيح والصافي أثر كبير على التشريع وتطبيقه التطبيق المثالي، وكل خلل في الإيمان يؤدي إلى خلل في التطبيق العملي واتخاذ القوانين لذلك، فالمؤمن الموحد يجعل حياته تدور في فلك واحد، وفي إطار الخضوع لله سبحانه. أما الذي كفر أو أشرك بتعظيم بعض المخلوقات فيجعل حياته تدور في فلكها. وقد عرض القرآن الكريم صوراً من أثر ذلك على التشريع.

فقد أشار القرآن الكريم إلى اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، فقال سبحانه: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة:٣١]، وقد فسرها النبي ﷺ بقوله: «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه**»[1].

وعرض القرآن الكريم صوراً لأثر الشرك في التشريع من قتل أولادهم وتحريم

(١) رواه الترمذي في التفسير، ونسبه السيوطي لابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه (الدر المنثور ٣ / ٤١٥).

أكل بعض الأنعام وركوبها ونحو ذلك، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:١٣٦-١٣٩].

وكانوا في الجاهلية يقدمون الأشهر الحرم أو يؤخرونها، فيحلون القتال أو يحرمونه حينما يريدون، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٣٧].

والناس في جاهليتهم عبدوا الآباء أو قوى الطبيعة من رعد وبرق وريح ومطر، أو الأفلاك من شمس وقمر ونجم، أو الطبيعة، أو الشيطان..

ثم كانت عبادة الإنسان في الجاهلية المعاصرة، ثم تعددت المعبودات فصار اسمها الوطن أو الدولة أو القومية أو الحزب أو الزعيم، أو الجنس أو المادة، أو المصلحة ... فكل هذه معبودات يمكن أن يتخذها الناس أربابًا من دون الله، تتحكم في حياتهم ويسيرون حسب ما تامرهم به وتشرع لذلك الأحكام والقوانين، فحينما تكون الوطنية والقومية شعاراً فوق الدين وكل المبادئ والقيم، وحينما تكون المصلحة فوق الدين وكل القيم تكون قد اتخذت إلهًا من دون الله ... وهذا لا يعني عدم احترام هذه القضايا، فالدين الحقيقي يعطي لكل شيء قدره فيعطي للوطنية والقومية والجنس والمادة قيمتها ويوازن بينها وبين الدين والقيم الإنسانية.

الحاكمية لله وحده

فحق التشريع من تحليل وتحريم يكون لله سبحانه وتعالى، وهو مما اختص الله سبحانه به، وأن إعطاء هذا الحق للبشر ما هو إلا تأليه للبشر واتخاذهم أربابًا من دون الله تعالى، ومن طبيعة الإنسان أن خضوع الناس له يؤدي به إلى تأليه نفسه.

فهذا فرعون طغى وتجبر وتكبر فخضع الناس له مما أدى به إلى تأليه نفسه فقال لقومه: أنا ربكم الأعلى، وهذا نمرود الذي بين له إبراهيم عليه السلام بأن الله يحيي ويميت، قال: أنا أحيي وأميت. وكثير من الطغاة القدامى والمعاصرين ما هم إلا نموذج لفرعون اللعين، فيحلون ويحرمون كما يشاؤون، ولسان حالهم ينطق بما نطق به فرعون، ولو جرؤوا لقالوا مثلما قال.

فإعطاء الحاكمية لله سبحانه يحول دون تجبر الجبابرة وطغيان الطغاة وتألههم من دون الله سبحانه وتعالى، ويجعل الجميع يخضع لأمر الله.

لذا كانت الحاكمية لله باعتبارها شرطاً أساسيًا للإيمان، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

أثر الاحتكام لشرع الله

ينتج عن إعطاء حق الحاكمية لله تعالى نتائج يمكن إجمالي بما يلي:

[١] ثبات القوانين الشرعية واستمرارها ولو تغير الحكام، وليس الأمر كذلك في القوانين الوضعية فهي مرتبطة بالحاكم فرداً أو جماعة، وهي غالبًا تخضع

لتصور فئة معينة وتراعي مصلحة معينة، فيؤدي تغير القوانين لعدم احترامها والثقة بها.

[٢] احترام القوانين الشرعية والثقة بها، لأنها من عند الله، وهو ما يحمل على طاعتها.

[٣] القوانين الإلهية تجعل المرء يلتزم بها ظاهراً وباطنًا، فتجعل من السلطة الظاهرة ما يضبط ما ظهر من الناس، وتجعل من ضمير المرء حارسًا يراقب تصرفاته فيما غاب عن أيدي السلطة.

[٤] القوانين الإلهية ترتب عقابًا دنيويًا وأخرويًا.

[٥] القوانين الإلهية إنسانية لا تفرق بين جنس أو لون أو عرق، فالكل سواء أمام القانون، وأكرم الناس أتقاهم لله، والكل يخضع لهذا القانون.

[٦] القوانين الإلهية تحقق العدالة بين جميع الناس، وبين الرجال والنساء.

ثانيــاً: الخلافــــة

الإنسان خليفة الله في أرضه، مهمته إعمار الأرض بالخير وعدم الفساد وتطبيق أوامر الله تعالى من خلال ما شرعه وأرسل به رسله، ورد على لسان صالح وقوله لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، أي أن مهمة الإنسان عمارة الأرض، فاستعمركم أي طلب منكم عمارتها.

وبين سبحانه صفة خلق آدم أن الله سبحانه جعله خليفة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، أي خليفة يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي. وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور:٥٥]، يشير لاستخلاف الإنسان عن الله في الأرض بتحقيق العدل بين الناس. وكذا قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥].

والنهوض بمهمة العمارة واستحقاق صفة الخليفة والإمامة يستدعي أن يتمثل الإنسان بالصفات التي تؤهله للقيام بهذه المهمة، وهو ما طلبه الله سبحانه من المبادئ الاعتقادية والعبادية والأخلاقية.

وعليه فإن مدار حياة الإنسان على سطح هذه الأرض يدور حول مفهوم الاستخلاف لعمارة الأرض، وأحكام هذا الدين في عمومها تؤكد ذلك، أي أن الشريعة مهمتها تحقيق مصالح العباد، ويؤكده الحقائق التالية:

[١]جميع الأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين: قسم يراعى فيه القيام بحقوق الله، وقسم يراعى فيه القيام بحقوق العباد. ولو قارنت بينهما لوجدت القسم الأول قليل بالنسبة للآخر، فأكثر الأحكام الشرعية تفصل أحكام العباد.

[٢] من القواعد الفقهية أن حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة. أي أن حقوق الله مهما وقع التقصير فيها فإنما تجبر غالبًا

بالتوبة، أما حقوق العباد فلا يكفرها إلا أداؤها لأصحابها أو ما يقوم مقامه.

[٣] إن أكثر الأحكام الشرعية يناط تنفيذه بجهاز الحكم في المجتمع الإسلامي بسلطاته المختلفة - التنفيذية والتشريعية والقضائية -(١).

وحقوق العباد تتمثل في جميع الأحكام التي تحقق مصالح العباد وسعادتهم وما يضمن ذلك من تحقيق التعاون والتكافل والعدل بين الناس.

طاعة أولي الأمر

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، والمراد بأولي الأمر الأمراء أصحاب السلطة، وقيل: العلماء، ولا تعارض بينهما فيشترط في الخليفة أو الإمام الأعلى للمسلمين أن يكون قد بلغ درجة من العلم الشرعي كالاجتهاد أو قريب منه، فطاعته طاعة للعلماء. كذلك لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعليه فيكون طاعته بالمعروف والخير وكل ما يحقق مصالح العباد.

وأحكام الدين إنما شرعت لتحقيق مصالح العباد، بل إن الإسلام شدد كثيراً ورتب العقاب الديني والدنيوي لمن يفسد على الناس أمورهم ولا يقوم بحاجتهم الأساسية. لقد رتب القرآن الكريم عقاباً شديداً على عدم إطعام المسكين واعتبر من لم يحض على طعام المسكين مكذباً بالدين أي بالجزاء يوم القيامة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧]، فالذي يدعّ اليتيم أي يدفعه دفعاً عنيفاً، ولا يحض على طعام المسكين أي لا يبحث عن المساكين ولا يحث على إطعامهم، وهو من يعلم مسكيناً وليس لديه ما يطعمه، والذي لا يطعم أشد من الذي لا يحض. ثم بيان عقاب الساهين عن صلاتهم والذين يراؤون بأعمالهم ويمنعون الماعون وهو ما يستعان به من أدوات يتعاورها الناس لحاجاتها. ورتب الإسلام عقابات

(١) انظر منهج الحضارة الإنسانية في القرآن للبوطي، ص ٢٧ - ٣٠.

شديدة على الربا والرشوة والزنا وغيرها، وهي أمور تفسد علي الناس حياتهم ومصالحهم.

لذلك كانت طاعة أولي الأمر لكونه يحقق مقاصد الشريعة، ولم تشرع طاعته حينما يخالف هذا المقصد أي إذا دعا إلى معصية، وكذلك القضاء فيشرع لتحقيق العدل بين الناس، وباعتبار أن القاضي يقضي بما ظهر من أدلة وقرائن، إلا أن قضاءه لا يغير الحقيقة، فإن قضى بظلم فلا يبيح للآخر أخذه.

الحكومة الإسلامية والحكومة الدينية

كان ملوك النصارى يحكمون الناس باسم الحق الإلهي، فلهم سلطة دينية أعطتها إياهم الكنيسة التي تشرع لهم الأحكام، فيستمدون سلطتهم من سلطان الكنيسة.

وفي الديانة النصرانية مبدأ تقاسم السلطة، حيث تشرع الكنيسة الأحكام وفي الأصل ليس للحاكم سلطة على الكنيسة، بينما يتولى الحكام السلطة التنفيذية ولا تملك الكنيسة أن تتدخل في شؤون الدولة والسلطة. وهو ترجمة للمبدأ القائل: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. لكن الناس لما وجدوا التناقضات التي لا يقبلها العقل انقبلوا على الكنيسة وعلى نظام الحكم، فاعتبروا أن لا سلطان للكنيسة عليهم في حياتهم ليتركوا الناس يعيشون كيف يشاؤون. كما انقبلوا على مبدأ الحق الإلهي للحكام وخرجوا بمبدأ فصل الدين عن الدولة، فإن كان لكنيسة سلطة فلا يتعدى الأمر حينما يذهب الإنسان للكنيسة ليصلي ويعبد الله، فاقتصرت سلطة الكنيسة على ما في داخلها من قبول توبة التائب وإجراء بعض القضايا.

أما الحكومة الإسلامية التي نص على أسسها القرآنُ الكريم، فكان أساسها تحقيق مصالح العباد، بل استخدام الفكر الديني لتحقيق مصالح العباد. فأولوا الأمر يستمدون سلطانهم من قيامهم بتحقيق دين الله تعالى وتحقيق مصالح العباد.

فنظام الحكم في القرآن يقوم على اعتبار الإنسان فرداً أو جماعة إنما هو خليفة عن الله في أرضه، أما في الفكر الغربي فيعتبر الإنسان مصدر السلطات، فيقرر ما يشاء من تشريعات أساسية أو فرعية، فإذا اتفق الناس على اعتبار الربا جائزاً فهو جائز، وكذلك يحق لهم اعتبار أي شيء من تحليل أو تحريم، فقد يشرعون إباحة الزنا، وفرض ضرائب مالية أو غير ذلك، لذلك نجد مثلاً تشريعات غربية مناقضة لفطرة الإنسان كاعتبار جواز زواج المثليين، أي أن يتزوج رجل رجلاً أوتتزوج امرأة امرأة، واعتبروا الزنا حرية شخصية يحق لأي إنسان ممارستها بشروط معينة.. وهكذا في كثير من التشريعات، فلا يوجد شيء ثابت من مبادئ وقيم.

أما في الفكر الإسلامي فلا يملك أي فرد أو جماعة تغيير الأسس الثابتة التي تضمن حياة الناس، فلو اجتهد الحاكم أو مجلس تشريعي بإلغاء مبدأ ثابت أو إقرار مبدأ مرفوض فلا يعتبر إقرارهم سليماً. وسلطة الإنسان هي سلطة إقرار وتحديد المصلحة والبحث عنها ضمن الأسس الثابتة.

ثالثاً: الشـــورى

يعتبر نظام الشورى هو الجزء المكمل لمفهوم الحاكمية، حيث يشير مبدأ الحاكمية إلى أن حق التشريع من تحليل وتحريم إلى الله تعالى وأنه من خصائصه سبحانه وتعالى، وأن على المسلم وجوب الاحتكام لشرع الله وردّ التنازع حين الاختلاف إلى الله ورسوله.

أما الشورى كنظام فيجب على الحاكم أن يستشير أهل الاختصاص في تحقيق المصلحة للناس الذين تحت ولايته.

وقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن الشورى في آيتين، الأولى تأمر النبي ﷺ بالمشاورة في الأمر، والثانية تصف المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم، قال تعالى: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى:٣٨] فيأمر الله رسوله بالشورى وهو يتلقى الوحي ويتصرف بهدي النبوة، فكيف بالبشر الذين يطلب منهم تحقيق مصلحة المسلمين؟ وقد وصف الله المؤمنين بصفة الشورى حيث يستشير بعضهم بعضاً، فلا يستبد حاكم ولا أمير ولا متسلط برأي ويلغي الآخرين. وقرن وصفهم بالإستجابة لربهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مما يشير إلى أنها صفة إيمانية تتعلق بالإيمان، وهو ما يشير لخطورة انفراد الإنسان برأيه دون رأي الجماعة.

والشورى مبدأ مهم في سيرة النبي ﷺ، فاستخدامه في غزوة بدر وأحد وكثير من الغزوات، وعلم أصحابه ذلك.

ومبدأ الشورى فضلاً عن أنه يوصل إلى الرأي السديد في الحكم وتحقيق مصلحة المسلمين، فإنه يشعر الفرد بكيانه في ذلك المجتمع وتلك الدولة، ويشعر

أنه جزء مهم وإن صغر حجمه، فقد يبدي إنسان بسيط رأيًا سديداً يغيب عن الساسة والقادة وأصحاب الرأي.

وليست الشورى في إقرار أو رفض أي رأي وحكم ودستور وقانون، إنما الشورى في الأمور التي لم ينص عليها الشارع، ويمكن بيان ما يخضع للشورى على النحو التالي:

١- أحكام ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وهي الأسس الثابتة التي يبنى عليها المجتمع، كالربا وتعدد الزوجات والتفريق في الميراث بين الذكر والأنثى، وحكم الصلاة والصيام والزكاة والحج، فلا يملك فرد ولا جماعة ولا أي مجلس أن يشرع قانونًا يبيح الفطر في رمضان نظرًا لمصلحة معينة إلا بما تقره الشريعة.

وهذه الأحكام يختص ببيانها غالبًا علماء الشريعة المختصون، لأن مبناه النصوص الشرعية.

٢- أحكام شرعية تتغير بتغير الزمان أو المكان، لأن مبناها على العلة، فإذا تغيرت العلة يتغير الحكم، والعلة يعرفونها أنها وصف ظاهر منضبط يدور معه الحكم وجوداً وعدمًا، فالعبرة من الحكم الشرعي هو العلة. وأكثر الأحكام الشرعية أحكام معللة، وخاصة السياسة الشرعية والمعاملات.

وهو ما يحتاج غالبًا لبيانه علماء الشريعة تفصيلاً، وقد يكون تم بيان بعض أحكامها، مثل أحكام المرور والنظام الإداري والصناعات وبناء الجيوش العسكرية والأجهزة الأمنية، وغير ذلك.

وهو ما ترك للناس ليختاروا الأصلح والأنسب، ويكون مرجعه أهل الاختصاص. لكن بشرط ألا يتصادم مع أساس شرعي، كأن يقر تعاملاً ربوياً،أو يدرب جيشًا على مبادئ لا أخلاقية كأكل المحرمات أو قتل من لا يجوز قتلهم..

أهل الحل والعقد

فالشورى تتحقق من خلال استشارة أهل الحل والعقد من علماء الشريعة

وأهل الاختصاص، كل حسب تخصصه، كالساسة والحكام وعلماء الشريعة ورؤساء الجند والنقابات المهنية والاتحادات النسائية وغيرهم.

فالمهم جمع أهل الرأي والاختصاص مع علماء الشريعة في تحقيق المصلحة للناس.

الفرق بين الشورى والديمقراطية

تعرف الديمقراطية بأنها حكم الشعب نفسه بنفسه، وهو ما يعني أن الشعب هو مصدر السلطات. فما رآه الناس صوابًا فهو صواب ومارآه الناس خطأ فهو خطأ. فلا مبادئ ولا أسس ثابتة.

والنظام الديمقراطي يقوم على اختيار الشعب ممثليه بالانتخاب، ويقوم هؤلاء المنتخبون ببيان وجهة نظر الناس. وهو نظام سليم إلى حدٍّ ما إذا توفرت الوسائل والأسباب الصحيحة في اختيار من يمثلهم.

لكن المشكلة في النظام الديمقراطي أن مجلس التشريع لا يخضع لثوابت وأسس تمليها الأديان أو الأخلاق، فقد يقر إباحة الربا نظرًا لمصلحة معينة، أو يقر إباحة الزنا أو غير ذلك من الثوابت، فالحكم لهؤلاء الناس وليس لله ورسوله. كما أن كثيرًا ما يحصل خلل في اختيار الممثَّلين، فقد لايستطيع واحد من أهل الحل والعقد الوصول إلى ذلك المجلس إلا ببذل الكثير من الأموال، مما يؤدي إلى تحكم أصحاب المال في المجتمعات، وقلما يصل فقير إلى تلك المجالس، وبالتالي فهم يبحثون أولاً عن مصالحهم الخاصة.

أما نظام الشورى فهو يوجب وجوبًا استشارة أهل الحل والعقد الحقيقيين، وذلك أمر تعبدي، فيتوجب على الحاكم اختيار الأصلح للناس.

الخليفة

الخلافة تعني رئاسة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ، ويسمى القائم بها خليفة أو إمامًا أو أمير المؤمنين، ومهمتها حمل الجماعة على الالتزام

بمقتضى النظر الشرعي في الأمور الدينية والدنيوية التي تنظم أمورهم حسب مقاصد الشريعة.

والخليفة أو الإمام مهمته إقامة العدل وحماية الدين ومشاورة أهل الشورى فيما ينبغي فيه المشاورة. وهومسؤول أمام الأفراد يستطيع كل فرد أن يحاسبه على تصرفاته التي أخطأ فيها فيما يراه خطأ، ويحاسبه أهل الحل والعقد. وعليه الدفاع عن جميع الأفراد والجماعات وإيصال الحقوق إليهم.

والقرآن الكريم لم ينص على شكل تعيين الخليفة وشروط شرعية، وأشارت الأحاديث إلى بعض الصفات التي ينبغي توفرها فيه، وتكلم العلماء على شروط الخليفة التي استنبطوها من عموم النصوص الشرعية، فاشترط العلماء: سلامة حواسه وأعضائه بما يقوم به بمهمة الخلافة، والعلم الشرعي المؤدي للاجتهاد في النوازل والأحكام، والعدل والرأي الذي يؤهله للقيام بمهامه، إضافة لشروط أخرى، واختلفوا في أن يكون من قريش.

والقرآن الكريم لم يتعرض للتفصيل في هذا الموضوع، تاركًا الأمر للناس لاختيار ما يناسبهم وخاصة أن الأمر من أكثر الموضوعات الشائكة في حياة الناس، لذا ترك الأمر إليهم لاختيار الخليفة ضمن الضوابط الشرعية. فلو اتفقوا على اختيار الخليفة بطريق الانتخاب من أهل الحل والعقد أو من جميع الناس أو تم بالتعيين أو غير ذلك، فالمهم توفر الشروط لإعطاء البيعة له.

والقرآن تحدث عن طاعة أولي الأمر فأوجبها على الناس، وحددتها السنة فيما لا معصية فيه، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.





الفصل التاسع

الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية

المبحث الأول: الوحدة الموضوعية في السورة ومنهج البحث فيها

المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة «دراسة تطبيقية»

المبحث الأول
الوحدة الموضوعية في السورة
ومنهج البحث فيها

يتراءى للبعض أن السورة القرآنية ما هي إلا أشتات مفرقة وأفكار متنوعة لا يربط بينها رابط ولا يجمعها جامع. وقد عللوا ذلك بأن القرآن نزل في فترة زمنية مطولة، وناقش موضوعات مختلفة، ونزل متناسبًا مع الواقع، لا أنه مترابط في ذاته، مسبوك سبكًا محكمًا كأنه قطعة واحدة، فيرون أن العلم الذي يبحثه إنما هو علم متكلف لا فائدة منه.

وقد وجدنا مثل هذا القول يصدر عن أئمة أعلام كالعز بن عبد السلام والشوكاني وغيرهما، **يقول العز بن عبد السلام**: (فإن القرآن نزل على الرسول – ﷺ – في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة غير مؤتلفة، وما كان كذلك لايتأتى ربط بعضه ببعض)[1] **ويقول الشوكاني**: (اعلم أن كثيرًا من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه وتعالى، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف، فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتنزه عنها كلام البلغاء، فضلاً عن كلام الرب سبحانه)[2].

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز، العز بن عبد السلام، ص ٢٢١، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، دار البشائر الإسلامية.

(٢) فتح القدير (١ / ٧٢).

لذا نجد العلامة محمد عبد الله دراز يرد مثل هذه الآراء مبينًا حكمة وجود هذه الموضوعات التي تبدو في ظاهرها متباعدة لا يربطها رابط، فيقول: (ينبغي أن نركز على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلاً عن بعض علماء المسلمين، وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة. فعندما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة، لم ير إلا أشتاتًا من الأفكار المتنوعة عولجت بطريقة غير منظمة وبدون أي ربط منطقي بينها، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب، والحزن المترتب على تكرار النغمة مما يتنافى مع المثالية في الأسلوب العربي. وهناك فريق آخر لم ير في الوحدة الأدبية لكل سورة – وهو ما يستحيل نقله إلى أية ترجمة – إلا نوعًا من التعويض لهذا النقص الجوهري في وحدة المعنى. وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين رأى – وهو يهدف إلى تبرئة الرسول الذي قدم كل سورة من القرآن على شكل وحدة مستقلة – إن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن، وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور)[١].

وهذه الأقوال التي أوردها دراز وما ورد عن العز بن عبد السلام والشوكاني من عدم التناسب وعدم وجود الوحدة الموضوعية في السورة، يرد عليها ما ورد عن العلماء القدامى والمعاصرين من دراسات تثبت الوحدة الموضوعية. ثم إن العلماء من السلف والخلف متفقون على أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة كان في زمن النبي ﷺ بوحي من الله تعالى حيث كان جبريل عليه السلام يشير إلى مكان الآيات في السورة، وكان النبي ﷺ والصحابة يقرؤون السورة مرتبة كما هي في المصحف، بل ورد النهي عن النبي ﷺ قراءة القرآن منكوسًا أي مقلوبًا من آخر السورة لأولها.



(١) مدخل إلى القرآن الكريم، ص ١١٨–١١٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، دار القلم، الكويت.

أولاً: جهود العلماء في بيان الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية

(أ) جهود العلماء القدامى

[١] يعتبر الإمام فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) هو أول من صرح بالقول بالوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم، فرأى أن سورة فصلت مسوقة لغرض واحد، فقال: وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنّا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلامًا واحدًا منتظمًا مسوقًا نحو غرض واحد(١). وهو يعتني بذكر المناسبات بين آيات السورة الواحدة؛ إلا أنه لم يستوف الدراسة عن كل سورة من سور القرآن الكريم.

[٢] كما تحدث الإمام الشاطبي (ت٧٩٠هـ) عن الوحدة الموضوعية في كتابه «الموافقات» عن الوحدة الموضوعية في السورة، فأرشد إلى طريقة فهم الكتاب من ناحية ربط بعض جمله المشتركة في قضية واحدة، وأنه بمعاضدة بعضها لبعض يتبين مقصود الخطاب، ويتبين فقه الكلام، وأنه لا تؤخذ جملة منقطعة عن سابقها ولاحقها، وأن السور النازلة في قضية واحدة أمرها ظاهر. أما السور المشتملة على قضايا كثيرة، فهل ينظر فيها إلى ترتيب السورة ككلام واحد؟ قال: نعم، إن ذلك يفيد من وجهة الإعجاز وإدراك انفراد الكتاب بمرتبة في البلاغة لا تنال(٢).

قال الشاطبي: إن الكلام المنظور فيه تارة يكون واحداً بكل اعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضية واحدة طالت أو قصرت، وعليه أكثر سور المفصل. وتارة يكون

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٧ / ١٣٥)، الطبعة الأولى ١٩٨١م، دار الفكر، بيروت.

(٢) من تعليق عبد الله دراز على الموافقات (٣ / ٤١٢)، طبع دار الفكر العربي ١٩٧٥م، مصر.

متعدداً في الاعتبار، بمعنى أنه أنزل في قضايا متعددة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء واقرأ باسم ربك الذي خلق، وأشباهها، ولا علينا أنزلت السورة بكمالها دفعة واحدة أم نزلت شيئًا بعد شيء.

ولكن هذا القسم له اعتباران: اعتبار من جهة تعدد القضايا، فتكون كل قضية مختصة بنظرها، ومن هنالك يلتمس الفقه على وجه ظاهر لا كلام فيه، ويشترك مع هذا الاعتبار القسم الأول، فلا فرق بينهما في التماس العلم والفقه. واعتبار من جهة النظم الذي وجدنا عليه السورة، إذ هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال. ويشترك معه أيضًا القسم الأول، لأنه ألقي بالوحي. وكلاهما لا يلتمس منه فقه على وجه ظاهر، وإنما يلتمس منه ظهور بعض أوجه الإعجاز وبعض المسائل الأخرى. وجميع ذلك لابد فيه من النظر في أول الكلام وآخره بحسب تلك الاعتبارات. فاعتبار جهة النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعض الآية في استفادة حكم ما لا يفيد إلا بعد كمال النظر في جميعها[١].

فالشاطبي يقرر أن كل سورة تشتمل على وحدة فنية تتعلق بالنظم الذي هو مدخل أساسي لإعجاز القرآن الكريم، كما يقرر أن بعض سور القرآن قد اشتملت على عدة موضوعات، وأن أكثر سور المفصل مشتملة على وحدة في موضوعها.

لكن هذا الأمر غير دقيق، حيث يعتبر أن بعض السور متعددة الأغراض، والصحيح أن كل سورة من السور تشتمل على موضوع واحد محدد.

[٣] ثم كان الإمام برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) صاحب التفسير القيم المسمى «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» الذي خصصه للبحث في المناسبات بين الآيات والسور.

فأول ما يذكره البقاعي في تفسيره لكل سورة – مكية كانت أو مدنية– أنه

(١) الموافقات للشاطبي (٣ / ٤١٤ – ٤١٥).

يذكر المقصود العام لكل سورة وغرضها الأساسي، ثم يفسر البسملة حسب موضوع السورة، ثم يفسر الآيات فيأخذ أجزاء الآية جزءاً جزءاً ويربط بينها. ثم يربط الآية كلها بالتي قبلها لتتحد معها وتتصل بها، وهكذا حتى آخر السورة.

ولما للصلة بين علم المناسبة والوحدة الموضوعية في السورة نجد البقاعي قد بين أن لعلم المناسبة قدر كبيرمن الأهمية، فقال: علم المناسبات علم تعرف منه علل الترتيب. وموضوعه: أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب. وثمرته: الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء، بسبب ماله بما وراءه وأمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلمة النسب. وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم للبيان من النحو[1].

فقرر البقاعي أن معرفة المناسبات بين الآيات يترتب على معرفة الغرض أو الأغراض التي سبقت لها السورة.

ونقل البقاعي عن شيخه أبي الفضل محمد المشدالي البجائي قاعدة طبقها في تفسيره فقال: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها. فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة[2].

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١ / ٥) مطبعة المعارف العثمانية ١٣٩٩هـ حيدر آباد الدكن، الهند.

(٢) المصدر السابق (١ / ١٧-١٨).

لكن البقاعي نظر إلى التناسب ولم يربطها بموضوعها العام، فشغلته الأغراض الفنية عن الموضوع العام سورة.

(ب) جهود العلماء المحدثين

كانت الوحدة الموضوعية في السورة أكثر وضوحًا لدى المتأخرين، لما أولوْه من أهمية بالغة في الدراسة والبحث، يقول أحد الباحثين: (لقد تضافرت جهود كثيرة حاولت أن تعمق هذه الفكرة وتمثل لها، فقد جعل الإمام محمد عبده السورة وحدة متناسقة، وهذا من الأسس التي قام عليها منهجه في التفسير. وقد تواطأت أقوال كثير من العلماء على هذا الأمر فيما بعد، منهج: عبد الحميد الفراهي ورشيد رضا وأحمد أحمد بدوي والمراغي ومحمد المدني ومحمد عبدالله دراز الذي كان أقرب ما يكون إلى منهج البحث وطبيعته، ومحمد حجازي ومحمد المبارك وعبد المتعال الصعيدي، على تفاوت بينهم. وكان سيد قطب رحمه الله أكثرهم عناية بالوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم من حيث شمولية التطبيق. ولا تعدو بعض هذه الجهود أكثر من كونها اهتمامات جزئية، وكان الذي أعوزهم هو ما أعوز المتقدمين، وهو التطبيق العملي في تفسير سور القرآن على ضوء وحدتها الموضوعية. إضافة إلى أن المتأخرين لم تتبلور لديهم منهجية شمولية في البحث في الوحدة الموضوعية في سور القرآن. وإنك لترى البون الشاسع في كتاباتهم، والمنهجية المضربة التي تسود تلك الكتابات في تقريرهم لموضوع السورة الواحدة)[١].

واليك بيان أهم الجهود في بيان الوحدة الموضوعية للسورة:

[١] عبد الحميد الفراهي (ت١٩٣٠م) حيث كتب تفسيرًا لبعض سور القرآن الكريم سماه «نظام القرآن» وجعل له مقدمة سماها دلائل النظام، أصل فيه منهج استخراج الوحدة الموضوعية في السورة. ويقصد بالنظام: معرفة روابط الكلام وتركيب أجزائه وتناسب بعضه، أو هو عمود الكلام وحسن ترتيبه، سواء

---

(١) منهجية البحث في التفسير الموضوعي، زياد الدغامين، ص ١٠٥

كان الكلام جملة واحدة أم عدة جمل، فلابد من الوحدة في نظمه وإلا كان - الكلام - منتشراً[١].

وفرق الفراهي بين المناسبة والنظام، ورأى أن المناسبة جزء من النظام، فإن التناسب بين الآيات بعضها مع بعض لا يكشف عن كون الكلام شيئًا واحداً مستقلاً بنفسه، وطالب التناسب ربما يقع بمناسبة ما، فربما يغفل عن المناسبة التي ينتظم بها الكلام فيصير شيئًا واحداً.

[٢] محمد محمد المديني، كتب الوحدة الموضوعية في سورة النساء، وقرر أن آيات السورة تشترك جميعها لتؤكد على قضية واحدة في السورة، هي تنظيم المجتمع الإسلامي.

[٣] محمد البهي، كتب تفسيراً للعديد من السور، أغلبها مكي، وقد ظهر تحت عنوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وقد قدم لكل سورة بلوحة تعريفية تضمنت، المكي والمدني، وأهداف السورة ومقاصدها، وقسم السورة على حسب تلك المقاصد والأهداف، تجد بينها فجوات عديدة، ولا تجدها متناسبة متناسقة. أي لم تظهر فيها ما يسمى الوحدة الموضوعية في السورة.

[٤] محمد عبد الله دراز (ت ١٩٥٨م) حيث يعتبر حديثه عن الوحدة الموضوعية من أبرز وأدق ما قيل فيها، فقال: (إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعًا من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنيةٌ متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتدّ من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول: فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية

---

(١) دلائل النظام للفراهي، ص ١٦ .

التضامّ والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفًا.

ولماذا نقول: إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية)[1].

[٥] سيد قطب (ت ١٩٦٦م) ولعله يكون أبرز من تكلم على الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية حيث يتعرض باسهاب للوحدة الموضوعية، رابطًا إياها بالموضوع الشامل للقرآن الكريم، ومقارنًا أحيانًا بين السور القرآنية المتشابهة، فيبين اختصاص كل سورة بموضوعها.

يقول الدكتور عدنان زرزور: (لعل – سيّدًا – أول مفسر في تاريخ القرآن الكريم أبرز الوحدة الموضوعية في السور القرآنية المفردة طالت أم قصرت، أبرزه بشكل علمي مكتوب، أو طبقه أروع تطبيق وأعمقه في كتابه العظيم – رحمه الله – ... ثم جاء سيد ليؤكد على هذه الوحدة المحورية في السورة الواحدة، وليضع أيدينا بعد ذلك برفق وسهولة ولين على وجه الانتقال من موضوع إلى موضوع).

ويعلل الدكتور زرزور سر نجاح سيد في هذا أنه أدرك أن مجال البناء الأصلي في القرآن هو البناء الفكري والعقدي، وأن سلوك الإنسان وتصرفاته العملية هي النتيجة الطبيعية لأحكام هذا الجانب الفكري والعقدي، بحيث ينطلق في كل أمر توجبه الفكرة والعقيدة، أو تمليه الحركة من أصول وقواعد

---

(١) النبأ العظيم، ص ١٥٥، الطبعة الثانية ١٩٧٠م، دار القلم، الكويت.

راسخة، ومن ربط واضح محكم بين الفكرة ومقتضياتها العملية، وبين العقيدة ولوازمها السلوكية[١].

ويقول الدكتور صلاح الخالدي: (لاحظ سيد قطب الوحدة الموضوعية في القرآن وقال بها، وحرص على بيانها في الظلال. إن كل سورة تمثل عنده وحدة متناسقة واحدة، وأن القرآن كله يمثل وحدة موضوعية متناسقة. وقارئ الظلال يخرج بهذه النتيجة.

لقد كان سيد قطب موهوبًا أولاً في القول بأن القرآن وحدة واحدة، وموهوبًا ثانيًا في القول بأن كل سورة فيه لها شخصية واحدة، وموهوبًا ثالثًا في بيان التناسق في آيات السورة كلها، ولقد وقف متفردًا بين جميع المفسرين في بيان الوحدة الموضوعية)[٢].

ورغم الجهد الكبير الذي قدمه سيد قطب في بيان الوحدة الموضوعية، فإن الأمر يحتاج لزيادة بحث وتأمل، حيث يؤخذ عليه عدم التحديد الدقيق لموضوع السورة، حيث كان يرى أن بعض السور احتوى على موضوعات عديدة لا يجمع بينها إلا الإطار العقائدي، كما في تقديمه لسورة يونس[٣] وقال عن سورة النحل بأن موضوعاتها كثيرة منوعة[٤] وقال عن سورة الإسراء بأنها تضم موضوعات شتى معظمها عن العقيدة[٥].

[٦] محمد الغزالي (ت ١٩٩٦م) فقد ألف كتابًا سماه «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» أراد أن يؤكد به أن للسورة محورًا عامًا وموضوعًا كليًا تدور عليه، ويذكر أنه فعل ذلك متأسيًا بالدكتور محمد عبد الله دراز، فقال: (لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع في السورة وإن كثرت قضاياها، وتأسيت في ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة، وهي

---

(١) علوم القرآن، عدنان زرزور، ص ٤٣١ - ٤٣٢، طبع المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٨٤م.
(٢) مدخل إلى الظلال، د. صلاح الخالدي، ص ١١١، دار المنارة، جدة.
(٣) في ظلال القرآن (٣ / ١٧٤٦).
(٤) المصدر السابق (٤ / ٢١٥٨).
(٥) المصدر (٤ / ٢٢٠٨).

أطول سورة في القرآن الكريم، فجعل منها باقة واحدة ملونة نضيرة، يعرف ذلك من قرأ كتابه « النبأ العظيم » وهو أول تفسير لسورة كاملة فيما أعتقد)[١].

ولعل جهده ينطبق عليه منهج الوصف الاستقرائي لموضوعات السورة المختلفة، أكثر مما يدور على محور السورة وموضوعها، حيث ذكر أنه كان يختار من الآيات ما يبرز ملامح السورة ويترك غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه، حتى لا يطول العرض ويتشتت[٢].

---

(١) الشيخ محمد الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعي في العصر الحديث، د. مسعود فلوسي، ص ١١٤، الطبعة الأولى – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م، دار الوفاء، دار الصحوة بمصر.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٥ .

ثانياً: الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية

يراد بالوحدة العضوية أن الكلام يرتبط بعضه ببعض ويسير في نسق واحد من أول السورة حتى نهايتها، فيبدأ بمقدمة للسورة، ثم تعرض الموضوعات عرضاً يتناسب مع موضوع السورة، ثم تكون خاتمة السورة. وإذا تم الاستشهاد بالقصص مثلاً فيؤخذ منها ما يتناسب مع الموضوع من حيث فقراتها وطريقة عرضها.

والوحدة العضوية يتم بحثها عن طريق علم يسمى علم المناسبة، بحيث يتبين أن أجزاء الكلام بعضه آخذ بأعناق بعض، بحيث يقوى الارتباط كأنه بناء محكم التأليف والتلاؤم، فهو علم يعرف به علل الترتيب.

لذا نعرض لعلم المناسبة ثم نبين صلته بالوحدة الموضوعية.

علم المناسبات

فالمناسبة في اللغة تعني المقاربة، وهو في اصطلاح أهل التفسير: علم يعرف به علل الترتيب، ويراد به ترتيب الكلمات في الجملة، وترتيب الآيات في السورة الواحدة، وترتيب السور وبيان العلاقة فيما بينها، وترتيب السور في القرآن الكريم.

وهو علم مكمل لنظرية النظم التي بدأها الجرجاني، وقد ركز كلامه على النظم في الجملة، وبين أن سر الإعجاز البلاغي يرجع إليه. ثم توسع العلماء بعده في نظرية النظم فطبقوها على غير ذلك.

أما علم المناسبة كعلم مستقل من علوم القرآن الكريم أفرده بعضهم بالتصنيف، كما فعل السيوطي في كتابه «تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور» وكما فعل البقاعي الذي طبقه على تفسيره الذي سماه «نظم الدرر في

تناسب الآيات والسور». وقد تحدث عن هذا العلم كعلم مستقل كل من الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان وغيرهما، فبين الزركشي أن فائدة هذا العلم هو: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[١].

والقرآن الكريم يظهر فيه التناسب رغم أنه نزل منجماً حسب الحوادث والأزمان في ثلاثة وعشرين عاماً، ويطلب تناسبه لنزوله وتناسبه لترتيبه، قال الزركشي: (قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق الكتاب المكنون، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف)[٢] ويقول الزرقاني: (القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد دقيق السبك متين الأسلوب قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة)[٣].

ومعرفة علم المناسبة علم اجتهادي، يعتمد على تذوق المفسر لعلم الإعجاز وإدراكه للأسرار البلاغية، لذا عليه عدم التكلف فيه، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى منسجمة مع السياق متفقة مع الأصول اللغوية فتكون مقبولة، بل إنها تمثل لبّ الإعجاز اللغوي، ويظهر فيه من الإعجاز البياني الشيء الكثير[٤].

العلاقة بين الوحدة الموضوعية وعلم المناسبة

إن إدراك التناسب الدقيق بين مختلف أجزاء السورة يتوقف على معرفة موضوعها، وهي تمثل علاقة الشكل بالمضمون، فالشكل هو التناسب بين الأجزاء، والمضمون هو وحدة موضوع السورة، لذا نجد البقاعي في تفسيره

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١ / ٣٦)، ط الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، دارالجيل، بيروت.
(٢) المصدر السابق (١ / ٣٧).
(٣) مناهل العرفان (١ / ٥٣)، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بلا تاريخ.
(٤) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص ٩٧، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، بلا تاريخ.

«ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور» يحدد العلاقة بينهما فيقول: وعلم المناسبات علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه: أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب. وثمرته: الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وأمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلمة النسب. وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو[1].

ثالثًا: الهدف من دراسة السورة دراسة موضوعية

[١] بيان الصلة الوثيقة بين الموضوعات المتفرقة في السورة الواحدة، والتي تبدو للوهلة الأولى عدم وجود مناسبة بين بعضها البعض.

[٢] بيان أن للسورة غرضًا واحدًا محددًا تعالجه السورة.

[٣] معرفة طريقة القرآن الكريم في معالجة موضوعاته الجزئية.

[٤] بيان أن استخلاص موضوع السورة ليس أمرًا اجتهاديًا محضًا يجتهد فيه المفسر للتوفيق بين مختلف الموضوعات، بل إن السورة تشير إلى موضوعها من خلال المقدمة والتعليق على كل مقطع من مقاطع السورة، ثم الخاتمة.

[٥] إن التركيز على موضوع السورة ينبه إلى قضية جزئية في بناء الفرد والمجتمع.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١ / ٥).

رابعاً: منهج استخراج الوحدة الموضوعية للسورة

[١] إن أهم ما يحدد موضوع السورة هو الآيات الأولى منها، فالتأمل فيها ومقارنة مقدمات السور هو الذي يساعد في تحديد موضوع السورة.

[٢] ثم يتم الانتقال إلى التأمل في المعالجة الجزئية لموضوع السورة. ومن المهم جداً معرفة أسلوب القرآن في معالجة موضوع السورة. فالقرآن الكريم لا يهدف لعرض قصة بقدر ما يقصد للاستشهاد بها، لذا كان على المتأمل أن يتأمل في المغزى والهدف من سوق القصة. ثم إن القصة لا تعرض عرضًا تاريخيًا مجرداً، بل نجد بين كل جزئية وجزئية أخرى أنه يتم التعليق على جزئيات القصة بما يبين الهدف من الاستشهاد بها، وهذا التعليق يرتبط بموضوع السورة.

كما أن القرآن الكريم غالبًا ما يشير لفكرة معينة فيبين ما أعد لأصحابها من نعيم ويقابله بذكر العذاب، أو يذكر العقاب ويقابله بذكر الثواب، وعلى المتأمل أن يتأمل في المغزي والهدف من عرض الجنة والنار.

وكذلك مخاطبة العقل والعاطفة، حيث يتطلب الأمر أحيانًا مخاطبة العقل وحده، أو العاطفة وحدها أو هما معًا.

وعليه فينبغي التركيز في التدبر والتأمل لاستخراج الوحدة الموضوعية من معرفة الهدف العام لعرض مختلف جزئيات الموضوع.

[٣] ثم تأتي خاتمة السورة لتؤكد ما بدأت به، ولا يعني ذلك اتفاق اللفظ أو نفس الموضوع الذي بدأت به السورة، إنما قد يكون تأكيداً أو استنتاجاً لمحور السورة.

والذي ينبغي التركيز عليه هو الملازمة والمناسبة بين مقدمة السورة مع وسطها وخاتمتها.

خامساً: العلاقة بين اسم السورة وموضوعها

يحاول البعض أن يوجد علاقة بين اسم السورة وموضوعها، وهو نوع من التكلف إذا أخذ على عمومه، أي أن من أراد استخراج موضوع السورة من اسمها فلا شك أن فيه تكلفًا، وذلك لتعدد أسماء كثير من السور، وبعض أسماء السور كان من الصحابة ﷺ، وأهم ما فيها أنه جعلت لها تسميات تسهيلاً لحفظها وقراءتها وتعلمها وتدوينها ونحو ذلك. لذا نتعرض لبحث أسماء السور.

فأسماء السور جعلت لها من عهد نزول الوحي، فسماها الصحابة بما حفظوه عن النبي ﷺ أو أخذوا لها أشهر الأسماء التي كانوا يعرفونها بها ولو كانت التسمية غير مأثورة(١) وذلك لكثرة أسماء كثير من السور، ولا شك أن بعضها كان من الصحابة. فكان النبي ﷺ إذا نزلت آيات يقول: «**ضعوها في السورة التي يذكر فيها كذا**» وفائدة التسمية أن تكون بما يميز السورة عن غيرها.

وأصل أسماء السور أن تكون بالوصف كقولهم: السورة التي يذكر فيها كذا، ثم شاع فحذفوا الموصول وعوضوا عنه الإضافة فقالوا: سورة ذكر البقرة مثلاً، ثم حذفوا المضاف إليه مقامه فقالوا: سورة البقرة. أو أنهم لم يقدّروا مضافًا وأضافوا السورة لما يذكر فيها لأدنى ملابسة(٢).

وقد وردت روايات تنهى عن القول: سورة البقرة، سورة آل عمران، سورة الفيل ... فعن أنس مرفوعًا: لا تقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء، وكذلك القرآن كله. ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله». فهذا حديث قال عنه أحمد بن حنبل إنه منكر، وذكره ابن

(١) تفسير التحرير والتنوير (١ / ٨٩).

(٢) المصدر السابق (١ / ٨٨).

الجوزي في الموضوعات. لكن ابن حجر أثبت صحته ... وتأويله عند من أثبت صحته أنه منسوخ، فقد كان المسلمون في مكة إذا قالوا: سورة الفيل، سورة العنكبوت، هزأ بهم المشركون. فلما انتقلوا إلى المدينة زال سبب النهي فنسخ ... ويؤيد ذلك أن البخاري قد ذكر باب من لم ير بأسًا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا، وفيه أحاديث أنهم قالوا سورة البقرة، سورة الفتح، سورة النساء..[1].

قال ابن عاشور: والظاهر أن الصحابة سمّوا بما حفظوه عن النبي ﷺ، أو أخذوا لها أشهر الأسماء التي كان الناس يعرفونها بها ولو كانت التسمية غير مأثورة، فقد سمى ابن مسعود القنوت سورة الخلع والخنع، فتعين أن تكون التسمية من وضعه، وقد اشتهرت تسمية بعض السور في زمن النبي ﷺ وسمعها وأقرها، وذلك يكفي في تصحيح التسمية.

واعلم أن أسماء السور إما أن تكون بأوصافها مثل الفاتحة وسورة الحمد، وإما أن تكون بالإضافة لشيء اختصت بذكره نحو سورة لقمان وسورة يوسف وسورة البقرة، وإما بالإضافة لما كان ذكْره فيها أو في نحو سورة هود وسورة إبراهيم، وإما بالإضافة لكلمات تقع في السورة نحو سورة براءة وسورة حم عسق وسورة حم السجدة كما سماها بعض السلف وسورة فاطر. وقد سمّوا مجموع السور المفتتحة بكلمة حم «آل حم» وربما سمّوا السورتين بوصف واحد، فقد سمّوا سورة الكافرون وسورة الإخلاص المقشقشتين.

واعلم أن الصحابة لم يثبتوا في المصحف أسماء السور، بل اكتفوا بإثبات البسملة في مبدأ كل سورة علامة على الفصل بين السورتين، وإنمافعلوا ذلك كراهة أن يكتبوا في أثناء القرآن ما ليس بآية قرآنية .. وفي الإتقان أن سورة البينة سميت في مصحف أيّ سورة أهل الكتاب، وهذا يؤذن بأنه كان يسمي السور في مصحفه. وكتبت أسماء السور في المصاحف باطراد في عصر التابعين، ولم ينكر عليهم ذلك)[2].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (١ / ٨٩).

(٢) المصدر السابق (١ / ٨٩).

وعليه فقد كان بعض الصحابة يسمي السور بأسماد يجتهد في بعضها مستنبطًا ذلك من معناها العام. لذا فإن بعض أسماء السور يمكن أن يرتبط بموضوعها، ويمكن أن تكون التسمية لموضوع تميزت السورة بذكره وعرضه، فربط الموضوع به فقط إنما هو تكلف.

المبحث الثاني
الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة
(دراسة تطبيقية)

مقدمة

كل سورة من سور القرآن الكريم تتناول موضوعًا معينًا تطرحه وتعالجه وتكون به مميزة، ولا يمكن لأحد أن يدعي أن السورة من القرآن تشتمل على موضوعات متفرقة لا يربط بينها رابط ولا يجمع بينها جامع.

وسورة المجادلة واحدة من السور المدنية التي تناولت موضوعاً واحداً محدداً، والتي قد تبدو للوهلة الأولى أنها تناولت موضوعات متفرقة لا رابط بينها، لكن بعد التأمل يتبين أنها ناقشت موضوعًا محدداً. ثم إن كثيراً من المفسرين المعاصرين حينما تحدث عن أهداف السورة وأغراضها ذهب لوصفها وصفًا ظاهريًا ببيان الموضوعات التي ناقشتها السورة. دون التركيز على تسلسل الموضوعات الجزئية، ولا على موضوع السورة.

تعريف عام بسورة المجادلة

أولاً: المكي والمدني

قال القرطبي: (مدنية في قول الجميع. إلا رواية عن عطاء: أن العشر الأول منها مدني، وباقيها مكي. وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة، غير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ نزلت بمكة)[١].

إلا أن التأمل في سياق الآيات وما ورد من روايات في أسباب النزول يشير إلى أن جميع آيات السورة مدنية، وليس فيها شيء مكي.

(١) القرطبي ١٧ / ٢٦٩).

ثانيًا: تسميتها

هي بفتح الدال وكسرها، والثاني هو المعروف، وتسمى سورة قد سمع، وسميت في مصحف أبيّ سورة الظهار قال ابن عاشور: (وجه تسميتها سورة المجادلة لأنها افتتحت بقضية مجادلة امرأة أوس بن الصامت) وقال: (وكسر الدال أظهر، لأن السورة افتتحت بذكر التي تجادل في زوجها، فحقيقة أن تضاف إلى صاحبة الجدال)[١].

ثالثًا: وقت نزولها

قال ابن عاشور: (والذي يظهر أن سورة المجادلة نزلت قبل سورة الأحزاب، لأن الله تعالى قال في سورة الأحزاب: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ**﴾ [٤]، وذلك يقتضي أن تكون هذه الآية نزلت بعد إبطال حكم الظهار بما في سورة المجادلة، لأن قوله: ﴿**مَا جَعَلَ**﴾ يقتضي إبطال التحريم بالمظاهرة، وإنما أبطل بأية سورة المجادلة. وقال السخاوي: نزلت سورة المجادلة بعد سورة المنافقين وقبل سورة الحجرات)[٢].

رابعًا: عدد آياتها

إحدى وعشرون في عد أهل المدينة ومكة، وفي عدّ أهل الشام والبصرة والكوفة اثنتان وعشرون[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨ / ٥).

(٢) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(٣) روح المعاني (٢٨ / ٢).

الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة عند المفسرين

تحدث المفسرون عن الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة، وأكثرهم ذهب إلى وصفها وصفًا ظاهريًا، ببيان الموضوعات التي أشارت إليها السورة.

يقول البقاعي صاحب تفسير نظم الدرر: (مقصودها الإعلام بإيقاع البأس الشديد، الذي أشارت إليه الحديد بمن حاد الله ورسوله ﷺ، لما له من تمام العلم، اللازم عنه تمام القدرة، اللازم عنه الإحاطة بجميع صفات الكمال، وعلى ذلك دلت تسميتها بالمجادلة بأول قصتها وآخرها، وعلى تكرير الاسم الأعظم الجامع في القصة وجميع السورة؛ تكريرًا لم يكن في سواها بحيث لم تخل منه آية . .)[١].

ويقول الدكتور محمد سيد طنطاوي في التفسير الوسيط: (افتتحت سورة المجادلة بالحديث عن المرأة التي جادلت النبي ﷺ في شأن زوجها. ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الذين يحادون الله ورسوله فبينت سوء عاقبتهم . . ثم وجه سبحانه ثلاثة نداءات إلى المؤمنين. وبعد أن عجبت السورة الكريمة من أحوال المنافقين وبينت سوء عاقبتهم وكيف أن الشيطان قد استحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله، بعد كل ذلك ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين وبيان صفاتهم الكريمة . .)[٢].

ويقول الشيخ محمد الغزالي: (المجتمع المدني كان صنوفًا شتى من الناس. هناك المؤمنون الذين يصنعهم الوحي ليقودوا قافلة الإيمان في المشارق والمغارب. وهناك الوثنيّون المتعلقون بأذيال الليل المدبر. وهناك اليهود الذين يعبدون جنسهم ويريدون فرض أهوائهم على الناس. وهناك المنافقون الذين يجرون وراء مصالحهم ويظهرون في ألف لون . .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١٩ / ٣٣١).
(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي (١٤ / ٢٤١ - ٢٤٢) دار المعارف، القاهرة، بلا تاريخ.

وهذه السورة على وجازتها تعرضت لأولئك جميعًا. فقد بتّت في قضية الظهار، وهو من شؤون الأسرة، وبينت أنه ليس طلاقًا وذكرت كفارته .. وانتقلت عقب ذلك إلى اليهود الذين أرادوا تحية المسلمين الذين قالوا: السام عليكم ... ثم أمر الله المسلمين أن تكون أحاديثهم في مجالسهم أو مع خصومهم بعيدة عن الشحناء والتحدي وأن يترفعوا عن محاكاة اليهود..)[١].

ويقول محمد عزة دروزة في «التفسير الحديث» والذي رتبه حسب النزول: (في السورة تسفيه لعادة الظهار وتشريع فيها، وحكاية لشكوى وجدال امرأة مسلمة في سياق ذلك. وتنديد بفريق كان يتآمر بالسر بما فيه إثم وعدوان، ونهي للمسلمين عن مثل هذا الخلق، وتعليم لهم بما هو الأمثل بهم. وتعليم للمسلمين كذلك آداب المجلس. وتلقينهم الاهتمام بالأخلاق والعلم وأهلهما. ومشهد فيه حث للمسلمين على تقديم صدقات عند اجتماعهم بالنبي ﷺ اجتماعًا خاصًا، وحكاية لاستثقالهم ذلك وعتاب لهم ونسخ للتكليف بسبب ذلك. وحملة شديدة على المنافقين لموادهم لمن غضب الله عليهم، الذين تتفق الروايات والأقوال على أنهم اليهود. وتنزيه للمخلصين عن مثل هذا الموقف)[٢].

وذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور صاحب تفسير التحرير والتنوير أغراض سورة المجادلة فيقول: (الحكم في قضية مظاهرة أوس بن الصامت من زوجه خولة. وإبطال ما كان في الجاهلية من تحريم المرأة إذ ظاهر منها زوجها ... وتخلص من ذلك إلى ضلالات المنافقين، ومنها مناجاتهم بمرأى المؤمنين ليغيظوهم ويحزنوهم. ومنهم موالاتهم اليهود وحلفهم على الكذب. وتخلل ذلك التعرض لآداب مجلس الرسول ﷺ، وشرع التصدق قبل مناجاة الرسول ﷺ. والثناء على المؤمنين في مجافاتهم اليهود والمشركين، وأن الله ورسوله وحزبهما هم الغالبون)[٣].

---

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص٤٤٦، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار الشروق، القاهرة.

(٢) التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة (١٠ / ٩٢) الطبعة الأولى ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ٢٠٣ .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨ / ٦).

أما الدكتور وهبة الزحيلي صاحب التفسير المنير فيذكر موضوع السورة قائلاً: (موضوع هذه السورة كغالب السور المدنية بيان الأحكام التشريعية، وقد تضمنت حكم الظهار وكفارته، وحكم التناجي، وأدب المجالس، وتقديم الصدقة في بدء الأمر قبل مناجاة الرسول ﷺ، وحكم المنافقين وجزائهم وتكذيبهم ووصفهم بأنهم حزب الشيطان، وموادة أعداء الله وموالاتهم..)[١].

ويقول الشيخ محمد محمود حجازي صاحب التفسير الواضح: (هي كبقية السور المدنية تعالج أمراض المجتمع، ببيان التشريع السليم للمشكلات، وبيان الآداب الإسلامية في المجتمعات، مع لفت أنظار المسلمين إلى أعدائهم في الدين وتحديد علاقتهم بهم)[٢].

ويذكر الشيخ الصابوني في تفسيره «صفوة التفاسير» ما تعرضت له السورة قائلاً: (وقد تناولت أحكامًا تشريعية كثيرة، كأحكام الظهار، والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله، إلى غير ذلك، كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود)[٣].

والملاحظ بعد هذا الاستعراض لمن تحدث عن موضوع سورة المجادلة أنهم جميعًا أو أكثرهم يميلون لوصف السورة وصفًا ظاهريًا ببيان الموضوعات التي تحدثت عنها السورة.

أما الشيخ سعيد حوى صاحب الأساس في التفسير فنجده قد ركز على الربط بين سورة المجادلة وسورة المائدة ثم بين سورة المائدة وسورة البقرة، والذي بين أن سورة المجادلة تحرر من المعاني السلبية التي تحول دون الهداية[٤]. ولعله كلام عام ينطبق على غيرها من السور.

---

(١) التفسير المنير (٢٨ / ٦) الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١م، دار الفكر، بيروت ودمشق.
(٢) التفسير الواضح (٢٨ / ٣) الطبعة الرابعة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، مطبعة الاستقلال، القاهرة.
(٣) صفوة التفاسير (٣ / ٣٣٣) الطبعة التاسعة، دار الحديث، القاهرة، بلا تاريخ.
(٤) الأساس في التفسير (١٠ / ٥٧٧٩) الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، دار السلام، القاهرة.

وأما سيد قطب صاحب الظلال والذي يعتبر أفضل من تكلم عن الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية فيقول: (نحن في هذه السورة – وفي هذا الجزء كله تقريبًا – مع أحداث السيرة في المجتمع المدني. مع الجماعة المسلمةالناشئة، حيث تُربّى وتُقوّم وتعد للنهوض بدورها العالمي، بل بدورها الكوني الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدراته..) ثم يقول: (ونحن نشهد في هذه السورة – وفي هذا الجزء كله – طرفًا من تلك الجهود الضخمة، وطرفًا من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس، وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات، كما نشهد جانبًا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين.

وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة، وهو يصنعها على عينه ويربيها بمنهجه ويشعرها برعايته، ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده – سبحانه – معها في أخص خصائصها وأصغر شؤونها «وحراسته لها من كيد أعدائها ...»[1].

وكلام سيد قطب كلام عام ينطبق على أكثر السور المدنية.

القول في الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة

الأولى هو القول بأن موضوع السورة يدور حول مسألة المحادة لله ورسوله وما ينطبق عليها من تصرفات، ولعل الذي يلفت الانتباه في الموضوع هو وجود بعض التصرفات الشخصية التي يظن المرء أنها طبيعية أو بسيطة، فإذا بها في مقياس الشرع ذات شأن خطير. وأحيانًا يتكلم الإنسان كلمة لا يلقي لها بالاً فيهوي بها في جهنم.

فالذي يلفت الانتباه في السورة هو تطبيق مفهوم المحادة على واقع الفرد والمجتمع، ومعرفة مدى تصرفات المرء التي ينطبق عليها مفهوم المحادة، أو ما يؤدي

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٥٠٣).

في نتيجته إلى المحادة، وأهمها الجدل في أمور الدين، وكذا الولاء والمودة لمن يحاد الله ورسوله.

تبتدئ سورة المجادلة بالحديث عن المرأة التي جادلت النبي ﷺ في شأن زوجها الذي ظاهر منها، ثم تعرض السورة ما يتعلق بالظهار من أحكام، ثم يعلق على هذه الحادثة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا ..** ﴾ [٥].

والذي يظهر من هذه الحادثة أمران؛ الأول: جدال هذه المرأة للنبي ﷺ وهو أمر في غاية الخطورة، لأنه لا يكون المرء تام الإيمان إلا بالتسليم التام وخاصة في أمور الدين وتشريع الأحكام ... ثم إن المرأة لم تكتف بالجدل بل راحت تشكو أمرها إلى الله، وفي هذا تجاوز لمقام النبي ﷺ وكأنه – سبحانه – يحذرنا من أن يكون الجدل سبيلاً إلى المحادة. وأما الأمر الثاني: فهو الظهار، وفي الظهار تجاوز خطير في شأن التحليل والتحريم، لأن المرء يحرم ما أحل الله له، ولهذا أشبهت كفارته كفارة قتل المؤمن. لذلك نجد التعليق على الظهار بقوله: ﴿ **ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [المجادلة:٤] ... وعليه ففي هذه الحادثة أمران خطيران، وكل منهما سبيل إلى المحادة لله ورسوله.

ثم ينتقل الحديث إلى النجوى ويضرب مثلاً بالقوم الذين نهو عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه، وسياق الآيات والنصوص تشير إلى أنهم هم اليهود الذين كانوا يقولون للنبي ﷺ: السام عليك – أي الموت. وذلك قمة الجحود والمحادة لله ورسوله ولعل ذلك أمر واضح، لكن الذي يلفت الانتباه هو الولاء والمودة وأمثالهم سواء بالتآمر معهم، وهذا الذي كان من قبل بعض المنافقين، أو بالسير على طريقهم ... ولعل من الأمور التي قد تكون سببًا في إثارة الشحناء والبغضاء وتؤدي للولاء هي مسألة تنظيم المجالس والطلب من الآخرين أن يتفسحوا أو ينهضوا، ولهذا أمر القرآن المسلم أن يلتزم أدب المجالس ولا يكن في نفسه أي حرج وضيق ...

ثم أن الحديث ينتقل لمن تولي قوماً غضب الله عليهم فإنه يكون منهم، وقد بين القرآن أن هؤلاء حزب الشيطان فهم خاسرون وهم في الأذلين. أما المؤمن فلا يكون منه ولاء ولا مودة لهؤلاء القوم، ومن كان كذلك كان من حزب الله.

وبذلك نجد تسلسل الموضوعات وترابط المقدمة مع الخاتمة، فالمقدمة أشارت لقضية الجدل في الدين وبينت خطورته، والخاتمة أشارت لمن يحمل المودة لمن حاد الله ورسوله.

دراسة موضوعية في سورة المجادلة

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١].

تشير هذه الآية لما كان من جدل المرأة في شأن زوجها الذي ظاهر منها. وقصتها هي: عن خولة بنت ثعلبة قالت: والله فيّ وفي أوس بن صامت أنزل الله عز وجل صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه وضجر. قالت: فدخل عليّ يومًا فراجعته بشيء، فغضب فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني على نفسي، قالت: فقلت؛ كلا والذي نفس خويلة بيده لاتخلص إليّ وقد قلتَ ما قلتَ حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني وامتنعت منه فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعَرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه فجعلت أشكو إليه ﷺ ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**يا خويلة، ابنُ عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه**» قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيّ القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سرِّيَ عنه، فقال لي: «**يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك**، ثم قرأ عليّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

أما شكل جدلها وشكواها فكان كلما قال لها رسول الله ﷺ: «**قد حرمت عليه**» تقول: والله ما ذكر طلاقًا، ثم تقول: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وإن

(١) رواه أحمد في المسند (٦ / ٤١٠-٤١١) وأبو داود (٢٢١٤) والبيهقي في الكبرى (٧ / ٣٨٩).

لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا .. وجعلت ترفع رأسها وتقول: اللهم إني أشكو إليك ... [١].

كما أن الملاحظ في هذه الآية إسناد الجدل للمرأة، أما الكلام بين المرأة والنبي ﷺ فعبر عنه بالحوار، والجدل غير الحوار، فالجدال هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة. أما الحوار فيعطي معنى المراجعة والمرادّة في الكلام[٢] والقرآن الكريم غالبًا ما يستخدم لفظة الجدال للحوار من أجل تحوير الحق وإثبات الباطل.

وهذه الآية ذكرت سمع الله ثلاث مرات «سمع، يسمع، سميع» وذكر البصر مرة واحدة. لما له من أمر يتعلق بعلاج الموضوعات التي تشير إليها السورة، فمسألة الظهار التي تتم بين الرجل وزوجته عادة، ومسألة النجوى والتحية بأسلوب خبيث كما فعل اليهود، إنما هي أمور خفية في الغالب فكانت الحاجة ماسة للتذكير بسمع الله لهم.

والان نعود لاستعراض الآيات وبيان منهج القرآن الكريم في العلاج.

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[المجادلة: ٢-٦]

تتحدث هذه الآيات عن الظهار وما فيه من أحكام. وقبل الحديث عن كفارة الظهار ينفي القرآن أن تكون نساؤهم أمهاتهم، وأن هذا القول إنما هو منكر وزور فلا يغير من حقيقة الأمر شيئًا، ووصفه بأنه منكر ينكره الشرع والعقل والطبع، وهو زور أي كذب باطل.

---

(١) فتح تقدير للشوكاني (٥ / ١٧٩).

(٢) المفردات ص ٨٩ و ١٣٥ .

والظهار هو أن يقول الرجل لامرأته أنت عليّ كظهر أمي، أي أنت محرمة عليّ كما حرم الله عليّ ظهر أمي. وكان الظهار في الجاهلية طلاقًا، فبين القرآن أنه ليس بطلاق إنما هو قول منكر وزور يستوجب الكفارة.

ثم تتحدث الآيات عن كفارة الظهار فتشير إلى أن الرجل إن ظاهر من امرأته ثم رجع عن قوله فعليه تحرير رقبة من قبل أن يتماسّا، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا. وللفقهاء تفصيلات كثيرة في كيفية الكفارة، ومجال هذه التفصيلات هي كتب الفقه ... لكن الدراسة الموضوعية تتطلب منا مقارنة النصوص القرآنية بعضها مع بعض ومعرفة الحكمة من التفصيل في مكان والإجمال في مكان آخر. والذي يلاح في كفارة الظهار ما يأتي:

أولاً: إن أهم ما ينبغي ملاحظته هو أن كفارة الظهار تشبه في شكلها العام كفارة القتل الخطأ في تحرير الرقبة والصيام دون الإطعام، وقد يسأل سائل: ما الذي فعله المظاهر حتى يستحق هذه العقوبة المغلّظة؟ كما أنها تشبه كفارة من أتى أهله في رمضان منتهكًا حق هذا الشهر وبتلك الطريقة؟ فيجاب عليه بأن في الظهار انتهاكًا لحق من حقوق الله ألا وهو مسألة التحليل والتحريم، فالله سبحانه حرم عليه أمه وأحل له زوجته، فإذا بالمظاهر يحرم على نفسه امرأته كما حرم الله عليه أمه! ... فقد يقول قائل: إن النبي ﷺ حرم على نفسه ما أحل الله له، كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ...**﴾ [التحريم ١]، فيجاب عليه بأن التحريم هناك تحريم امتناع وليس تحريم تشريع، أي ليس فيه تغيير لشرع الله ولأحكام دينه.

ثانياً: وقضية تحرير الرقبة ذكرت في القرآن الكريم في كفارة القتل والظهار واليمين، فأما في القتل فاشترط أن تكون الرقبة مؤمنة، وأما في الظهار واليمين فذكرت الرقبة مطلقة ولم يشترط فيها الإيمان، ولهذا اختلفوا فيما إذا كان يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة في كفارة اليمين والظهار من باب حمل النصوص

بعضها على بعض لأن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وسميت هذه المسألة في كتب الأصول (حمل المطلق على المقيد) . . ولعل الذي يميل إليه الرأي هو أنه لا يشترط أن تكون الرقبة مؤمنة في مسألة الظهار واليمين وذلك لاختلاف السبب الباعث على الحكم، والنصوص تحمل بعضها على بعض إذا اتحد السبب والحكم. ولعل قائلاً يقول: ما الحكمة في اشتراط الإيمان في كفارة القتل؟ فيجاب عليه: بأن في القتل إزهاق روح مؤمنة فيناسبها عتق رقبة مؤمنة، أما الظهار واليمين فليس فيه ذلك.

ثالثًا: التعليق على كفارة الظهار بقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ إشارة إلى تعدي المظاهر لحدود الله، وأطلق الكافر على المتعدي لحدود الله تغليظاً لزجره[١].

أما قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**...﴾ فتعتبر هذه الآية تعليقًا لما سبق من قضية الظهار وتمهيداً لما سيأتي من قضية النجوى وفيها إشارة للموضوع الأساسي في السورة، وهذا يتطلب منا التوقف عند هذه الآية بالبحث من خلال الفقرات التالية:

أولاً: معنى المحادة، حيث تعني المعاداة والمشاقّة والمخالفة، وأصلها الممانعة، وذلك إما لأن كل واحد يكون في حد وشقّ غير حدّ أو شق الآخر؛ أو من استعمال الحديد وهو لازم الممانعة[٢] ولعلها من باب تعدي الحدود بطريق الممانعة والتحدي.

ثانيًا: استخدمت كلمات المحادّة في القرآن الكريم في سورتي المجادلة والتوبة، فأما في المجادلة فاستخدمت (حادّ) مرة واحدة و(يحادّون) مرتين وهكذا وردت ثلاث مرات بتشديد الدال، أما في سورة التوبة فاستخدمت كلمة (يحادد) بتخفيف الدالة.

أما كلمة حدود فوردت مرة في سورة المجادلة، وهي واردة في السور المدنية

---

(١) روح المعاني (٢٨ / ٢٠).

(٢) المفردات، ص ١١٠ .

حيث وردت (٧) مرات في سورة البقرة، ومرتين في سورتي التوبة والطلاق، ومرة في سورة النساء والمجادلة.

ثالثًا: الفرق بين المحادّة والمشاقة، فمن خلال استقراء الآيات يتبين أن المحادة استخدمت مع المنافقين والمشاقة استخدمت مع الكافرين.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿**كُبِتُوا**﴾ والكبت هو الرد بعنف وتذليل[1].

وهذه الآية لا تنطبق على من مضى ليُفَسَّر وقوع الكبت في جماعة أو فئة معينة، إنما هي قائمة إلى يوم الدين، ويشير إليه قوله: ﴿**يُحَادُّونَ**﴾ التي تفيد صيغتها التجدد والاستمرار، وعبّر بصيغة الفعل الماضي للإشارة إلى تأكيد تحقق وقوع الكبت عليهم، وكان الكبت واقع عليهم لا محالة، أو وقع أمر الكبت عليهم وينتظر حدوث المحادة منهم ليقع الكبت عليهم.

أما قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾ لبيان مغالطة من يتعدى حدود الله ويحاد الله ورسوله، ولبيان أن السبب إنما هو الجحود وليس خفاء حكم الشرع.

وأما قوله سبحانه: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ وذكر الآية السابقة ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ ليجمع لهم بين الألم الذي يشير للعذاب الجسدي، والمهانة التي تشير للعذاب النفسي.

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**

---

(١) المفردات، ص ٤٢٠ .

آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[المجادلة: ٧-١٣]

تتحدث هذه الآيات عن قضية النجوى وتبين أثرها وخطرها على الفرد والمجتمع وترشد لطريقة علاج هذه الظاهرة التي تفتت من أركان المجتمع وتبث فيما بينهم الخلاف وتثير بينهم الضغائن والأحقاد. ويمكن الحديث عن هذه القضية من خلال الفقرات التالية:

أولاً: معنى النجوى

حيث تعني المسارّرة أو الحديث بالسر، وأصله أن تخلو به في نَجْوة من الأرض، أي في مكان مرتفع أو منفصل عما حوله،، ثم صار يستخدم في حديث السر[١].

ثانياً: أثر النجوى

وللنجوى أثر كبير على كيان المجتمع الإسلامي المتماسك والمتضامن، حيث إنها وسيلة يمكن أن تستخدم من قبل المنافقين والحاقدين لتفريق الصف وبث الخلافات وإثارة الشحناء والبغضاء في النفوس، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾.

والمتتبع لآيات النجوى في القرآن الكريم يجد أن النجوى من أهم الأسلحة التي يستخدمها المنافقون للكيد للمسلمين، كما استخدمها المشركون من قبل

---

(١) المفردات، ص ٤٨٤ .

للكيد لدعوة الإسلام والإيقاع بالنبي محمد ﷺ . ففي العهد المكي يحكي القرآن مناجاة المشركين وما اتفقوا عليه في نجواهم، فيقول سبحانه: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الإسراء: ٤٧] ويقول سبحانه: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ② لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢-٣]، وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، واستخدم أعداء موسى ذلك السلاح كما حكى القرآن عنهم: ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٣]، وفي العهد المدني يشير القرآن الكريم لاستخدام المنافقين لهذا السلاح الخطير: ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾ [النساء: ١١٤]، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وفي سورة المجادلة علاج لهذه الظاهرة لئلا تستخدم ذلك الاستخدام السيء، وإن كان لابد منها فتستخدم وفق الضوابط الشرعية فتكون بالبر والتقوى، ولا تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ... وفي ذلك حدٌّ لنشاط المنافقين وتطهير للمجتمع المسلم.

ثالثاً: الصلة بين النجوى والظهار

لعل الحكمة من تشريع كفارة الظهار من أنها انتهاك لحق من حقوق الله في التحليل والتحريم، حيثُ يُحرّم المظاهر ما أحل الله له، وذلك شكل من أشكال المحادّة لله سبحانه وتعالى. وفي النجوى التي تستخدم عادة في الكيد للمسلمين شكل من أشكال المحادّة، وخاصة إذا لاحظنا المثل الذي ذكره القرآن من الولاء لمن حاد الله ورسوله، الولاء لمن يتناجى في الإثم والعدوان ومعصية الرسول كما كان

حال اليهود والذي يحيّون النبي ﷺ بصورة يشعرون فيها بمدى إثمهم ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

بعدما لاحظنا أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا ...﴾ [المجادلة: ٥] حيث جاءت هذه الآية تعليقًا لما سبق وتمهيدًا لما سيأتي من حكم النجوى وبيان أنه سبحانه وتعالى يحصي عليهم أعمالهم. ومن ثم يستعرض القرآن قضية النجوى ويعالجها.

يشير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ ...﴾ [المجادلة: ٧] إلى معية الله تعالى لهم وعلمه بشأنهم وما يخططون ويكيدون لدين الله ولدعوته وللمسلمين. وهذا أضل وسيلة لمعالجة كيد هؤلاء، أن تشعرهم بأنك تعلم سرهم ونجوهم، لكنه سبحانه يمهلهم ولا يهملهم، وتركهم سبحانه لحكمة يعلمها، ليزدادو غيًا وطغيانًا وليمحص صف المؤمنين ويرشدهم لكيد أعدائهم. وهو تحذير أيضاً لضعاف الإيمان الذين تسوّل لهم نفوسهم في التآمر أو بث النجوى في المجتمع.

ثم يشير للقوم الذين نهوا عن النجوى – وهم اليهود ومن شايعهم من المنافقين – ثم يصرون عليها لأنها وسيلتهم في الكيد، ويذكر مثلاً واضحاً لنجواهم حيث كانوا يحيّون النبي ﷺ بطريقة يظهر فيها خبثهم وعنادهم ومحاداتهم لله ورسوله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]. فقد كان أناس من اليهود إذا دخلوا على النبي ﷺ قالوا: السام عليك يا أبا القاسم، يريدون بذلك شتمه، ومعنى السام: الموت، ويقولون في أنفسهم: لو لا يعذبنا الله بما نقول، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾[1] وانظر لجحود هؤلاء القوم، فهم يعرفون أنه نبي مرسل من عند الله ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم وكانوا ينتظرون بعثته، ومع ذلك يسلمون عليه هذا السلام الخبيث.

(١) رواه البخاري (٦٢٦٥) ومسلم (٢١٦٥).

ثم يوجه سبحانه خطابه للمؤمنين إذا اضطروا للمناجاة فتكون مناجاتهم بالبر والتقوى، ولا تكون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ثم علق بالأمر بالتقوى بشكل عام.

ثم بين سبحانه العلة من منع النجوى وبيان أثرها في بث الحزن وإثارة الضغائن حيث قال: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ...﴾ [المجادلة: ١٠]، وقوله: ﴿**مِنَ الشَّيْطَانِ**﴾ أي من تزيينه[١] فهي سبيله ووسيلته في إيقاع الشر بين المسلمين. لكن المؤمن الحق لا يضره كيد الشيطان لأنه يحسن الظن بإخوانه المؤمنين فلا يظن بهم إلا خيراً، لكن النبي ﷺ حرم ذلك درءاً للفتنة واجتناباً للشر وابتعاداً عن مواطن الشبهات كما قال: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه**»[٢].

وباعتبار أن طبيعة المكان والمجلس هي التي تساعد على النجوى، فكان السبيل لقطع الطريق عن المتناجين بأمرهم بالاستجابة إن طلب منهم التفسح في المجالس أو فضّ المجلس والرفع منه، كما قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا** ..﴾ [المجادلة: ١١]، ثم قال: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ...﴾، وفيه إشارة إلى أن الممتثل لما يطلب منه من التفسح أو النهوض من المجلس إنما هو متصف بالإيمان والعلم وليس فيه إذلال للنفس أو عدم احترام لها.

ولما كانت مناجاة الرسول ﷺ أمر يحتاجه الناس كثيراً في ذلك الوقت وخاصة في استشارته في كثير من الأمور الخاصة التي لا يحب أن يطلع عليها أحد، وكان ذلك يشق على رسول الله ﷺ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن نبيه، فشرع تقديم صدقة لمن يريد المناجاة.

ثم إن المنافقين كانوا يفسرون المناجاة بما يتفق مع نفسيتهم الخبيثة فيقولون عن النبي ﷺ إنه أُذُن يسمع كل ما يقال له، إضافة إلى أن الشيطان كان يلقي

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٧ / ٢٩٥).
(٢) رواه البخاري (٢٦٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).

في نفوسهم أن بعضهم يناجيه بأن جموعًا اجتمعت لقتاله .. كما أن قومًا من المسلمين كانوا يناجون النبي ﷺ في الأمر الخاص فيظن آخرون بأنهم ينتقصونهم[١] فلمثل هذه الحالات وأمثالها اقتضى الأمر تشريع الصدقة حين مناجاة الرسول ﷺ ومن باب التدرج في الأحكام .. وكانت النتيجة أن امتنع أهل الباطل لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم حيث نسخ هذا الحكم بالآية التي بعدها ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ .. ﴾[٢] وعليه فمن حكمة تشريع الصدقة: التخفيف عن النبي ﷺ في المناجاة، والتدرج في التشريع، ثم قطع الطريق أمام أهل الباطل وكذا ضعاف النفوس من تفسير المناجاة تفسيرًا سيئًا.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ١٤-٢٢]

تتحدث هذه الآيات عن الولاء لمن حاد الله ورسوله.

فقوله تعالى: ﴿ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة: ١٤] تشير إلى أن المغضوب عليهم هم اليهود وأن الذين تولَّوهم هم المنافقون، وذلك من خلال ما

---

(١) انظر هذه الحالات المشار إليها باعتبارها سبب نزول الآية في القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٧ / ٣٠١).
(٢) المصدر السابق، (١٧ / ٣٠٣).

كانوا ينقلون إليهم من أسرار المؤمنين. فتبين الآية أن هؤلاء المنافقين ليسوا من اليهود ولا من المؤمنين، وأنهم من صفتهم يحلفون كاذبين في أي أمر يستحلفون عليه. وأيًا كان المقصود في الآية من خلال روايات أسباب النزول، لكن تشير الآية إلى أن مثل هؤلاء لا يتورعون عن الحلف الكاذب، لذلك لا يرجى منهم أن يقروا بالحقيقة حتى في حال استحلافهم ... ولذلك لا يمكن لمثل هؤلاء أن يكونوا من المؤمنين حقيقة، وهؤلاء أعد الله لهم عذابًا شديداً في جهنم وهو الدرك الأسفل من النار ... لقد اتخذ هؤلاء أيمانهم الكاذبة التي حلفوها جُنّة – أي وقاية – تقيهم من القتل وبالتالي فلهم عذاب مهين، والملاحظ أنه جمع لهم بين العذاب الشديد والمهين ولعل الأول جسدي والثاني نفسي ... وهؤلاء لا يمنعهم من الله مانع، فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا يمنعهم ذلك من عقاب الله.

وانظر لهذه المغالطة الثانية، وهي أشد من الأولى وأسوأ والتي تبين مدى خبث هؤلاء المنافقين وقلة تفكيرهم، إنهم يأتون يوم القيامة وقد استبان الحق وظهر لكل معاند، لكن هؤلاء يبقون على عنادهم فيحلفون الأيمان الكاذبة في ذلك اليوم كما حلفوا في الدنيا، ويظنون أن ذلك ينجيهم من عذاب الله، لكن هذا لفرط غباوة هؤلاء القوم، وعبر عنهم بقوله: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨]، وهي عبارة يفيد أسلوبها القصر حيث جاء بالخبر مَعْرفة، وكأنه لا كاذب سواهم.

وهؤلاء القوم ما كانوا ليصلوا إلى تلك الحالة إلا بعون الشيطان وتزيينه الشر لهم، فقد بلغ بهم كل مبلغ حتى استولى عليهم، كما قال سبحانه: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة:١٩]، لقد استولى على عقلهم وتفكيرهم وأخذ بلبهم حتى اتبعوا تزيينه ... وانظر إلى التعبير القرآني حيث عبر بالفعل ﴿اسْتَحْوَذَ﴾ حيث يستخدم هذا في الأصل لمن يسوق البعير فيأخذ بحاذيتي البعير ويسوقها سوقًا عنيفًا فيضربها يمينًا وشمالاً وهو راكب عليها، وكذلك الشيطان حيث يسوقهم وقد استولى عليهم كما يساق البعير[١] ثم يصفهم بأن أولئك حزب الشيطان وأنهم الخاسرون وكأنه لا خاسر سواهم.

---

(١) روح المعاني (٢٨ / ٣٤).

ومن ثم فإنه سبحانه ينقلنا إلى الحقيقة الخالدة والتي تفيد ذلة وخسران أولئك المحادين والمعادين لله ورسوله ومن كان في صفهم فوالاهم، كما تفيد غلبة الله ورسوله وإعلاء دين الله تعالى، فالمنافقون إنما لجأوا لأولئك اليهود شعوراً بأنهم قوة تحميهم، لكنه سبحانه بين خسرانهم جميعًا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١]، يقول سيد قطب: (وهذا وعد الله الصادق الذي كان والذي لابد أن تكون على الرغم مما قد يبدو أحيانًا من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق.

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك. واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض، ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقات الشرك والوثنية، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد. وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض – كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية – فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة. فضلاً على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد، لأنها غير صالحة للبقاء. والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد...

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية. ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين، يحميهم من الانهيار، ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها، ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقض عليه وتحطمه ... حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل!)[1].

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٥١٤).

أما قوله تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ [المجادلة:٢٢]، حيث نفى الإيمان عمن يحمل المودة لمن حاد الله ورسوله. وهذا نوع من أنوع الولاء، والملاحظ في آية سابقة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ...﴾ [المجادلة:١٤] حيث أشار لقضية الولاء بشكل عام والذي فسر من خلال السياق وروايات أسباب النزول بإفشاء السر أو بالمناجاة ... لكن أشار في الآية الأخيرة لأمر أخص وهو حمل المودة لمن حاد الله ورسوله.

وهذا يتطلب منا التوقف عند معنى الولاء بشكل عام ثم معنى المودة التي نصت الآية عليها.

أولاً: قضية الولاء

تعتبر قضية الولاء من أهم قضايا الإيمان التي تميز الفرد والمجتمع المسلم عن غيره، لذلك ورد التحذير الشديد والمطول في بيان وتحديد هذه القضية، قال تعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وبين سبحانه تميز كل فريق بالولاء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣]، وقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ولذلك فإن من يتولى الكافرين يكون منهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

والولاء معناه النصرة والتأييد، وأصله (أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما. ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد ...)[1].

والولاء للكافرين قد يكون في الدين، أو في التحالف والتناصر، أو في الطاعة، أو التشبه بهم، أو في محبتهم، وهذه هي أهم مظاهر الولاء:

---

(١) المفردات، ص ٥٣٣ .

[١] الولاء في الدين: كان يفعل فعلاً يؤدي لنصرة دين الكافرين، أو يصدق من الكتب السماوية المحرفة ما كان صريحًا في خلافة للقرآن الكريم، أو يضع صليبًا على صدره ...

[٢] ولاء التحالف والتناصر: إذا كان يؤدي لإعلاء دين الكافرين، أو إعلاء رايتهم وتقوية شوكتهم بما يضر بالمسلمين دولاً أو مجتمعات ... إلا أن تتخذ وقاية تقيهم مما هو أخطر وأشد، قال تعالى: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** ﴾ [آل عمران:٢٨]، أي تتخذون منهم وقاية تكتفون شرهم، أو يقومون بحمايتكم ضد أعداء آخرين.

[٣] ولاء الطاعة: أي في طاعتهم والتجاوب معهم في الكيد للمسلمين أو لدعوتهم قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ** ﴾ [محمد:٢٥-٢٦].

[٤] ولاء التشبه: كما ورد في الحديث: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[(١)].

[٥] ولاء الصحبة والمجالسة إذا أدى الأمر للسكوت على باطل أو كفر، كما قال سبحانه: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ...** ﴾ [النساء: ١٤٠].

[٦] ولاء المحبة: وهذا كما قال سبحانه: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..** ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وكما في الحديث: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**» وفي لفظ آخر «**أوسط عرى الإيمان ...**»[(٢)] وعن معاذ أن النبي ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوده**

---

(١) رواه أبو داود في اللباس (٤٠٣١)، وأحمد (٢ / ٥٠،٩٢)، وغيرهما، وهو صحيح كما في إرواء الغليل للألباني (٥ / ١٢٦٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤ / ٢٨٦) والطيالسي في مسنده رقم (٢١١٠) وحسنه الألباني في تخريجه لكتاب الإيمان لابن أبي شيبة ص ٤٥، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، المكتب الإسلامي، بيروت.

قلبي، فإني وجدت فيما أوحيتَ إليَّ ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴾[١].

ثانياً: المحبة والمودة

المودة تعني المحبة، لكنها تزيد عليها في تمني حصول ذلك الشيء، فالمودة، محبة الشيء مع تمني حصول هذا الشيء[٢].

ثالثاً: بين المودة وبين البر والإحسان

ولا يعني عدم المودة لهؤلاء قطع كل صلة بهم، فإن المقصود بالمودة بما يتعلق بكفرهم أو شركهم أو معاداتهم لله ورسوله، أما محبة القرابة بما لا يتنافى مع دين الله فإنه أمر لا يمنعه القرآن بل يحبذه، يقول سبحانه في شأن الوالدين المشركين: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. ﴾ [لقمان:١٥] ويقول سبحانه: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ... ﴾ [الممتحنة: ٨-٩]، وعليه فالبر والإقساط شيء والولاء شيء آخر، أما البر فمعناه التوسع في عمل الخير لهم، والإقساط العدل، وأما الولاء فمعناه نصرة الدين.

وعليه فإن القرآن ينفي الإيمان عمن حمل المودة لمن حاد الله ورسوله، وذلك إذا كانت المودة تتعلق بالكفر أو الكيد للمسلمين ونحوه، ولو كان هؤلاء آباؤهم أو أبناؤهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

ثم قال سبحانه عنهم: ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ أي أثبت في قلوبهم الإيمان. ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ والمراد بالروح نور القلب يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده فتحصل به طمأنينة القلب ...[٣] ثم بين سبحانه أنه يدخلهم جنات، وأنه رضي عنهم، وأنهم حزب الله وأنهم المفلحون.

---

(١) أخرجه الديلمي من طريق الحسن عن معاذ (الدر المنثور، للسيوطي ٦ / ٢٧٥).
(٢) المفردات، ص ٥١٦ .
(٣) روح المعاني (٢٨ / ٣٦).

الخاتمة

وبذلك تبين لنا أن للسورة القرآنية موضوعًا محددًا تعالجه وتناقشه من خلال مختلف الموضوعات الجزئية، وأنه لا يمكن القول بأن للسورة موضوعات متفرقة لا يربط بينها رابط.

وقضية الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية ظهرت معالمها لدى المفسرين الأقدمين، ويكاد يكون الإمام الرازي المتوفى عام (٦٠٦هـ) أول من صرح بالوحدة الموضوعية للسورة. إلا أن المتأخرين أولوْا هذا الموضوع أهمية بالغة، فصاروا يتحدثون في مقدمة كل سورة عما يجمع الموضوعات المتفرقة في السورة الواحدة وعن الهدف العام للسورة، وتناسب الخاتمة مع المقدمة، وتسلسل الموضوعات وتناسبها. وقد كتب بعضهم كتبًا مستقلة في هذا الموضوع، كما فعل الشيخ محمد الغزالي (المعاصر) الذي ألف كتابًا بعنوان «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم».

وسورة المجادلة واحدة من السور المدنية التي قد تبدو للوهلة الأولى أنها حوت موضوعات متفرقة لا يربط بينهما رابط، لكن بعد التأمل يظهر أنها ركزت على موضوع المحادة لله ورسوله وما يمكن أن ينطبق عليها من تصرفات. مثل الجدل في أمور الدين، والظهار، والنجوى، ثم الولاء لمن يحاد الله ورسوله بشكل عام وحمل المودة لهم بشكل خاص حتى لو كانوا أقرب المقربين للإنسان. وإن كان مفهوم الولاء لا يتناقض مع البر والإحسان ولا يتنافى معه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





فهرس الموضوعات



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
• **الفصل الأول: التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه**	١١
المبحث الأول: ألوان التفسير	١٣
المبحث الثاني: التفسير الموضوعي والدراسات السابقة فيه	١٦
المبحث الثالث: منهج البحث في التفسير الموضوعي	٢١
• **الفصل الثاني: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**	٢٧
المبحث الأول: هدف القرآن الكريم	٢٩
المبحث الثاني: القرآن الكريم يشرح معنى «لا إله إلا الله»	٣١
المبحث الثالث: سورة الفاتحة وصلتها بالموضوع العام للقرآن الكريم	٣٣
المبحث الرابع: أسباب النزول	٣٧
المبحث الخامس: الإعجاز القرآني	٤٢
المبحث السادس: القصص القرآني	٤٦
• **الفصل الثالث: العقيدة في العهد المكي**	٥١
المبحث الأول: عقائد المشركين وأخلاقهم	٥٤
المبحث الثاني: الإيمان بالله تعالى	٦٠
المبحث الثالث: الإيمان باليوم الآخر	٦٧
المبحث الرابع: الإيمان بالملائكة والرسل والكتب والقدر	٧٠
• **الفصل الرابع: العقيدة في العهد المدني**	٧٧
المبحث الأول: عقائد المنافقين واليهود والنصارى وأخلاقهم	٨٢
المبحث الثاني: الإيمان بالله تعالى	٩٤
المبحث الثالث: الإيمان باليوم الآخر	٩٧

الموضوع	الصفحة
المبحث الرابع : الإيمان بالملائكة والرسل والكتب والقدر	١٠٠
● الفصل الخامس: أصناف المخلوقات وعلاقة الإنسان بها	١٠٩
المبحث الأول : الكون	١١٣
المبحث الثاني : الملائكة	١١٨
المبحث الثالث : الجن	١٢٠
المبحث الرابع : الإنسان	١٢٥
المبحث الخامس : علاقة الإنسان بالمخلوقات	١٣١
● الفصل السادس: العبادة	١٣٧
المبحث الأول : معنى العبادة ومفهومها	١٤١
المبحث الثاني : الأمر بعبادة الله	١٤٤
١- صفة الخلق	١٤٤
٢- صفة الإحياء والإماتة	١٤٤
٣- صفة الرزق	١٤٥
٤-النفع والضر	١٤٦
توحيد العبادة	١٤٧
الصبر في العبادة	١٤٨
المبحث الثالث : النهي عن عبادة غير الله	١٥١
١- عبادة الشمس	١٥١
٢- عبادة الأصنام	١٥١
٣- عبادة البشر	١٥٢
٤- عبادة الشهوات	١٥٤
٥- عبادة الشيطان	١٥٩
٦- عبادة الطاغوت	١٦٠

الموضــوع	الصفحة

- **الفصل السابع: التشريع** ١٦١

المبحث الأول : صلة التشريع بالعقيدة ١٦٣

أولاً : عرض بعض الأحكام مرتبطاً بالنهي عن الشرك ١٦٣

ثانياً : عرض الأحكام مرتبطاً بالإيمان ١٦٥

ثالثاً : أسلوب القرآن في ربط الأحكام بالإيمان ١٧٠

المبحث الثاني : خصائص التشريع القرآني ١٧٢

أولاً : الربانية ١٧٢

ثانياً : الإنسانية العالمية ١٧٣

ثالثاً : الموازنة بين الفرد والمجتمع ١٧٣

رابعاً : العدل المطلق ١٧٤

خامساً : الجمع بين الثبات والمرونة ١٧٤

سادساً : الجمع بين الدين والدنيا ١٧٦

المبحث الثالث : الأسس التي قام عليها التشريع القرآني ١٧٧

أولاً : عدم الحرج ١٧٧

ثانياً : قلة التكاليف ١٧٩

ثالثاً : التدرج في التشريع ١٨٠

لقد كان تحريم الخمر على ثلاث مراحل ١٨١

- **الفصل الثامن: أنظمة الحياة في القرآن الكريم** ١٨٣

المبحث الأول : نظام العبادة ١٨٥

أولاً : الصلاة ١٨٥

ثانياً : الصوم ١٨٧

ثالثاً : الزكاة ١٩٠

١- الذهب والفضة ١٩٠

٢- الأصناف المعدة للتجارة ١٩١

الموضـــوع	الصفحة

٣- المحصولات الزراعية ١٩١
٤- الإبل والبقر والغنم ١٩١
مصارف الزكاة ١٩١
١- الفقراء والمساكين ١٩٢
٢- العاملون عليها ١٩٣
٣- المؤلفة قلوبهم ١٩٣
٤- في الرقاب ١٩٣
٥- الغارمون ١٩٣
٦- ابن السبيل ١٩٣
٧- في سبيل الله ١٩٣
رابعاً: الحـــج ١٩٤
١- الإحرام ١٩٥
٢- الالتزام بآداب الحج ١٩٦
٣- صيد البر ١٩٦
٤- الطواف حول الكعبة ١٩٦
٥- السعي بين الصفا والمروة ١٩٧
٦- الوقوف بعرفة ١٩٧
٧- المبيت والرمي بمنى ١٩٨
المبحث الثاني: النظام الاجتماعي ١٩٩
أولاً: المـــــرأة ١٩٩
نظرة الأمم القديمة للمرأة ١٩٩
المرأة عند العرب قبل الإسلام ٢٠٠
تكريم القرآن الكريم للمرأة ٢٠٠
الحجـــــاب ٢٠١

الموضـــوع	الصفحة

ثانياً : الـــــزواج ٢٠٤
أصول الزواج ٢٠٥
الخطبـــة ٢٠٥
صيغة التعاقد ٢٠٦
المهـــــر ٢٠٦
معاملة الزوجة ٢٠٧
القوامة ٢٠٨
تعدد الزوجات ٢٠٨
ثالثاً : الطـــلاق ٢١١
مراحل إيقاع الطلاق ٢١١
(أ) ما قبل الطلاق ٢١٢
(ب) مرحلة إيقاع الطلاق ٢١٣
العـــــدة ٢١٤
(أ) عدة الطلاق ٢١٤
(ب) عدة الوفاة ٢١٥
المبحث الثالث : النظام الاقتصادي ٢١٦
الاقتصاد الرأسمالي ٢١٦
الاقتصاد الاشتراكي ٢١٦
أولاً : الأسس المالية للاقتصاد القرآني ٢١٨
(أ) المال مال الله ٢١٨
(ب) دوران المال بما فيه مصلحة المجتمع ٢١٩
(جـ) الإنفاق والبخل يعود على الإنسان نفسه ٢١٩
(د) تداول المال بين الأغنياء والفقراء ٢٢٠
(هـ) تحريم كنز الأموال ٢٢٢

الموضــوع | الصفحة

ثانياً: التشريعات الاقتصادية في القرآن الكريم ٢٢٤
(أ) الزكاة ٢٢٤
(ب) الميراث ٢٢٤
(جـ) النفقة على الأقارب ٢٢٦
(د) الوصية ٢٢٧
(هـ) الغنائم والفيء ٢٢٨
ثالثاً: المحرمــات الماليــة ٢٣٠
(أ) الربــا ٢٣٠
(ب) السرقــة ٢٣١
(جـ) القمــار ٢٣٢
(د) الإسراف والتبذير ٢٣٢
رابعاً: مشكلة الفقر وعلاج القرآن الكريم لها ٢٣٤
حقوق الفقراء ٢٣٧
(أ) الموارد المالية ٢٣٧
١– الزكاة ٢٣٧
٢– الصدقة ٢٣٧
٣– الغنيمة والفيء ٢٣٩
٤– حضورهم قسمة الميراث ٢٤٠
(ب) الطعام ٢٤٠
مصادر إطعام الفقراء والمساكين ٢٤١
١– كفارة اليمين ٢٤١
٢– كفارة الظهار ٢٤١
٣– كفارة إفطار رمضان ٢٤٢
٤– الأكل من مال اليتيم ٢٤٢

الموضوع	الصفحة
٥- نحر الهدي في الحج	٢٤٣
٦- الصيد في الحرم	٢٤٤
٧- الجـــار	٢٤٤
٨- صدقة الفطر والوليمة	٢٤٤
(جـ) الإحســـان	٢٤٥
صور الإحسان للفقير	٢٤٥
١- الإنفاق عليه مما يحب	٢٤٥
٢- عدم نهر السائل	٢٤٧
٣- تزويجــه	٢٤٧
٤- العدل في شأنه	٢٤٨
٥- إنظاره في الدين إن كان معسراً	٢٤٩
٦- نفي الحرج عنه في الجهاد	٢٥٠
٧- القيام على المساكين وحبُّهم	٢٥٠
المبحث الرابع: النظم الأخلاقي	**٢٥٢**
أولاً: الفضائل	٢٥٥
(أ) الإحسان	٢٥٥
(ب) الصبر	٢٥٦
(جـ) الصدق	٢٥٨
(د) العفـــو	٢٥٩
(هـ) الوفاء بالعهد	٢٦٠
(و) الإصلاح بين الناس	٢٦٢
(ز) الإيثـــار	٢٦٣
ثانياً: الرذائـــــل	٢٦٥
(أ) الكذب	٢٦٥

الموضوع	الصفحة

(ب) الظلم ٢٦٦
(جـ) الخيانة ٢٦٧
(د) التكبر والخيلاء ٢٦٨
(هـ) الجهر بالقول السيء ٢٦٩
(و) الظن السيء ٢٧١
(ز) الحسد ٢٧٢
المبحث الخامس: نظام الحكم ٢٧٤
أولا: الحاكمية ٢٧٦
ثانياً: الخلافة ٢٨٢
ثالثاً: الشورى ٢٨٦
● **الفصل التاسع: الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية** ٢٩١
المبحث الأول: الوحدة الموضوعية في السورة ومنهج البحث فيها ٢٩٣
أولاً: جهود العلماء في بيان الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية ٢٩٥
ثانياً: الوحدة العضوية والوحدة الموضوعية ٣٠٣
ثالثاً: الهدف من دراسة السورة دراسة موضوعية ٣٠٥
رابعاً: منهج استخراج الوحدة الموضوعية للسورة ٣٠٦
خامساً: العلاقة بين اسم السورة وموضوعها ٣٠٧
المبحث الثاني: الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة «دراسة تطبيقية» ٣١٠
تعريف عام بسورة المجادلة ٣١٠
الوحدة الموضوعية في سورة المجادلة عند المفسرين ٣١٢
دراسة موضوعية في سورة المجادلة ٣١٨
● **الخاتمة** ٣٣٣
● **فهرس المحتويات** ٣٣٥